العدد (٦٠١) رمضان ١٤٣٦ هـ - يونيو - يوليو ٢٠١٥ م

أسست عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٥٧ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

شهر رمضان بين الواقع والمأمول

مجانًا مع العدد «براعم الإيمان»

- هوى النفس وتحلل المجتمعات
- مقاصد القرآن الكريم وثمرتها
- مخاطر الإعلانات التلفزيونية على القيم
- احتفالية المخطوط العربي تدعو إلى نشر ثقافة التراث

هدية العدد: «بوستر الوقف»

info@alwaei.com

www.alwaei.gov.kw

مجلة الوعي الإسلامي

شرف الزمان

أنزل القرآن في شهر رمضان، ليكون المعجزة لسيد ولد عدنان، ولقد عني المسلمون منذ فجر الإسلام، في ربوع العالم، بالقرآن الكريم؛ مصدر الهداية، ومنبع الإشراق، وكانت له آثاره المباركة الطيبة في حياة الإنسان، ولقد تكفل الله بحفظه.

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

فلما كان الصيام في نفسه مضاعفا أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال، كان صيام شهر رمضان مضاعفا على سائر الصيام؛ لشرف زمانه، فإن الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال. لأن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها، لله عزوجل، ولا يوجد في عبادة أخرى غير الصيام.

وكم يتوالى علينا الشهر وحالنا فيه كحال أهل الشقوة! لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة.

فيجب على المسلم أن يتلقاه بالقبول، والفرح بـأداء حقوقه، فيعمر نهاره بالصيام، وليله بالقيام، وبترك الشهوات، فلتركها فوائد جليلة، منها كسر النفس، وتخلية القلب للفكر والذكر.

وعلى العاقل أن يعرف قدر عمره، وأن ينظر لنفسه في أمره، فيغتنم ما يفوت استدراكه، وربما حصل بتضييعه هلاكه، فمن عرف شرف العمر وقيمته، لم يفرط في لحظة منه.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠١ | رمضان ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
يونيو - يوليو ٢٠١٥م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات

رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية
- المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

١٤
د. عبدالمقصود عبدالحميد باشا
رئيس قسم التاريخ بجامعة الأزهر

٥٦
عولمة اللغة العربية.. في مؤتمر الخالدين

٧٠
العلامة محمد التاويل في ذمة الله

٧٢
السحر الحلال

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

الكويت : ٥٠٠ فلس • السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة • الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه • اليمن : ١٠٠ ريال • لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري • تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

٣	**الافتتاحية/** شرف الزمان	فيصل يوسف العلي
٦	**مناسبات/** شهر رمضان بين الواقع والمأمول	د. خالد راتب
٨	محطات إيمانية مع شهر الصوم	د. محمد السقا
١٠	من إبداعات الدلالة القرآنية في آيات الصيام	د. مصطفى قنبر
١٢	في الفرق بين الصوم والإمساك	د. أمان قحيف
١٤	**حوار/** د. عبدالمقصود عبدالحميد باشا رئيس قسم التاريخ بجامعة الأزهر	إسلام لطفي
١٧	**فعاليات/** قطاع الثقافة في الأوقاف يشارك في معرض جنيف الـ ٢٩	التحرير
١٨	**قرآن/** مقاصد القرآن الكريم وثمرتها	د. يوسف الحزيمري
٢٠	**مؤتمرات/** احتفالية المخطوط العربي تدعو إلى نشر ثقافة التراث	دار الإعلام العربية
٢٤	**ملف العدد/** هوى النفس.. وتحلل المجتمعات	السنوسي محمد
٢٦	حديث القرآن عن الهوى	د. مسعود صبري
٣١	كيف أضبط أهواء نفسي؟	د. آندي حجازي
٣٤	أفعالنا بين العاطفة والعقل	عبدالله شريف ومحمد عبدالعزيز
٣٨	**دراسات/** الضوابط الأخلاقية لمنظومات الهندسة الطبية	د. شيرين فراج
٤٤	مخاطر الإعلانات التلفزيونية على القيم	د. محمد الفاتح
٤٩	الإسلام وحقوق الإنسان	أحمد مصطفى
٥٢	**لغة وأدب/** ذوو اللسانين	د. أحمد حسين بكر
٥٤	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٤)	عبدالله أيت الأعشير
٥٦	عولمة اللغة العربية.. في مؤتمر الخالدين	دار الإعلام العربية
٦٠	عثرات الأقلام (٣)	التحرير
٦١	وأتيت يا رمضان	هند النزاري
٦٢	إبراهيم عبدالقادر المازني	د. محمود خلف
٦٤	**أنباء الكتب/** رحلة في زاد المعاد	عبدالله الدرويش
٦٦	**مقدمات الكتب/** تهذيب الكمال للحافظ المزي	التحرير
٧٠	**رثاء/** العلامة محمد التاويل في ذمة الله	د. عبدالغني يحياوي
٧٢	**أسرة/** السحر الحلال	إيمان القدوسي
٧٤	تأملات في كلمة الأرحام	عبدالباقي يوسف
٧٧	**رثاء/** في رثاء الشيخ الدكتور عبدالهادي مسوتي	د. حسان الطيان
٧٨	**أخلاق/** المدح والقدح	كمال عبدالمنعم
٨٠	**استطلاع/** مدرسة «والدة عتيق».. كلية إيمانية جامعة	تركي النصر
٨٢	**كنوز الذاكرة**	التحرير
٨٤	**الوعي الشبابي**	خالد خلاوي
٨٦	**الوعي الحضاري**	د. عمرو عبدالكريم
٩٠	**النوازل**	د. محمود الكبش
٩٢	**ينابيع المعرفة**	التحرير
٩٤	**بريد القراء**	علاء عبدالفتاح
٩٨	**مسك الختام/** الوحدة المنشودة	عبدالعالي زواغي

كلمة العدد

عبادة الهوى!

أصل دين الإسلام الاستسلام لله، والانقياد له بالطاعة. فمن أسلم وجهه لربه، ووقف عند حدود الله، وامتثل أمره؛ فقد اهتدى وفاز، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠-٤١)، وأما من اتبع هوى نفسه، فإنه بالضرورة مخالف أمر ربه، منتهك حدوده؛ وعاقبته الهلاك والخذلان ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٣٩). والفساد إنما يقع بسبب الجهل بالحق، أو مخالفته مع العلم به وهو الهوى. والجهل والهوى أصلا كل شر وبلية، ولذلك ما ذكر الله سبحانه الهوى في كتابه إلا على سبيل المذمة والأمر بمخالفته، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القصص:٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦).

الهوى شر محض؛ لأن صاحبه يتخذه إلها، فلا يتحرك إلا بأمره، ولا ينصاع إلا لحكمه، وصدق الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:٢٣).

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

شهر رمضان بين الواقع والمأمول

د.خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

الكل يعرف فضل رمضان، وأنه شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار، والكل يستعد له، فأهل الطاعة يستعدون له بعزيمة قوية وروح عالية، لتزكية نفوسهم، والرقي قدما في طهارة القلب والمجتمع، ويكون الاستعداد بوضع الخطط، وتحديد الهدف، ومعرفة ماذا يريد منهم شهر القرآن والصيام والجود والكرم..

وأهل المعصية يستعدون كذلك لرمضان؛ حيث يدخلون على رمضان ولا هَمَّ لهم بالليل والنهار إلا تحصيل الملذات والشهوات، بل وتزداد معاصيهم في شهر رمضان، ويصدون غيرهم عن ذكر الله وعن الفرائض؛ وذلك بملء أوقاتهم باللهو كالمسلسلات والأفلام...

إن واقع كثير من الصائمين في رمضان - ناهيك عن الذين لا فرق عندهم بين رمضان وغيره - مؤلم ومحزن؛ فهناك سلوكات سلبية تظهر من الصائمين لا تتناسب مع: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، ولا مع الإيمان والاحتساب المطلوب تحققهما في رمضان وغيره، ولا مع شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، ولا مع شهر الانتصارات على النفس والهوى والشيطان والأعداء..

إنك ترى فضولا كبيرا من الصائمين وإسرافا بكل ما تحمل الكلمة من معان، فهناك إسراف في المأكل والمشرب، فما حرموا منه بالنهار يعوضونه في الليل إسرافا وتبذيرا!.

وإسراف في النوم في نهار رمضان؛ ويا ليت النوم من كثرة القيام والتهجد، ولكنه النوم من كثرة السهر أمام المحرمات وما يغضب الله، وبعض الناس ينام من بعد السحور حتى قبل أذان المغرب بدقائق معدودة؛ ليواصل السهر مرة أخرى!

وقد كان سلفنا الصالح أشد الناس حرصا على أوقاتهم، وخصوصا في الأزمنة الفاضلة كشهر رمضان، فكان نهارهم صياما بكل ما تحمله الكلمة وإمساكا كاملا عن كل المحرمات، وشغل اللسان والجوارح بالطاعات (قراءة القرآن والذكر، والدعاء والصدقات وإطعام الطعام، وتفطير الصائمين...)، وليلهم قيام واستغفار، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السجدة:١٦)، ثم بعد ذلك قلوبهم وجلة ألا تقبل منهم الأعمال، فهم في وصال دائم بربهم.

قال ابن رجب في لطائف المعارف: «كان بعض السلف يختم في قيام رمضان كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع، منهم قتادة، وبعضهم في كل عشر، منهم أبورجاء العطاردي، وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، كان الأسود يقرأ في كل ليلتين في رمضان، وكان الحنفي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة، وفي بقية الشهر في ثلاث، وكان قتادة يختم في كل سبع دائما، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرأها في غير المصحف، وعن أبي حنيفة نحوه. وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان، وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام».

ونرى في رمضان إسرافا في الكلام دون ضابط، والتحدث فيما لا يعني المرء، وقد قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، والتكلم فيما لا يعني المرء عاقبته وخيمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ شهيدا؛ فبكت عليه باكية، فقالت: واشهيداه، قال: فقال النبي ﷺ: «ما يدريك أنه شهيد؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، أو يبخل بما لا ينقصه».

وقال الحسن: من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، وقال سهل بن عبدالله التستري: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق، وقال معروف: كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله.

وقال محمد بن عجلان: إنما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعنيك من أمر دنياك. وقال رجل لسلمان: أوصني، قال: لا تكلم، قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم، قال: فإن تكلمت، فتكلم بحق أو اسكت.

ولا يقتصر الأمر على التدخل فيما لا يعني المرء، بل يتعدى إلى الغيبة والنميمة والسباب وقول الزور والتقاتل، وهذه

الفئة من الناس لا حظ لها في رمضان إلا الجوع والعطش، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

ومن السلبيات الواضحة لبعض الصائمين تضييع أوقات العمل بحجة الصيام والقيام، فيذهب متأخرا إلى عمله وينصرف مبكرا مضيعا حقوق الناس!. متناسيا حقوق العمل عليه من الإتقان الذي يحبه الله، قال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

ونشاهد التخاصم والتدابر في شهر الصفاء والمودة والمحبة بين أفراد الأسرة، وبين الأقارب والجيران.. وقد وصى الله عباده بالتعارف والتعاون: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢).

ومن السلبيات والمخالفات التي يقع فيها الصائمون التشرذم والافتراق والاختلاف الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب القوة: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦).

وقد أمرت الأمة الإسلامية بالاعتصام والاتحاد، وهذا هو الهدف الأساسي من العبادات، فالصلاة في جماعة باب من أبواب التعارف والتقارب، والزكاة تهدف إلى توثيق العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، والصيام باب من التكافل الاجتماعي، والتوحد الشعوري والقلبي والعملي، وذلك يظهر عند إمساكهم وإفطارهم، وكذلك الحج مؤتمر التعارف العالمي، فالعبادات كلها توحدنا.. فلماذا نحن نتفرق ونتشرذم؟!

ومن المحزنات التي يندى لها جبين الأحرار ما يحدث لإخواننا المسلمين الذين يقفون وحدهم في وجه الباطل يستأصل شأفتهم، ويقضي على وحدتهم، عندما نرى المجازر والمذابح تحدث على مسمع ومرأى من العالم كله، ونحن صامتون مسرفون في الصمت! ناديت لو أسمعت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي.

هذا هو الواقع وبكل صراحة ودون تضليل، خلاف المأمول الذي يجب تحققه، فالمأمول تحقيق مقصد الصيام وهو: «التقوى وتربية النفس وتزكيتها، وتطهير الأخلاق، وتهذيب السلوك»، المأمول هو إيجاد عباد أولي بأس شديد في مواجهة شهواتهم وأنفسهم، ومواجهة أعدائهم، والفرصة سانحة الآن، والجو العام يساعد على ذلك، حيث تسلسل الشياطين، وغلق أبواب النيران، وفتح أبواب الجنان، ولا يتحقق هذا المأمول إلا عندما نعرف جيدا أن شهر رمضان هو ميلاد العالم كله؛ وذلك لأنه ميلاد الرسالة الخالدة التي نزلت على قلب محمد ﷺ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥)، هذا الكتاب الخالد الذي نزل على الرسول الخاتم كان نقطة الارتكاز في تغيير العالم كله، وذلك لأن غايته الهداية: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩). ولما كان شهر رمضان ميلادا جديدا لهذه الأمة كان اهتمام أصحاب رسول الله به عاليا، وكانوا يستعدون لهذا المولود - الذي سيدخل البهجة والطمأنينة على قلوبهم ونفوسهم، ويصنعهم خلقا آخر - قبل أن يأتيهم بستة أشهر.

فالأمل الذي ننتظره في رمضان أن يحدث فينا تغيرا شاملا وكاملا في حياتنا، سيتحقق.. ولكن بشرط أن تكون البداية من ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ والنهاية بـ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، ولا يحدث هذا التغيير بالتمني ولكن لابد من إرادة التغيير والسعي الحثيث الجاد نحو التغيير الشامل والكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

وحقيقة التغيير الاستمساك بالوحي: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف:٤٣)، وإن كان الخطاب للرسول ﷺ وهو خير من تمسك بالقرآن، فالأمر أولى وأولى لكل فرد في أمته، فنحن لا نريد أمة متسابقة في القراءة والحفظ فقط، بل نريد أمة التسابق في التمسك والاعتصام بالقرآن والسنة المطهرة.

نأمل في شهر رمضان - شهر الصيام والقيام والمسارعة في الطاعات - أن يصنع لنا الرجال الذين يصدقون مع الله في نياتهم وأعمالهم، نريد «رمضان بدر» اقتداء بكتيبة الإيمان التي صامت إيمانا واحتسابا فدمغت أهل الباطل وتوجت نصرها بفتح مكة..

نريد رمضان الذي نسترد فيه القدس من الصهاينة، ونسترد حريتنا ونحرر فيه أنفسنا من أنفسنا.

محطات إيمانية مع شهر الصوم

د. محمد السقا
باحث أكاديمي

شهر رمضان ليس كبقية الشهور، أيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، الشياطين فيه مغلولة محبوسة، ويزيد الله فيه الأرزاق ويكتب الآجال ويختار وفد الحاج إلى بيته الحرام، إنه شهر التوبة، وشهر الإنابة، وشهر القرآن، وشهر الاستغفار، وشهر الدعاء، وشهر العبادة، وشهر الطاعة، وشهر المواساة، وشهر الصبر، وشهر العتق من النار، وشهر الفوز بالجنة.

أخي الصائم، يطيب لي أن أقف معك وقفات سريعة في عدة محطات في هذا الشهر الفضيل:

المحطة الأولى: تحقيق التقوى

شرع الله سبحانه وتعالى لعباده صيام شهر رمضان المبارك لتحقيق تقواه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣).

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ فالصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثالا لأمر الله تعالى واجتنابا لنهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها مما تميل إليه نفسه متقربا بذلك إلى الله تعالى، يرجو بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله سبحانه، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها: أن الصوم يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعاته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقير المعدم، وهذا من خصال التقوى.

المحطة الثانية: الدعاء

من فضائل هذا الشهر المبارك أن الدعاء مستجاب فيه؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم» (حديث صحيح، رواه الترمذي وابن ماجه ١٧٥٢).

فالصائم حين يصوم يصبح منكسر القلب، ضعيف النفس، ويذل جموحه، ويقترب من ربه تعالى، ويترك الطعام والشراب طاعة لله تعالى، ويكف عن الشهوات استجابة لرب الأرض والسموات.

المحطة الثالثة: الصبر

إن شهر رمضان فرصة عظيمة لتقوية الإرادة وصدق العزيمة، والانتصار على النفس والتسامي بها فوق الشهوات، والترفع عن الأحقاد والضغائن والكراهية والعناد. فهو شهر الصبر، والصبر جزاؤه عظيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠).

قال ابن رجب الحنبلي: «والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة». وتجتمع الثلاثة في الصوم، فإن فيه صبرا على طاعة الله، وصبرا عما حرم الله على النفس والبدن، لأن العبد يترك شهواته لله ونفسه قد تنازعه إليها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن الله عزوجل يقول: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي، وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي».

فالصوم يختص، من بين باقي الأعمال، بأنه سر بين العبد وربه. والمطلب: مراقبة الله، وهذه المراقبة ما هي إلا صبر على تحري ما يرضي الله فيقبل عليه العبد، وعلى تحري ما يغضب الرب فينفر منه العبد. فاصبر على مراقبة الله.

أقول: فالذي صبر على هذه الأمور، ولا يخرج من رمضان رجلا صبورا فقد فاته خير كثير، وحرم نفسه فرصة عظيمة جدا لاكتساب هذه الصفة، وهي صفة الصبر، والتي هي من أخلاق الأنبياء والرسل.

المحطة الرابعة: تلاوة القرآن

رمضان شهر القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة:١٨٥).

وإن ابتداء نزول القرآن في رمضان دليل على أهمية رمضان من جهة، ودليل على أنه من المهم التزام القرآن فيه، تلاوة وحفظا وتفسيرا وتدبرا وعملا وتطبيقا. فنزول القرآن، الذي هو النعمة العظمى، تزامن في رمضان، الذي هو المنحة العظمى. فالذي يعطل القرآن ليس له حظ في رمضان.

وتلاوة القرآن في شهر رمضان، والاستماع إليه، ومدارسته، وتدبر أحكامه.. من أعظم القربات التي يتقرب بها الصالحون إلى الله تعالى في هذا الشهر.

ففي الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن...» (الحديث).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «ودل الحديث أيضا على استحباب دراسة القرآن في رمضان، والاجتماع على ذلك، وعرض القرآن على من هو أحفظ له. وفيه دليل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان».

وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – أن المدارسة بينه ﷺ وبين جبريل كانت ليلا، فدل ذلك على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلا، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر.

وفي الختام

فإن الصيام جنة من النار، وإنه جنة من الشهوات، وإن في الجنة بابا يقال له الريان لا يدخل منه إلا الصائمون، وإن الصيام شفيع لصاحبه. وهو كفارة ومغفرة من الذنوب، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. الصيام سبب للسعادة في الدارين.

فيا من ضيع عمره في غير الطاعة، يا من فرط في شهره، بل في دهره وأضاعه! يا من بضاعته التسويف والتفريط، وبئست البضاعة، يا من جعل خصمه القرآن وشهر رمضان، كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة؟!

رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وقائم حظه من قيامه السهر.

اللهم بلغنا رمضان.. اللهم بلغنا رمضان.. اللهم بلغنا رمضان.

واجعلنا من الصائمين القائمين فيه يا أرحم الراحمين.

سمة إبداعات الدلالة القرآنية في آيات الصيام

د. مصطفى أحمد قنبر
باحث في العلوم اللغوية
الدوحة - قطر

لم يحظ كتاب سماوي بالتأمل والتدبر، ولم ينل قدرا من البحث والدرس مثل ما حظي به القرآن الكريم، فالتف حوله كل راغب في الهدى وباحث عن الحقيقة، وعلى مائدته الثرية جلس كل ذي علم يبتغي علما ندر أن يجد ضالته إلا في هذا الكتاب المعجز.

وما أروع ما كتبه فقيه العربية العالم الموسوعي جلال الدين السيوطي يرحمه الله في هذا المقام، إذ يقول: «إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل هدى وغي، فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد: فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام. وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار. ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب» (١).

ألفاظ منتقاة في نسيج لغوي بديع

وإذا تأملنا آيات الصيام في هذا الكتاب المعجز، استوقفتنا الكثير من النكات في مكوناتها من ألفاظ منتقاة، وتراكيب انتظمت في مواقعها في هذا النسيج اللغوي البديع. نكتفي هنا ببيان ما جاء في الآية الأولى، إذ يقول البارئ جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣).

وأول ما نطالعه أن هذه الآية الكريمة الأولى تضمنت حكما شرعيا لركن من أركان الإسلام، وهو فرض الصيام لشهر واحد في العام هو شهر رمضان. وقد تضافرت العناصر اللغوية في هذا الخطاب القرآني داخل تراكيب بديعة لإخراج هذا البيان القرآني الفريد على النحو الذي نراه، وما كان لعناصر غيرها أن تؤدي دورها الدلالي، وما كان لمواقعها في التراكيب أن تتبدل مؤدية المعنى والدلالة نفسيهما، فسبحان من هذا كلامه!

فما بين الأسلوب الإنشائي الطلبي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في المفتتح، وأسلوب الترجي ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ في المختتم، تلقى أصحاب عقيدة التوحيد رسالة ربهم في فريضة الصيام عبر عناصر لغوية وتراكيب فصيحة واضحة المضمون، عميقة الدلالة.

النداء بأحب صفة للمؤمنين

بدئ النص الكريم بأسلوب النداء تنبيها وجذبا للمتلقين بالأداة: «يا»، التي تستخدم لنداء البعيد، مسافة أو حكما، وقد ينادى بها القريب توكيدا (٢). وكلا التعليلين، البعيد مكانة والقريب توكيدا، مقبول هنا. ثم جاء المنادي بأحب صفة للمعنيين بهذا التكليف، إنها صفة الإيمان التي تميز هؤلاء عن غيرهم، وتلك صفة جعلتهم أهلا لفرض هذه الشعيرة عليهم بكيفية مخصوصة فصلتها الآيات التالية، كما هم أهل للاستجابة لكل ما يدعوهم إليه خالقهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٨)، لأن في تلك الاستجابات الحياة الحقيقية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٤).

ثم جاء جواب النداء بجملة فعلية فعلها ماض، بما يفيد إنفاذ الحكم وثبوته وأنه قد صدر فلا مراجعة، ولنتأمل قليلا الفعل: «كتب»، الذي تصدر هذه الجملة، إنه يحمل دلالة الإلزام لكل مخاطب من جماعة المؤمنين، وذلك قبل أن يعرف

نائب الفاعل الذي يترتب عليه نوع الاستجابة لهذا الفعل. وإذ جاء هذا الفعل على صيغة ما لم يسم فاعله، فلأن الفاعل معروف للمقصودين بالنداء، وهو الشارع الحكيم تبارك وعلا، أو لتعظيم المكتوب (الصيام)، ولتنصرف الأهمية هنا لمضمون الفعل ودلالاته.

أما نائب الفاعل (الصيام)، فقد تأخر ليتقدم عليه الجار والمجرور (عليكم)، بما يفيد تخصيص المخاطبين هنا بالحكم دون غيرهم، وفي هذا التخصيص عناية تشريف وتعظيم لهم، وليس تكليف مشقة وتعذيب، وفي ذلك أيضا تأكيد الإلزام والفرض. ثم يأتي نائب الفاعل، وهو المقصود بالإلزام والفرض، في الفعل «كتب» إنه «الصيام» بعد أن تهيأت نفوس المتلقين له.

السياق التاريخي للفريضة

إلى هنا كملت الرسالة، ووصل مضمونها إلى المتلقين المعنيين بها، وهم جماعة المؤمنين، وما عليهم إلا السمع والطاعة كما في كل أوامر التكليف. لكن هذا النص الشريف لم يقف عند هذا، بل تطرق إلى السياق التاريخي لهذه الفريضة، ربما ليلقي شيئا من الطمأنينة في نفوس المكلفين، حيث قد تساورهم بعض الشكوك في عدم المقدرة على القيام بهذه الشعيرة، أو ملاقاة المشقة والتعب والإنهاك البدني، بيد أن هذه النفس ما عهدت من بارئها إلا اليسر لا العسر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، فتأتي الصورة التشبيهية: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تهدئة لهذه النفوس القلقة، ونشرا للسكينة في جنباتها.

التقوى الغاية والثمرة

ثم ترتفع معنويات هذه النفوس بعد أن زالت عنها الهواجس حين تنبأ من الشارع لهذه الفريضة جلت حكمته، أن الغرض من ذلك كله جائزة كبرى، وهدف أسمى، وغاية عظمى، إنها التقوى! وما أدراك ما التقوى عند هذه الجماعة المؤمنة؟ إنهم «يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه. فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم. وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون إليه» (٣). وهو ما عبر عنه التركيب التالي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بيان لحكمة الصيام وما لأجله شرع، فهو في قوة المفعول لأجله لكتب. و«لعل» إما مستعارة لمعنى كي استعارة تبعية، وإما تمثيلية بتشبيه شأن الله في إرادته من تشريع الصوم التقوى بحال المترجي من غيره فعلا ما. والتقوى الشرعية هي اتقاء المعاصي، وإنما كان الصيام موجبا لاتقاء المعاصي، لأن المعاصي قسمان: قسم ينجع في تركه التفكر كالخمر والميسر والسرقة والغصب فتركه يحصل بالوعد على تركه والوعيد على فعله والموعظة بأحوال الغير، وقسم ينشأ من دواع طبيعية كالأمور الناشئة عن الغضب وعن الشهوة الطبيعية التي قد يصعب تركها بمجرد التفكر، فجعل الصيام وسيلة لاتقائها، لأنه يعدل القوى الطبيعية التي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية» (٤).

ديمومة العطاء

هنا تعلو الهمم وتشحذ العزائم.. إنها ثمرة ليست وقتية أو آنية، إنها مستمرة ودائمة. ولحلو مذاقها وجمال شكلها ولذة طعمها، ترغب نفوس هؤلاء الذواقين في ديمومتهم معها، فلا يكتفون بالأيام المعدودات، بل يسعون إلى اغتنام السنن من شوال وذي الحجة والمحرم...؛ لأنهم علموا ما في هذه الشعيرة من الخير الكثير. وعلى قدر وعظم الجائزة يكون العمل والسعي لها.

هكذا كانت الرسالة، وبهذه الكيفية تلقتها ووعتها العقول المؤمنة. مذ اشرأبت الأعناق لمعرفة الحكم والمعنيين به حتى بلوغ الهدف الآني والآجل من هذا الركن العظيم، وما تخلل ذلك من عناصر لغوية هيأت المتلقين لقبولها وساهمت في إبراز هدفها. كل هذا جعل أفئدة المؤمنين تلهج بالسمع والطاعة لحكم الشارع جلت حكمته. فسبحان من هذا كلامه!

وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

١ - السيوطي (ت ٩١١ هـ): الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ج١، ص١٧.

٢ - انظر: ابن هشام: مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٥، (١٩٧٩م)، ص٣٥٤، ٣٥٥. ود. إبراهيم حسن إبراهيم: أسرار النداء في لغة القرآن الكريم، مطبعة الفجالة، القاهرة، (١٩٧٨م) ص٩.

٣ - سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ط ١٧، (١٤١٢هـ)، ١٦٨/١.

٤ - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٤م)، ج ٢، ص١٥٨.

في الفرق بين الصوم والإمساك

أ. د. أمان محمد قحيف
باحث أكاديمي

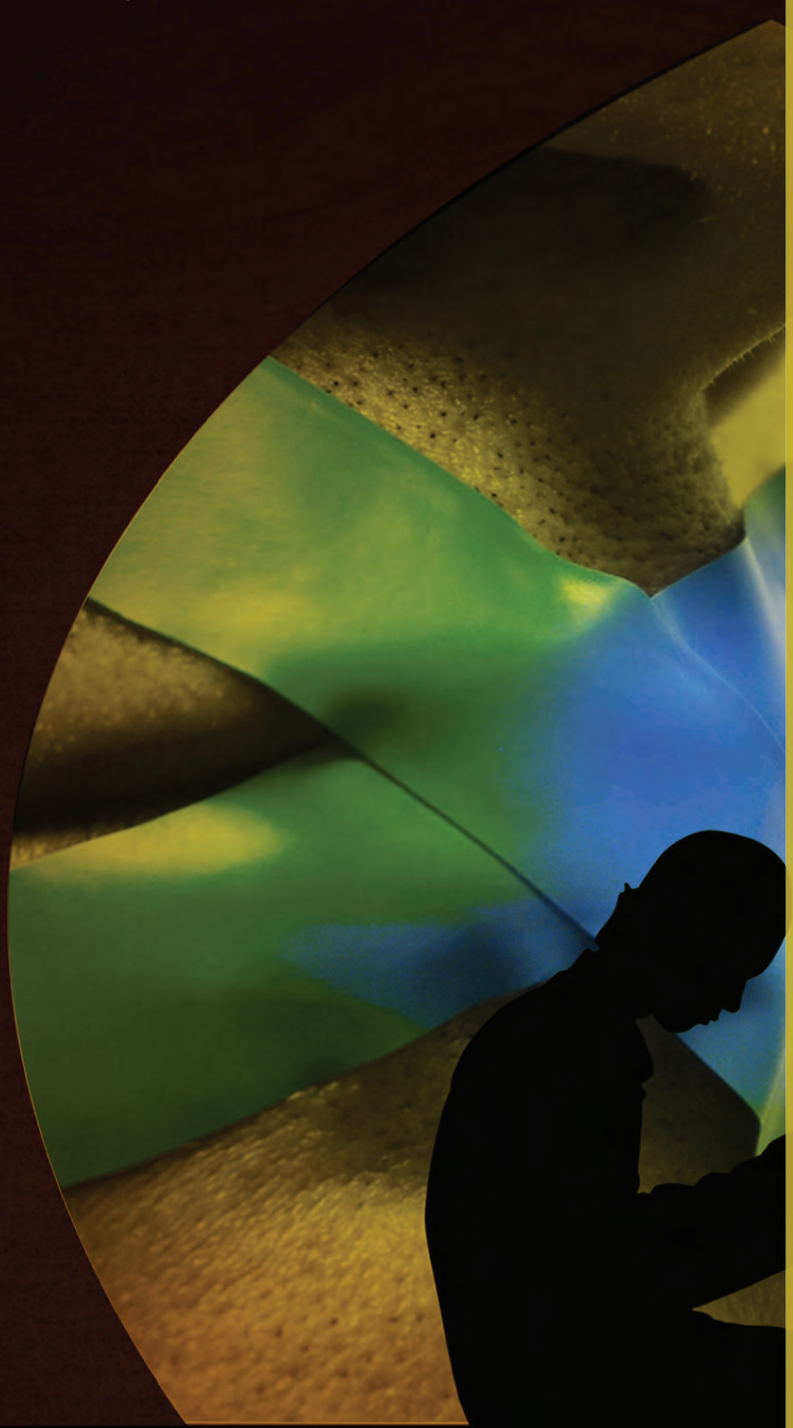

إن من المفيد للوعي بجوهر العبادة وإدراك مقاصد التشريع تحرير المصطلحات وبيان المعاني والدلالات الحقيقية لمفاهيم الشريعة الإسلامية الغراء؛ لأن من يعبد الله تعالى على بصيرة أفضل بكثير ممن يتعبد من دون وعي أو إدراك للمعاني السامية والراقية المتضمنة في كل عبادة أو تشريع.

ولقد اخترنا - بمناسبة شهر رمضان - أن نلقي شيئا من الضوء على الفرق بين مفهومي «الصوم» و«الإمساك»، إذ كثيرا ما يتبادر إلى ذهن بعضنا أن مفهوم اللفظين مترادف تماما، من حيث المعنى والدلالة، بينما الواقع أن ثمة فروقا متعددة بين المفهومين، يقف عليها ويدركها المحققون من أهل العلم والدراية، وتغيب في كثير من الأحوال عن ذهن العديد من المسلمين.

والحق أن وجود هذه الفروق - التي سنوضحها لاحقا - بين اللفظين يعد دليلا ناصعا على دقة المفاهيم في تراثنا الإسلامي، ويؤكد من جهة أخرى على ثراء لغتنا العربية وثراء معاني مفرداتها التي يتداولها الناس.

ولاشك أن هناك من يتناول اللفظين بمعنى واحد انسياقا خلف المقولة الشهيرة التي تقول: «الصوم لغة هو الإمساك»، مع العلم بأن هذه المقولة لا تقبل ولا يؤخذ بها إلا عند الحديث عن الصوم غير الشرعي: أي الصوم الذي لا يراد به عبادة ولا يقصد به طاعة، كالصوم الذي يمارس من أجل إنقاص الوزن أو رفع مستوى اللياقة البدنية أو انتظام القوام.. إلى غير ذلك من الأهداف والأغراض الدنيوية.

بينما الدارس المحقق لقضية الصوم من الناحية الشرعية يتبين له أن اللفظين - الصوم والإمساك - ليسا بمترادفين على الإطلاق؛ إذ ثمة فروق لغوية وشرعية بين دلالة ومعنى كل منهما.

ولبيان هذه الفروق نشير إلى أنه قد ورد في «لسان العرب» عند الحديث عن عموم الصوم أن «الصوم: ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام» (١). ولقد نقل العلامة ابن منظور عن أبي عبيدة - العالم اللغوي الشهير - أن الصوم «إنما هو نية في القلب وإمساك عن حركة المطعم والمشرب» (٢). فالصوم بهذا المعنى يتكون من ركنين أساسيين هما: النية التي في القلب، والإمساك عن الطعام والشراب والنكاح.

نأخذ من ذلك إذن أن الصوم أعم من الإمساك وأوسع منه، لأن الإمساك مع النية يشكلان ركنين أساسيين يقوم عليهما الصوم.. هذا من جهة اللغة.

والحق أن هذا الفرق بين اللفظين موجود ومشار إليه عند أهل الفقه أيضا، فقد ورد عند العلامة ابن رشد الحفيد، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ، أن للصوم عند الفقهاء أركانا ثلاثة «اثنان متفق عليهما، وهما: الزمان، والإمساك عن المفطرات. والثالث مختلف فيه، وهو النية» (٣). فالزمان هو شهر رمضان. أما الإمساك فيقول فيه ابن رشد: «أجمعوا على أنه يجب على الصائم الإمساك زمان الصوم عن المطعوم والمشروب والجماع...» (٤).

والشاهد هنا أن الإمساك يعد ركنا من أركان الصيام الثلاثة (الزمان والإمساك والنية) التي أشار إليها أكثر الفقهاء، على النحو الذي أوضحه العلامة ابن رشد الحفيد في كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد». ولقد أشار الغزالي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) في كتابه «إحياء علوم الدين» (*) إلى أن الإمساك من الواجبات على الصائم. ويستفاد من ذلك أن الإمساك لا يرادف الصوم، لأنه من الواجبات المنوط بالصائم الالتزام بها.

ونود الإشارة إلى أن الوقوف بمعنى الصوم عند حدود الإمساك فقط كما يظن بعضهم، هو بمنزلة النظر إلى ظاهر التشريع الإلهي من دون التغلغل إلى جوهره أو الولوج إلى حقيقة معانيه. فالصوم، كتشريع إلهي، لا يتمثل بحال من الأحوال في الامتناع عن المأكل والمشرب وإتيان النساء فحسب، كما يتصور بعض الناس. لكن الصوم بمعناه الحقيقي هو الإمساك عن كل ما يتنافى مع روح الإيمان والتقوى، ولعل هذا هو السر في أن يفتتح الله تعالى أولى آيات الصيام على النحو التالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣).

وهكذا بدأ الله تعالى الآية بنداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ثم ختمها بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، وفي ذلك إشارة بليغة وواضحة إلى ارتباط الصوم بالإيمان والتقوى في الوقت نفسه.

يؤخذ من ذلك إذن أن الارتباط وثيق بين الصوم وبين التقوى التي هي الإمساك عن كل ما يتعارض مع جوهر الإيمان بالله والانقياد له، والدليل على ذلك أن من «يتجه إلى غير الله بالقصد والرجاء لا صوم له، والذي يفكر في الخطايا ويشتغل بتدبير الفتن والمكائد ويحارب الله ورسوله في جماعة المؤمنين لا صوم له، والذي يطوي قلبه على الحقد والحسد والبغض لا صوم له، والذي يستغل مصالح المسلمين العامة ويستعين بمال الله على مصالحه الشخصية ورغباته وشهواته لا صوم له.. فالصائم ملاك في صورة إنسان، لا يكذب ولا يرتاب ولا يشي ولا يدبر في اغتيال أو سوء، ولا يخادع، ولا يأكل أموال الناس بالباطل» (٥).

وبالجملة نقول: إن كل من يعكر صفو المجتمع أو يعتدي على استقرار حياة المسلمين وأمنهم، بأن يرهبهم أو يقتلهم أو يستذلهم أو يتطاول على حرماتهم وأموالهم.. أو بأي شيء من هذا القبيل، لا صوم له.

إن تأدية فريضة الصوم على الوجه الأكمل تقتضي من الصائم أن يجمع بين مظهر الصوم وجوهره، بأن يصوم لسانه وقلبه وضميره كما تصوم جوارحه، وهذا هو المعنى الحقيقي للصوم، إذ «يجمع صورته وهي الإمساك عن المفطرات، ومعناه وهي تقوية روح الإيمان بالمراقبة.. وبهذا يجمع الصائم بصومه بين تخلية نفسه وتطهيرها من المدنسات، وتزكيتها بالطيبات.. وإلى ذلك يشير الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (٦). وحسبنا في ذلك أن نذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:٢٧)» (٧).

ونشير إلى أن الذي ننتهي إليه في هذا السياق هو أن ثمة فروقا لغوية وشرعية بين مدلول لفظ الصوم ومدلول لفظ الإمساك، إذ الصوم أعم من الإمساك ويحتويه، فالإمساك هو أحد أركان الصوم، وهو صورة الصوم، أو مظهره، أو واجب من الواجبات التي يكتمل بها الصوم، لكنه ليس هو الصوم، وإن كان الصوم يبطل من دون تحقق الإمساك أو الالتزام به باعتباره واجبا على الصائم.

وبعد، أما وقد علم القارئ أن الإمساك هو مظهر الصوم وصورته، فله أن يختار كيف تكون عبادته في هذا الشهر الفضيل: هل يقف بها عند المظهر الذي هو الإمساك عن الطعام والشراب والنساء، أم يتجاوز بها ذلك الحد وصولا إلى صوم اللسان والقلب والنفس والضمير مع الجوارح، فيتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣)؟

الهوامش

١ – ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، المجلد الخامس، ص٤٣٤.

٢ – المصدر نفسه، ص٤٣٤.

٣ – ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩ م، الجزء الأول، ص٢٠٤.

٤ – المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(*) ينظر: أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، باب الصوم.

٥ – محمود شلتوت (الإمام الأكبر)، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م، ص١٠٨–١٠٩ (بتصرف يسير).

٦ – رواه البخاري في باب «من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم» ١٩٠٣.

٧ – انظر: محمود شلتوت، المرجع السابق، ص١٠٩ (بتصرف يسير).

د. عبدالمقصود عبدالحميد باشا رئيس قسم التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر:

ليس في التاريخ الإسلامي نقاط ضعف

القاهرة - إسلام لطفي
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية

هل هناك حقا نقاط ضعف في كتابة التاريخ الإسلامي؟ هل يمكن إعادة كتابة التاريخ، أم من الأجدى تفنيد السلبيات التي شابت كتابته، إن وجدت؟ وما دور الباحث المنصف في هذا المجال؟ كل هذه الأسئلة وغيرها يجيب عليها الدكتور عبدالمقصود عبدالحميد باشا، رئيس قسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، في حواره مع «الوعي الإسلامي»، لافتا إلى أن ما يظنه البعض بأنه نقاط ضعف قد يكون أمانة المؤرخين في رصد أدق التفاصيل، من وجهة نظرهم.

● العديد من المؤلفات تباينت بين المكاني، مثل «تلمسان»، والمعرفي مثل «عبدالحميد بن باديس»، والتقييمي مثل «منهج نورالدين محمود في الحكم والقيادة».. من هذا المنطلق كيف ترى مكانة التاريخ العربي؟

- التاريخ وعاء الزمان، والجغرافيا وعاء المكان، فوعاء الزمان يقول فيه الحكيم العربي: «ليس بإنسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره.. ومن درى أخبار من قبله أضاف أعمارا إلى عمره»، وتاريخ أي دولة لا نستطيع أن نقول إنه كتب بشكل صحيح بنسبة ١٠٠ في المئة، فلدينا تاريخ ما قبل الإسلام بالنسبة إلى الجزيرة العربية، هناك المعلقات لشعرائنا قبل الإسلام، أرخوا للجزيرة وتاريخها وأمجادها، لكن في عصر الرسول ﷺ، جاء

القرآن الكريم ليكون أدق مؤرخ لكثير من الأحداث السابقة والمعاصرة والمستقبلية.

وإذا أردنا أن نطلع إلى تاريخ أمة من الأمم، فليس معنى هذا أن كل ما نطلع عليه صوابا، فلا يستطيع مؤرخ أن يكتب التاريخ مجردا بنسبة ١٠٠ في المئة، بل لابد لكاتب التاريخ ألا يترك بصمته الشخصية، ولذلك علينا نحن كباحثين في التاريخ أن ننظر إلى ما هو صواب وإلى ما هو خطأ، ونقيم كل صفحة كتبت فيه، فالذي هواه مع سلطة ما، يكتب من وجهة نظره ما يؤيد هذه السلطة، والذي ضد سلطة ما ينعكس هذا الفكر على كتاباته.

ومن هنا، إذا نظرنا إلى تاريخ الفرس أو الروم، فسنجد بصمات فردية، ومن هنا يجب علينا كباحثين في التاريخ ألا نأخذ هذه القضايا على أنها مسلمات، هذا غير ما أخبر به القرآن ورسول الله ﷺ، أما ما حدث من حروب واقتتال بين المسلمين أو الفرق الإسلامية، فهذه تحكمت فيها أهواء أشخاص، فمثلا كان الأمويون يناصرون بني أمية في دمشق، وبني أمية من قريش، وعندما هاجم جيش يزيد بن معاوية المدينة المنورة في موقعة الحارة الشهيرة، كان والي المدينة قرشيا أيضا، وكان كثير من سكان المدينة قرشيين، لكن العصبية تغلبت. ومن هنا، إذا أردنا أن نتحدث عن تاريخ فترة أو حاكم معين فلا نستطيع أن نحكم عليه حكما صحيحا إلا بعد مضي الجيل الذي عاصره والجيل الذي تلاه، حتى نكتب بحيادية كاملة.

● وهل التاريخ العربي بحاجة إلى أن يكتب من جديد كما يقول البعض؟

– التاريخ يجب أن يبقى كما كتبه أصحابه، ويبقى النقد، ليخرج النقاد

الشك بوجود نقاط ضعف في التاريخ الإسلامي ليس سوى أمانة رصد من جانب المؤرخين

والمؤرخون الجدد ليؤرخوا تاريخا جديدا مع الاحتفاظ بالقديم حتى يرجع إليه من يريد، فربما الأجيال المقبلة تختلف رؤيتها عن رؤيتنا، وقد يكتبون أيضا مستعينين بأفكارنا وبأفكار من سبقونا.

وعند تحليل الأحداث نجد من يلتمس الأعذار للبعض، ولابد من الموازنة بين المؤيد والمعارض. وفي تفسير الأحداث نجد إيجابيات عديدة، فأين الباحث في التاريخ، ولا يكون التقييم صحيحا إلا بعد مضي ٥٠ عاما على الأقل.

● وماذا عن التاريخ الإسلامي؟

– التاريخ الإسلامي هو التاريخ العربي، لأن العرب لم يبدأ تاريخهم الحقيقي إلا مع ظهور الإسلام، وكانت هناك استهانة بالعرب، فتاريخ العرب لم يبدأ جديا إلا بعد ظهور الإسلام. والتاريخ الإسلامي تعرض لتشويهات كثيرة، وبكل أسف، ألصق التاريخ بالإسلام، لكن يجب ألا يلصق تاريخ ولا أفراد ولا تصرفات دول بالإسلام، لأن الإسلام قائم بذاته.

وأعجب كثيرا حينما يقول أحدهم إن الإسلام يقول كذا، بينما هو في الحقيقة يعبر عن نفسه، والأجدى أن يقول: قال الله سبحانه وتعالى أو قال الرسول ﷺ، فلنأت بالآية أو الحديث، ثم نقول: تفسيرها في رأيي كذا، وليس تفسير الإسلام، فلا أحد يفهم تفسير الإسلام الحقيقي، بدليل أن المفسرين السابقين للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة فسروا آيات القرآن بأشياء ما عدا الآيات المحكمات، لأن هناك آيات محكمات لا تقبل التأويل أو الاجتهاد، مثل آيات الميراث، وهناك أحكام في القرآن الكريم لا تقبل النقاش، إنما نأتي إلى بقية آيات القرآن، كما قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله: «إذا نظرنا إلى قصة سيدنا موسى، فسنجد أنها وردت في عدة سور، لكن قد يتوهم البعض أنها جاءت في سور متعددة لتؤدي الغرض نفسه، لكنها جاءت في سور متعددة لأن كل آيات في كل سورة أدت غرضا معينا لا يمكن أن يكون مكانها في موضع آخر». وبالتالي، إذا أردنا أن نتحدث في التاريخ الإسلامي فيجب أن نحدده وفق فكرنا ورؤيتنا، وعدم إلصاقه بالإسلام، لأنه حجة علينا ولسنا نحن حجة على الإسلام.

● هل في التاريخ الإسلامي نقاط ضعف؟

– ليس في التاريخ الإسلامي نقاط ضعف، فما يظنه البعض «نقاط ضعف» هو أمانة أئمتنا المؤرخين، التي أملت عليهم أن يذكروا كل صغيرة وكبيرة، ويجب أن نشكر الله على أمانتهم، فهم لم يزيفوا، إنما سجلوا كل ما وصل إليهم، سواء كان صوابا أو غير ذلك، تاركين لنا حرية النقد.

طعنات المستشرقين

● يحفل التاريخ الإسلامي بالعديد من الفتن التي لعب المستشرقون دورا في تحويرها لتخدم أغراضهم.. فكيف يتصدى المؤرخ العربي والمسلم لطعنات المستشرقين؟

– دعوت منذ زمن بعيد إلى ضرورة تعلم لغات أهل الأرض،

وقد سبقنا إلى ذلك رسول الله ﷺ، حينما أمر بعض أتباعه بتعلم لغات الناس في عصره، فبعضهم تعلم الفارسية والبعض العبرية، وغير ذلك، وكان سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه يجيد لغة الحبش في أفريقيا وكذلك اللغة القبطية الخاصة بأهل مصر، واللغة الرومانية التي كان يتحدث بها الرومان في بلاد الشام، إضافة إلى إجادته للغة العربية، لذلك إذا أردنا أن نقف على فكر هؤلاء المستشرقين فيجب أن نتعلم لغاتهم، فلماذا يتفوقون علينا ويكتبون عن تاريخنا وعن تفسير آيات القرآن وسنة النبي ﷺ، لأنهم أجادوا اللغة العربية الفصحى وفهموها، وتأولوا عليها.. وإذا أردنا تقييم المستشرقين فقليل منهم منصفون وغالبيتهم ليسوا كذلك، فالمنصفون نظروا بعين الحق والحقيقة، وغير المنصفين نظروا بعين الحقد، فما أمر الإسلام إلا بكل خير ومعروف، ومبادئ الإسلام شيء وتصرفات المسلمين شيء آخر، ومبادئ المؤرخين المسلمين الذين كتبوا التاريخ حسب ما وصلهم شيء، ونقدنا لهم شيء آخر.

● وهل استفاد العرب من المستشرقين؟

– بالفعل، فلدينا المؤلف الإنجليزي سير توماس أرنولد، الذي يجيد العربية وله العديد من الكتب عن الإسلام، مثل كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، رغم أنني أخرجت في الكتاب ٣١٥ خطأ، فإنه يعتبر من أفضل الكتب، وهناك كتب كثيرة، وهناك المفسدون الذين استفدنا منهم أيضا، فليس هناك من يعتقد أن فكره فاسد،

بعض المستشرقين منصفون وكثير منهم ليسوا كذلك.. وإذا أردنا مجابهتهم فلنتعلم لغتهم

فكل من يكتب يعتقد أن فكره هو الصواب، وبالتالي لابد أن تخاطبه من موقعه هو، من حيث فكره، وترد على الثقافة بثقافة، واللغة بلغة، وكثير من هؤلاء لم يفقهوا دقائق اللغة العربية، لأن لها دقائقها البعيدة التي لا يفهمها المستعربون بل لا يفهمها إلا كبار المتخصصين.

ومن الضروري معاملة الناس بفكرهم، وأحمد الله أنني نجحت أخيرا في أن أدخل قرار تعلم اللغات إلى قسم التاريخ بجامعة الأزهر، وصدر قرار من مجلس الجامعة بأنه على كل طالب يريد أن يسجل رسالة الماجستير أو الدكتوراه أن يحصل على درجة «التويفل» أو ما يعادلها في المنطقة التي سوف يؤرخ لموضوعه فيها، وهذه خطوة كبيرة للأمام في الدراسات التاريخية، ومن يرد أن يدرس في الصين فليتعلم اللغة الصينية.. اللغة الإنجليزية هي المسيطرة والمهيمنة على العالم، لكن من الأفضل أن يتعلم لغة أهل البلد الذي سيؤرخ عنه.

● وهل نجح العرب والمسلمون في أن يقوموا بدور مضاد عن طريق الاستغراب؟

– العرب والمسلمون متفوقون في مجالات متعددة كالطب والهندسة وغيرها، وإذا قرأنا تاريخ ألمانيا فسنعرف مدى تأثير المسلمين في نهضة ألمانيا الحديثة، وأعرف أن مهندسا مصريا هو الذي أنشأ مترو الأنفاق، ولدينا العديد من العلماء.

الحضارات دول

● يتهمنا الغرب بأننا أمة تعتمد على تاريخها فقط.. كيف ترى ذلك؟

– في الوقت الحالي نعم، لكن من الذي تسبب في هذا؟ حينما يعجز الإنسان ويكون غير قادر على الحركة، أو أن يكون فاعلا في المجتمعات فإنه دائما ما يلجأ إلى أجداده وآبائه، ليفتخر بهم، ويجب أن نعلم أن الحضارات دول، وأي حضارة لابد أن تتعرض للهزيمة يوما، فالفرس وصلوا إلى القمة لكنهم بلغوا نهاية الضعف قبل الإسلام، حينما أشيعت الديانة المانوية وغيرها من الديانات التي فجرت الانحطاط الأخلاقي في الدولة الفارسية فأبيدت، وكذلك الإمبراطورية الرومانية وغيرها. والحضارة الإسلامية باقية الآن في نشأتها، كتبها، تراثها، والعلماء الموجودين في الوقت الحالي.

● إذن.. هل ستشهد الحضارة الإسلامية بعثا جديدا بعد أن طمست؟

– بالتأكيد، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر:٩)، وقال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي»، فالاستمساك بحبل الله المتين وبسنة ﷺ هو سبيل النهوض الحقيقي لأمة الإسلام، وسوف يأتي الزمن، آجلا أم عاجلا، لنهضة المسلمين من جديد، وقد بشرنا الرسول ﷺ بأن الحجر والشجر سينطق أمام المسلم.

قطاع الثقافة في «الأوقاف» يشارك في معرض جنيف الـ٢٩

التحرير

رئيس التحرير يتوسط العسعوسي و أبا الخيل و النهام

شاركت دولة الكويت، ممثلة في قطاع الثقافة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في الدورة التاسعة والعشرين للمعرض الدولي للكتاب بجنيف في سويسرا، خلال الفترة من ٢٩ أبريل وحتى ٣ مايو ٢٠١٥، برئاسة الوكيل المساعد للشؤون الثقافية داوود العسعوسي.

وتأتي مشاركة الوزارة في إطار استراتيجية دعم القطاع الثقافي، في جانب المشاركة في المعارض الدولية للكتاب، وإبراز الوجه الثقافي لدولة الكويت، ممثلة في مجلة «الوعي الإسلامي» وإدارة الإعلام الديني.

وعرض جناح الوزارة الإصدارات العلمية والبحثية والمجلات والأسطوانات الإلكترونية، تأكيدا وتعزيزا لحضور الكويت، وبيانا لجهودها من خلال مؤسساتها في توعية أبناء المسلمين حول العالم.

وضم جناح الوزارة قسما لمجلة «الوعي الإسلامي»، يشمل مجموعة مهمة من كتب الشريعة واللغة بلغات عدة، إضافة إلى قسم إدارة الإعلام الديني، الذي عرض بوسترات وأفلاما بلغات عدة لتعريف زوار المعرض بالإسلام وسماحته، ودور المرأة في الإسلام.

يذكر أن معرض جنيف الدولي للكتاب أحد أهم المعارض في القارة الأوروبية، إذ تشارك فيه ٧٠٠ دار نشر تمثل أكثر من ١٥ دولة من مختلف القارات.

مقاصد القرآن الكريم وثمرتها

د. يوسف الحزيمري
باحث دراسات إسلامية - المغرب

القرآن الكريم، كلام الله المعجز إلى الخلائق، هذا الكتاب الخالد الذي غير الله به مجرى تاريخ البشرية جمعاء، من الضلال إلى الهدى، ومن الطريق المعوج إلى الصراط المستقيم، لم ولن يوجد كتاب على وجه البسيطة كتب عنه، وسخرت له جميع العلوم مثله، والواقع يشهد بذلك... كتاب جعله الله فرقانا ونورا وهدى ورحمة وشفاء، واشتمل على أمور الدين والدنيا، قال عزوجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨).

وعن علي رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: إن أمتك ستفتتن من بعدك، فسأل رسول الله ﷺ، أو سئل: ما المخرج منها؟ فقال: «كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢)، من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن ولي هذا الأمر فحكم به عصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهذا الذي سمعته الجن، فلم تتناه أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ (الجن:١-٢)، لا يخلق عن كثرة الرد على طول الدهر، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه» (١).

ومن ثم شملت عناية المسلمين بكتابهم الكريم «كل ما فيه وكل ما يتصل به: من حفظه في الصدور وحفظه في السطور، ومن إبراز لوجوه إعجازه وأسرار بلاغته إلى عنايتهم بفنون تجويده وترتيله وشرح ألفاظه، وعباراته وبيان معانيه ودلالاته، ومن ضبط رسمه وشكله، وتحديد ابتدائه ووقفه، إلى إعرابه وشرح غريبه. ومن تاريخه وأسباب نزوله، إلى استقراء قواعده وكلياته، وتحليل قصصه وأمثاله. ومن عد حروفه وآياته، إلى سبر مقاصده ومناسباته...» (٢).

وكان من هذه العناية والاهتمام بيان

مقاصد القرآن الكريم ومحاوره الكبرى، التي تعد قواعد وكليات، يرجع إليها في فهم مراد الله عزوجل، وفي الاجتهاد والاستنباط، مما نجده عند علماء التفسير في مقدمات تفاسيرهم.

وقد لخص العلامة ابن عاشور في مقدمة تفسيره مقاصد القرآن الأصلية التي جاء لتبيانها، بحسب ما بلغ إليه استقراؤه إلى ثمانية أمور، وهي:

- إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.
- تهذيب الأخلاق.
- التشريع، وهو الأحكام خاصة.
- سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة، وحفظ نظامها.
- القصص وأخبار الأمم السالفة، للتأسي بصالح أحوالهم.
- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار... وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم.
- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.
- الإعجاز بالقرآن، ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ (٣).

وجعل رحمه الله غرض المفسر هو: «بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه، بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا... فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن، مما جاء لأجله». (٤)

أما الشيخ محمد الغزالي رحمه الله فذهب إلى أن: «القرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سوره، يمكن القول بأنه يدور على محاور خمسة، وهي: الله الواحد، والكون الدال على خالقه، والقصص القرآني، والبعث والجزاء، والتربية والتشريع... هذه هي المحاور الخمسة التي أفاض القرآن في ذكرها»، (٥)، وانتهى فضيلته إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها.

وقد فصل الدكتور أحمد الريسوني الحديث عن المقاصد العامة للقرآن الكريم، معتبرا أن العناية بهذه المقاصد الكلية، لم تبرز بوضوح إلا على يد بعض المفسرين والدارسين المعاصرين، مع أن معرفة هذه المقاصد وتحقيقها هي الفائدة الكبرى والغاية القصوى للقرآن وعلومه ومباحثه، ليصل بعرضه وبحثه إلى وضع «مقاصد مقاصد القرآن الكريم»؛ أي ذكر الأهمية والفائدة الإجمالية لمعرفة مقاصد القرآن الكريم.

فمن أهم ما يستفاد من معرفة مقاصد القرآن - وخاصة مقاصده العامة - ما يلي:

١- معرفة مقاصد القرآن الكريم هي المدخل السليم إلى فهم الرسالة القرآنية الإسلامية على وجهها الصحيح، بلا زيادة ولا نقصان، ولا إفراط ولا تفريط.

٢- معرفة هذه المقاصد العامة، واستحضارها عند قراءة القرآن وتدبره، تمكن قارئه من الفهم السليم للمعاني التفصيلية والمقاصد الخاصة لأمثاله وقصصه ووعده ووعيده، ولكل آية وكل لفظ وكل حكم ورد فيه.

٣- بمعرفة مقاصد القرآن يتسدد فهمنا لمقاصد السنة النبوية جملة وتفصيلا، ومن خلال ذلك يتسدد النظر الفقهي، والاجتهاد الفقهي.

٤- مقاصد القرآن هي الميزان والمعيار الذي يجب أن نزن به أعمالنا الفردية والجماعية، وحياتنا الخاصة والعامة، فكل عمل قلبي أو أخلاقي أو اقتصادي أو سياسي أو عسكري أو حضاري لا يهتدي بمقاصد القرآن، وبمقاصده في القرآن، فهو حائد عن هدي القرآن.

٥- مقاصد القرآن هي الميزان والمعيار الذي لا بد منه كذلك للمفسرين في مناهجهم وتفسيراتهم؛ فبمعرفتها ومراعاتها يضمن المفسر لنفسه ولتفسيره أن تكون اهتماماته ومقاصده واستنباطاته في نطاق مقاصد القرآن، بلا زيادة ولا نقصان. وهذا ضرب من «تفسير القرآن بالقرآن»، ويمكن تسميته: «تفسير القرآن في ضوء مقاصده» (٦).

فحري بنا أن نعرف هذه المقاصد، وأن نقطف منها هذه الثمرات، كيما تعيننا على فهم كتاب الله حق الفهم، وتدبره أحسن تدبر، لأجل العمل به في حياتنا على المنهج الوسط القويم.

الهوامش

١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٣٧٦)، والحديث أخرجه الدارمي في السنن ٥٢٦/٢، والترمذي في السنن (٢٩٠٦)، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

٢- مقاصد المقاصد، الدكتور أحمد الريسوني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص:٨.

٣- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس،١٩٨٤م، (١/ ٣٩-٤١).

٤- التحرير والتنوير (١/ ٤١).

٥- المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، طبعة دار الشروق، ص:١٨.

٦- مقاصد المقاصد، الدكتور أحمد الريسوني، ص:٥٠-٥١.

القاهرة :
دار الإعلام العربية

لزيادة الوعي بقيمته الحضارية

احتفالية المخطوط العربي تدعو إلى نشر ثقافة التراث

دعت احتفالية يوم المخطوط العربي، التي أقيمت للعام الثالث على التوالي في العاصمة المصرية القاهرة وعدد من المدن الأخرى، إلى ضرورة نشر ثقافة التراث المخطوط لزيادة الوعي بقيمته الحضارية ودوره الرائد في بناء حضارات الشرق والغرب. وحثت الاحتفالية، التي نظمها معهد المخطوطات العربية، واحد من مؤسسات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، على ضرورة رد الاعتبار لتراث الأمة العربية والإسلامية، لاسيما في وقت يطالب فيه البعض بالقطيعة مع هذا التراث الذي قامت عليه حضارات اليوم.

وسيطرت على كلمات المشاركين في الاحتفالية الدعوة إلى تعزيز الوعي بأهمية التراث، والتصدي الحاسم

د. فيصل الحفيان: رد اعتبار للمخطوط ضد من جعلوا التخلي عن التراث شرطا للحداثة

لدعوات البعض بالانفصال عن تراث الأمة بدعوى مسايرة التطور النوعي الذي شهدته وسائل الاتصال الحديثة، فجاءت الاحتفالية إحياء للمخطوط العربي بكل ما يحمله من معارف وثقافات، لتوسيع آفاق العقل المعاصر، من خلال البناء على ما أنجزه السابقون من نجاحات أنارت مشاعل الحضارة لأمم الشرق والغرب.

ولم ينس القائمون على الاحتفالية رحلة تدوين المصحف الشريف، حيث اطلع الضيوف على معرض خاص لتلك الرحلة، وكان أبرز ما احتواه: إحدى النسخ القرآنية المنسوبة إلى ذي النورين (عثمان بن عفان رضي الله عنه)، كتبت بالخط الكوفي غير المنقوط في ١٠٨٧ ورقة من الرق، كانت محفوظة في المدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل عبدالرحيم البياني، إضافة إلى قطعة خشبية كتبت عليها نحتا أوائل سورة النجم بالخط المدني (اللين) ترجع تقديرا إلى القرن الثاني الهجري.

كما اطلع الضيوف على جزء يشتمل على السبع الخامس من القرآن الكريم، يبدأ بالآية رقم ٥٦ من سورة «المؤمنون» وينتهي بالآية رقم ٢٠ من سورة «سبأ»، كتبه عمر بن محمد عام ٥٠٥ هجرية.

وخلال أيام الاحتفالية في بيت السناري الأثري في حي السيدة زينب، التابع لمكتبة الإسكندرية، بالقاهرة، تم تناول عدد من أشهر مخطوطات

د. عبدالله محارب: الوفاء للمخطوط يكون بإنتاج معرفة جديدة غير مأخوذة من الغير

التراث الإسلامي.

وشهدت الفعاليات التعريف بالمخطوط والحرف العربي من خلال معارض ومحاضرات مختلفة، لاسيما تناول صناعة الأحبار في المخطوطات العربية.

كما شهدت الفعاليات إطلالة على المخطوطات العربية والتركية بالخزانة التيمورية ودار الكتب، كما تمت مناقشة فن التصوير في المخطوطات الفارسية.

رد اعتبار

وخلال كلمته في الاحتفالية، قال مدير معهد المخطوطات العربية د. فيصل الحفيان، بمناسبة يوم المخطوط العربي ٢٠١٥: «نطمح إلى أن يكون الاحتفال بيوم المخطوط العربي تقليدا راتبا لنا ولمن بعدنا. والاحتفال، كما هو معروف، من الطقوس الاجتماعية والرموز التي لا تكاد تخلو منها ثقافة من الثقافات، وكما أن للرمز الثقافي دلالات فإن له أيضا وظائف».

ولفت إلى دلالة يوم المخطوط قائلا: «الوعي بأهمية التراث ورد الاعتبار إليه بعد أن كاد يطويه النسيان جراء دعاوى القطيعة معه، حتى إن بعضهم ذهب إلى تحميل التراث مسؤولية كبوة الحاضر، وجعلوا من التخلي عنه شرطا للعبور إلى الحداثة».

وأضاف: «كلنا يذكر الدعوة إلى العامية، ودعوة استبدال الحرف اللاتيني بدلا من العربي، ودعوة تبسيط النحو العربي، وحذف الكثير من قواعده.. وكلها تشترك في هدف واحد، هو القطيعة مع التراث، وكأنهم لا يعرفون أن سرقة الماضي تقضي على كل أمل في المستقبل، وأن غياب التراث عن أفق الأمة يعادل فقد الإنسان لذاكرته، وكلنا يعرف أن فاقد الذاكرة لا يكاد يبقى له من الوجود شيء».

وأضاف: «القطيعة مع التراث هي بمنزلة فصل الرأس عن الجسد، وإذا قطع الرأس سقط الجسد ميتا في الحال. لذلك؛ فإن التراث يظل دوما هدفا رئيسيا من أهداف المعتدين».

ونفى الحفيان أن تكون إقامة يوم سنوي للمخطوط بمنزلة بكاء على الأطلال، مؤكدا أنها بمنزلة استشراف للمستقبل، ذلك بأنها دعوة إلى التعرف على الذات الجماعية والتاريخية، واستلهام الجذور والتسلح بالثقة.

ووجه حديثه إلى الشباب قائلا: «الأمة التي صنعت كل ذلك التراث لا يمكن أن تقنع بأن تبقى على هامش التاريخ، فلا تركنوا إلى كبوة الحاضر وتخلدوا إلى الأرض، بل انظروا إلى المستقبل، وأعدوا له العدة. اقرأوا التراث لتعرفوا أن ذاكرتكم الجماعية فيها الكثير والكثير. انفضوا الغبار عن أرفف المكتبات واقرأوا المخطوطات، وتذكروا أنه إذا كان العلم يتقدم، فهناك تراث الحكمة الذي لا يبلى».

إنتاج معرفة جديدة

إلى ذلك، أكد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) د. عبدالله محارب، أن الحرص على الاحتفال بيوم المخطوط العربي يأتي لترسيخ هذا اليوم سنويا كنوع من الوفاء للتراث الإنساني الذي انتقل إلينا من خلال المخطوطات.

وأضاف: «يوافق الاحتفال اليوم الرابع

تكريم

سلم الدكتور فيصل الحيفان والدكتور عبدالله محارب الدروع التذكارية إلى كل من: الدكتور عبدالله العسيلان (شخصية العام التراثية)، والدكتور أيمن فؤاد سيد (مترجم كتاب «المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي»)، وكذلك نجل الخطاط الراحل سيد إبراهيم.

د. عسيلان: بدأت مرحلة الحنين إلى لقاء الكتب واقتنائها من مسجد الرسول ﷺ

من شهر أبريل من كل عام، والذي يوافق إنشاء معهد المخطوطات العربية قبل نحو سبعين عاما، وتحديدا في العام ١٩٤٦م. ومن المعلوم أن كل قضايانا التربوية والثقافية والعلمية وحتى الاتصالية إنما هي رهن بالكتاب، وما المخطوط الذي نحتفي به إلا كتاب. صحيح أنه تاريخي، لكن، من قال إن المعرفة الأصيلة ينال منها الزمن أو يقلل من شأنها مرور الأيام؟ إن المعرفة التي تملك القدرة على أن تتجاوز الزمن وتصل إلينا هي معرفة مقاومة للموت، وإلا لما استحقت اسم تراث».

وشدد على أن الوفاء للمخطوط والقيام بحقه يكونان بإنتاج مخطوط جديد، أي معرفة جديدة، نحن مبتكروها، لا مستنسخوها ولا مقتبسوها ولا آخذوها من غيرنا.

كما شدد على أن ذلك لن يتحقق إلا بتوسيع قاعدة الإفادة من التراث، ولهذا كان يوم المخطوط مناسبة تربط بين الأجيال الجديدة وتراثها، ومن ثم دعم ذاكرته الحضارية، من خلال هذا التراث الذي يجعله أقدر على الحضور والمواجهة وصياغة حاضر ومستقبل جديدين.

وتابع: «ثمة بعد مهم ينبغي أن نلتفت إليه، وهو أن المعرفة التراثية التي يحملها المخطوط ليست كل شيء، فهناك أيضا الطاقة الروحية التي يختزنها، والتي تملك قدرة سحرية على إعادة صياغة البنيان النفسي لصاحب التراث، خصوصا في المراحل التاريخية التي يتعرض فيها هذا البنيان للاهتزاز، ولاشك أننا اليوم نمر بمرحلة خطيرة، حيث الانحسار الحضاري في أسوأ صوره، وحيث الاضطرابات والخلافات والصراعات. وليس كالتراث مشترك يمكن أن يمنح الطاقة ويخفف من الغلواء والشطط ويزرع الثقة بالمستقبل وبإمكان ولادة حضارية جديدة».

ارتباط الشباب بتراث أمتهم

بدوره، أوضح د. عبدالله عسيلان، الذي تم تكريمه كشخصية العام التراثية، أن الاحتفال بيوم المخطوط العربي إنما هو احتفاء بالتراث الإسلامي قاطبة، فمن خلاله تأكد للعالم أننا نملك رصيدا من العلم والمعرفة لا يوجد مثله عند أمة أخرى.

وتحدث عن رحلته مع المخطوطات قائلا: «المخطوطات لها تاريخ يتغلغل في أعماق وجداني، ويلقي ظله الوارف على دروب حياتي، إذ منها كانت بداية انطلاقي في مدارج العلم والمعرفة، فقد فتحت عيني على مجالي هيبتها ووقارها منذ وقت مبكر حينما كنت طالبا في المرحلة الإعدادية، أتلمس الطريق إلى النبع الذي يسد الغلة، ويطفئ أوار الظمأ، وأبحث عن مصادر

النور الذي يبدد ظلمات الجهل، ويريد الله أن أجد ضالتي في مسجد رسول الله ﷺ على يد بعض شيوخ العلم، ومن هنا بدأت مرحلة الشوق والحنين إلى لقاء الكتب واقتنائها».

وشدد د. عسيلان على ضرورة أن

د. فتحي صالح: أمتنا تجهل كثيرا من إسهاماتها الحضارية في التراث العالمي

ترتبط الأجيال الجديدة بتراث أمتها، لتعي أي أمة عريقة تنتمي إليها. وفي الوقت ذاته، ليس مطلوبا من هذه الأجيال أن تركن إلى هذه المنجزات فحسب، بل عليهم أيضا إلى جانب اعتزازهم بهويتهم وأسلافهم وما قدموه للمعرفة والفكر الإنساني، أن يسيروا أيضا على درب أسلافهم بصناعة منجزات معرفية وفكرية جديدة، تعبر عنهم، وتساير التطور العصري برؤية تعبر عن الأمة العربية الإسلامية.

إسهامات حضارية

بدوره، أشار المؤسس والمدير الشرفي لمركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي د. فتحي صالح، إلى أن الاحتفال بيوم المخطوطات أمر مهم جدا، لأنه يوضح فترة نضوج الحضارة بانتقالها من قوم إلى آخرين، مشيرا إلى أن أقدم حضارتين هما المصرية والبابلية، ثم الفارسية، والإغريقية، والرومانية، ثم عصر النهضة في الغرب.

وأكد أن الأمة العربية تجهل الكثير من إسهامات حضارتها في التراث العالمي، مشيرا إلى أن الحضارة العربية كانت الغالبة منذ القرن العاشر إلى الخامس عشر، حيث ترجمت كل ما وقع تحت يدها من علم، عكس الحضارة البيزنطية التي كانت تحرم بعض الأشياء التي لا تتفق مع مفهومها.

كما لفت إلى أن الأمة امتلكت الحضارة عندما امتلكت المعرفة، كون الأخلاق والمعرفة والثروات هي أساس كل شيء.

وقال أستاذ علم اللغة في كلية الآداب بجامعة المنوفية د. خالد فهمي: «نشهد النسخة الثالثة من الاحتفال بيوم المخطوط العربي، الذي تكمن أهميته في وضع ملف المخطوطات على خريطة الاهتمامات العالمية».

وأضاف: «فعاليات الاحتفالية لها مميزات عديدة، منها أنها علمية تجمع شباب المحققين للقاء شيوخ المجال وخبرائه الكبار من المثقفين، علاوة على فتح آفاق للتعريف بالمخطوط وتقييمه، ومن هنا بدأنا نعي أهمية هذا المجال، والعمل على مواجهة العقبات التي تعترض طريق المخطوط ومن أبرزها نقص عمليات الفهرسة».

هوى النفس.. وتحلل المجتمعات!

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

من الشائع – خطأ – أن يكثر التحذير من «هوى النفس» في إطار دائرة الفرد فحسب، دون دائرة المجموع الأكبر اتساعا؛ وكأن المجتمعات أو الشعوب تسلم مما يصيب الأفراد من أمراض! نعم، المجتمعات تمرض كما تمرض الأفراد، ويصيبها ما يصيبهم؛ لأن الأفراد هم من يشكلون بمجموعهم هذه المجتمعات.. كما أن السنن الربانية وتشريعات الإسلام هي بالأساس تخاطب المجموع قبل الفرد؛ لأن بصلاح البيئة والمحيط العام يستطيع الفرد أن ينمي نوازع الخير لديه، وأن يحفظ على نفسه الصفات الحميدة بيسر وسهولة.

والمقصود من «هوى النفس»: «ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع» (١). فكما يميل الفرد إلى ما يستلذه من الشهوات مخالفا أوامر الشرع، كذلك تفعل المجتمعات بوقوعها في المحظورات، فيكون العذاب الأليم جزاء وفاقا، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الطلاق:٨)، أي: وما أكثر القرى التي أعرضت عن أمر الله، فكان جزاؤها الحساب الشديد، والعذاب بالاستئصال.

جاء في «التحرير والتنوير»: «والمراد بـ(الهوى) ما تهواه النفس، فهو مصدر بمعنى المفعول، مثل الخلق بمعنى المخلوق؛ فهو ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفع الكامل. وشاع (الهوى) في المرغوب الذميم؛ ولذلك قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ

بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أن ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ حال مؤكدة ليست تقييدا؛ إذ لا يكون الهوى إلا بغير هدى» (٢).

ولخطورة «هوى النفس»، كان اتباعه موجبا للهلكة، وكانت مخالفته شرطا للنجاة.

قال تعالى يخبرنا عن صفات أهل الجنة، والتي منها عصيان الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠-٤١).

وقال عن صفات المشركين الضالين: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (الروم:٢٩).

وقد عد الحديث الشريف «اتباع الهوى» إحدى ثلاث مهلكات، هي: «شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» (٣).

الاستغناء عن منهج الله!

إن «اتباع الهوى» صفة ذميمة تشكل خطورة على صاحبها، فردا كان أو مجتمعا؛ لأنه يقول - بلسان الحال - إنه مكتف بعقله وتدبيره، مستغن بهما عن منهج الله، وهداية الله، وشريعة الله؛ فهو يرى في نفسه ورغباته الكفاية والغناء، أو يرى لهما الأولوية والأهمية؛ ولو أنه كان يدرك حقا قصور عقله وعدم استقامة نفسه، لما جعل من رغباته وأهوائه موجها له، وحاكما على تصرفاته؛ بل لأسلم نفسه طائعا مختارا إلى أوامر الله، في الفعل والترك؛ فأتى الطاعات واجتنب النواهي.

أما كيف تتبع الأمم أهواءها؟ وكيف يكون اتباع الهوى سببا في تحلل المجتمعات؟ فهذا هو السؤال المهم الذي ينبغي أن ننشغل به، وأن نبذل في استجلائه جهدا بمثل ما بذل فيه على مستوى الفرد.

ويستمد هذا السؤال أهميته من أنه يتقاطع مع العمل المطلوب لاستكناه طبيعة العلل الحضارية التي تصيب المجتمعات؛ فتنخر عافيتها، وتجعل عاقبة أمرها خسرا..

إن نهوض المجتمعات أو سقوطها له سنن تحكمه، وله شروط لابد من استيفائها دون محاباة ولا مجاملة؛ والغافلون هم من لا يرون هذه السنن، ولا يعطونها العناية اللازمة من الفحص والبحث.

ثلاث نقاط

ويمكن أن نجمل الأسباب التي بها تكون المجتمعات متبعة أهواءها، في ثلاث نقاط رئيسة:

- **الابتعاد عن منهج الله، بعصيان أوامره واقتراف نواهيه**

فترى الفرائض مهملة، والحدود معطلة، والمعاصي شائعة، والأخلاق نادرة، والعدل غائبا؛ بل تحل المحاباة والأحكام الانتقائية التي تخدم مصالح طبقة بعينها، بدل المبادئ الراسخة التي تسري على الجميع وتنشر أشعتها دون تمييز: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» (متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها).

- **الإسراف والترف**

بما يترتب عليهما من ضياع حقوق الفقراء، ومن التنافس في المحرمات، والإقتار في المنافع، وإهمال الزكاة؛ ولذا كانا من أسباب هلاك الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦)، وقال عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان:٣١).

- **اتباع الأمم الأخرى، وتقليدها في غير ما هو محل للتقليد والنقل**

بما يعنيه من مسخ الهوية، وضياع الخصوصيات التي تميز الأمة عمن سواها، وبما يترتب عليه من تفكك المجتمع وتحلله بسبب القيم والمناهج الغريبة عنه، المخالفة له: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» (متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري).

إن الإنسان - وبالتالي المجتمع - إما أن يكون عبدا لله، أو عبدا لهواه؛ وإما أن يتخذ من منهج الله طريقا ودليلا له في دروب الحياة، فيسعد في دنياه وآخرته؛ وإما أن يسير خلف كل ناعق، ويتبع كل صيحة، يظنها النجاة وما يدري أنه يسير إلى هلكته بقدميه، ويخط شقاءه بيديه!

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ (محمد:١٤).

نعم يا رب.. لا يستويان..!!

الهوامش

١- معجم الكليات، أبوالبقاء الكفوي، ص: ٩٦٢، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢- تفسير «التحرير والتنوير»، ابن عاشور، المكتبة الإسلامية، على موقع «إسلام ويب»، ذكره في تفسير سورة «النازعات».

٣- روى الطبراني في المعجم الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات؛ فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه؛ وأما المنجيات: فالعدل في الغضب، والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية؛ وأما الكفارات: فانتظار الصلاة بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات؛ وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وصلاة بالليل، والناس نيام».

د. مسعود صبري
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية

حديث القرآن عن الهوى

يظل القرآن الكريم هو مصدر المعرفة الأول للمسلمين في شتى أنواع المعرفة والثقافة، فالقرآن الكريم كتاب هداية في المقام الأول، وتلك الهداية الربانية أوسع من دلالة الهداية عند الفقهاء والعلماء، فالهدى هو إصابة الطريق القويم في كل شأن من شؤون الإنسان؛ دينا ودنيا، فالبحث عن المعرفة الصادقة التي تدل الناس على الحقيقة طريقها القرآن الكريم، كما قال الله تعالى مخاطبا أهل الكتاب والأمم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥-١٦).

من هنا، كان واجبا على المفكر المسلم أن يكون القرآن مصدر المعرفة الأول عنده، مع ما حوته السنة النبوية من حكم بالغة وهدي قويم، يضيف إليها من تراث الأمم وتجاربها ما ينير طريقه الفكري. وتظل الدراسات القرآنية معينا لا ينضب، وبحرا ماؤه لا ينتهي، كيف لا وفي الأثر عن القرآن: «ولا يخلق من كثرة الرد».

ومن الموضوعات التي تناولها القرآن وأعطاها أهمية موضوع: «اتباع الهوى»، واتباع الأهواء ليس محصورا على الأفراد الآحاد، بل هناك اتباع للهوى عند المجتمعات والأمم والشعوب والحكومات، لكن يبقى الداء واحدا، والخطر يختلف من آحاد المجتمع إلى مجموعهم من الدولة والمجتمع.

تعريف الهوى في القرآن

فالهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه. وهو بهذا المعنى لا يكون مذموما على الإطلاق، فتكون فيه القسمة العقلية من الهوى المذموم، والهوى المحمود، وهو ما يشهد له قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠)،

فبين القرآن أن هناك هدى من الله، وهو الهوى المحمود، وأن هناك هوى بغير هدى من الله.

حكمة الهوى

والحكمة من وجود الهوى في الإنسان وأن الله تعالى خلق الهوى فيه، أنه ضرورة لبقاء الإنسان، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل وإلى المشرب ما شرب وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستحلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار (ذم الهوى، ص:١٢).

وإنما جاءت نصوص الشرع بذم الهوى، لأن غالبه ما يكون به الضرر على الإنسان، وأنه قل من الناس من يلتفت إلى مصلحة وجود الهوى مركبا في الإنسان، والحكم - كما يقول الفقهاء - يدور مع الغالب وليس مع النادر، بل أبان الله تعالى أن الكثرة من الناس هي التي تتبع الهوى، وأن القلة هي التي تتبع الحق من ربهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (الأنعام:١١٩).

ولصعوبة مجاهدة الإنسان هواه، فقد وعد الله تعالى صاحبه بالجنة أن تكون مستقره ومأواه، تشجيعا لخلقه على مخالفة هواهم، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٤١).

ورغم كثرة الآيات التي تحدثت عن اتباع الهوى، فإنه يلاحظ أن حديث القرآن عن الهوى هو من باب الكليات لا الجزئيات، ذلك أنه ركز على القاعدة الأم من التحذير من اتباع الهوى، لأن تطبيقاتها كثيرة جدا، وتماشيا مع طبيعة القرآن الكريم من أن غالبه يركز على القضايا الكلية، ليترك التفصيل للسنة النبوية ولاجتهاد العلماء، حتى تبقى خصوصية القرآن كما هي من كونه الكتاب الخالد المشتمل على الألفاظ والعبارات المعجزة، فآياته مع صغر عددها، وكونها معدودة، لكن معانيها غير متناهية، وهي مراجعة واجبة فيما اشتهر عن الفقهاء من كون النصوص متناهية والحوادث غير متناهية، بل الصواب عندي أن النصوص معدودة، لكن معانيها غير متناهية، فتستطيع تلك الآيات المعدودة بإعجازها أن تشمل ملايين الحوادث التي توصف بأنها غير معدودة، فمعاني الآيات أشمل وأكبر من الحوادث.

«وأنواع الهوى متعددة، وموارده متشعبة، وإن كانت في مجموعها ترجع إلى «هوى النفس وحب الذات»، فهذا الهوى منبت كثير من الأخطاء وحشد من الانحرافات، ولا يقع إنسان في شباكه حتى يزين له كل ما من شأنه الانحراف عن الحق

والاسترسال في سبيل الضلال حتى يغدو الحق باطلا والباطل حقا والعياذ بالله. ويمكن رد خلاف أهل الملل والنحل ودعاة البدع في دين الله تعالى إلى آفة الهوى. ومن نعم الله على عبده ورعايته سبحانه أن يكشف له عن مدى ارتباط مذاهبه وأفكاره ومعتقداته بهوى نفسه، قبل أن تهوي به في مزالق الضلال، حتى يضيء المولى سبحانه مشاعل الإيمان في قلبه، فتكشف زيف تلك المذاهب أو الأفكار أو المعتقدات، ذلك لأن حسنها في نفسه لم يكن له وجود حقيقي، بل هو وجود ذهني أو خيالي أو صوري صوره الهوى وزينه في النفس ولو كان قبيحا في واقعه أو لا وجود له إلا في ذهن المبتلى به» (أدب الاختلاف في الإسلام، العلواني، ص:٢٧)

الرسول ﷺ أبعد الخلق عن الهوى

ولذم القرآن اتباع الهوى، فهو يقرر أن كل ما جاء في القرآن الكريم منقولا عن الله سبحانه وتعالى للبشر بواسطة جبريل إلى محمد ﷺ، فهو كلام صادق لم يتبع فيه الرسول الهوى، فهو أبعد الخلق عن اتباع الهوى، حتى يكون قدوة للناس جميعا فيما يدعوهم إليه من ترك الهوى، وهو أولى خطوات نجاح الداعية أن يبدأ هو بنفسه، فكان ﷺ أبعد الخلق عن الهوى المذموم، في قوله وفعله وكل أمره، كما قال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:١-٤).

حالات الإنسان مع الهوى

وللإنسان مع هواه ثلاث أحوال:

الأولى: أن يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان:٤٣).

والثانية: أن يغالبه فيقهره مرة ويقهر مرة، وإياه قصد بمدح المجاهدين، وعناه النبي ﷺ بقوله: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم».

والثالثة: أن يغلب هواه ككثير من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء، وهذا المعنى قصد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠-٤١).

وله قصد النبي ﷺ بقوله: «ما من أحد إلا وله شيطان وإن الله تعالى أعانني عليه حتى ملكته». فإن الشيطان يتسلط على الإنسان بحسب وجود الهوى فيه، والله أعلم بالحقيقة (الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص:٩١).

صفات ومخاطر اتباع الهوى في القرآن

وقد أبان القرآن الكريم عن كثير من صفات أصحاب الهوى، وحذر من عاقبته، وكشف لنا عن عدد من المخاطر التي تلحق بصاحب الهوى، ومن ذلك:

الاستكبار

فيشير القرآن الكريم إلى أن اتباع الهوى كان سببا في تسلل الاستكبار إلى نفوس الكافرين، فدفعهم إلى عدم الإيمان بالرسل، فكذبوهم، بل قتلوا بعضهم، كما حصل مع زكريا ويحيى - عليهما السلام - وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل، بل ينقل الإمام ابن القيم رحمه الله أنهم قتلوا سبعين نبيا في يوم واحد! فاتباع الهوى قد يؤدي إلى الكفر والقتل، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٨٧-٨٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (المائدة:٧٠).

عبادة الهوى

إن صاحب الهوى يضل به هواه ويذله حتى يعبده من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان:٤٣). وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الهوى شر إله عبد».

وقد كان كفر الأمم السابقة وعبادة غير الله تعالى نتيجة لاتباع الهوى، فتلك الأصنام التي كانت تعبد من دون الله تعالى كان العرب يؤمنون أنها ليست الإله الحق، بل يزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣).

ولهذا عاب الله تعالى عليهم عبادة تلك الأوثان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (النجم:٢٣).

ومازال البشر - حتى اليوم - يعبدون آلهة من دون الله، على اختلاف تلك الآلهة من الجمادات أو الأشخاص أو الأشياء، فاتباع الضلال والأسياد والكبراء، لأنهم أسياد وكبراء، نوع من العبادة، وقد أشار النبي ﷺ إلى عبادة البشر في حديث عدي بن حاتم الطائي كما في الترمذي وابن ماجه: «ألم يحلوا لكم الحرام، ويحرموا عليكم الحلال، فأطعتموهم؟». قالوا: بلى. قال: «فتلك عبادتكم إياهم». وقد عبد أهل مصر قديما حكامهم الفراعنة، حين قال لهم فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٤)، مع كونهم

يعلمون أنه بشر مثلهم، لكنه الهوى، الذي يطمس العقول ويعمي القلوب، ويجعل من الإنسان عبدا لمثله من دون أن يكون عبدا لله، فيصم عن سماع الحق، ويصر على الباطل، حتى لو ذكر بأنه باطل، فإنه يقول: ولو كان، فيتبعون أهواءهم بغير هدى من الله.

«إن خطر الهوى أنه يضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة، إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تتطفئ أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها، فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ، وأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن الفهم وصم عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى، فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٣-٤٤) (إحياء علوم الدين، ٣/٤٧).

النكوص عن طريق الحق

وأصحاب الأهواء، الذين يصرون على مواصلة طريق الهوى، لا يثبتون على الحق، بل يحيدون عنه، حتى يصلوا إلى تكذيب آيات الله تعالى، وقد ضرب الله تعالى لمن اتبع هواه مثلا في القرآن، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

القلب الغافل

ومن أخطر ما يصيب صاحب الهوى أن يصاب قلبه بالغفلة، فيران عليه، ويوضع بينه وبين قبول الحق حجاب مانع، وسد فاصل، وهوة كبيرة، فما استطاعوا - للحق - أن يظهروه، وما استطاعوا إليه نقبا يرون منه ولو بصيصا؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ والأمة بالصبر مع الصالحين الذين لا يريدون إلا وجه الله والدار الآخرة، وأن يلزمهم ولا يلتفت إلى أصحاب الأهواء، فقال جل في علاه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

نسيان الآخرة

ومن المخاطر التي يقصها القرآن عن أصحاب الأهواء أن صاحب الهوى لا يفكر في الآخرة، فالدنيا هي همه الأول، وشغله الشاغل، فلا يفكر إلا في دنياه من جمع المال واكتساب الشهرة ونيل المناصب الدنيا، ثم هو لا يستعملها في طاعة الله، بل إذا ذكروا بها لم يصدقوا، ثم إنهم بعد ذلك يصدون الناس عن تذكر الآخرة، حتى يكونوا معهم سواء، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (طه:١٥-١٦).

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح: «من كانت الدنيا همه؛ جعل الله فقره في قلبه، وشتت عليه أمره، ولم يأته منها إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة أكبر همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة».

الضلال المبين

ومن نتائج اتباع الهوى أن يكون صاحبه في ضلال مبين، فالهوى يمنع صاحبه من اتباع الحق، فيزيغ عنه، حتى إن جاءته الدعوة الصادقة من نبي من الأنبياء، فإنه لن يصدقها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠). وصاحب الهوى يضل على علم لا عن جهل، بل يجعل هواه إلها يعبد، فالهوى عنده مطاع، لا يرد له طلب، فلا يسمع إلا لهواه، ولا يرى إلا لهواه، ولا يرضي إلا هواه، فقام عنده مقام الإله، ومن شدة حبه لهواه فقد أضحى أعمى وإن كانت له عينان، فهو لا يرى بقلبه، ولا يبصر بعينيه، فأنى لهذا أن يعرف طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:٢٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة:٧٧). ومع هذا، فهو صاحب جهالة وضلالة، كما قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (الروم:٢٩). ومن يتبع أصحاب الأهواء يكن ضالا مثلهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۖ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام:٥٦).

خسران ولاية الله ونصرته

ومن أضرار اتباع الهوى أن يخسر المؤمن ولاية الله ونصرته له، فيكله إلى نفسه يتخبط في كل اتجاه، لا يعرف

صوابا من خطأ، ولا حقا من باطل، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة:١٢٠)، بل لا يكون متبع الهوى في مأمن من عذاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد:٣٧).

اتباع الهوى ظلم

ويعتبر القرآن اتباع الهوى ضربا من الظلم وغمض الحقيقة، إذ اتباع الهوى مغاير لحقائق الكون التي خلقها الله تعالى، وهو حيد عن طريقه الصحيح الذي فيه صلاح الإنسان، وقذف به إلى الهواية، وبذا، يظلم صاحب الهوى نفسه ومجتمعه وأمته، لما يصيبه وغيره من الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:١٤٥).

التحذير من اتباع الهوى في الحكم

وقد حذر الله تعالى من اتباع الهوى، خصوصا في الحكم بين الناس، وذلك باتباع أهواء الناس في الحكم بينهم، وأن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أو ما قاله بعض السفهاء من كلمة الكفر: «ما دخل الله تعالى بالسياسة!»، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، أو بتحكيم الشرائع المناقضة لشرع الله تعالى، وذلك بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة:٤٨).

أما التشريع في غير ما يصادم أحكام الله تعالى القطعية، أو ما يتعلق بسن القوانين الإدارية ونحوها، فليس اتباعا للهوى ولا حكما بغير ما أنزل الله تعالى.

إن القرآن يلح على أن تنتفي سيطرة أهوائنا في أحكامنا، فهي شر وثن يتبع، كما قال الشيخ دراز، (دستور الأخلاق في القرآن، ص:٤٨٤). ولذا، خاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٣٥).

كما خاطب داود عليه السلام بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص:٢٦). فإن كان اتباع الهوى محرما، فإنه في حق الحاكم المسلم أشد حرمة.

الوقوع في الفتن

وصاحب الهوى يقع دائما في الفتن، فحياته ليست مستقرة، ولا يعرف للراحة طعما، ولا للسعادة طريقا، بل هو متخبط في حياته، يتيه في غيابات الفتن ما ظهر منها وما بطن بقدر تعلقه بالهوى، كما قال جل في علاه: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٩).

فساد السماء والأرض

ويجيء خطاب القرآن الكريم في ذروته محذرا من الهوى، مصورا إياه بأبشع صورة، فاتباع الهوى مفسد للحياة بأسرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٧١).

فلو أعطي كل إنسان ما يهوى – مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة، وأن ينال في الدنيا الخير الأبدي بلا مزاولة (ولا يعلم أنه أعطي ذلك) لكان فيه فساد العالم بأسره. (الذريعة الى مكارم الشريعة، ص:٩٣). ويقول الإمام ابن القيم (إعلام الموقعين، ٧٢/١): «وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا وفسد أمرها أتم الفساد».

الهوى المحمود

ورغم أن غالب حديث القرآن جاء في ذم الهوى والتحذير منه، إلا أنه في ثنايا ذكره ذم الهوى يلفت الانتباه إلى الهوى المحمود، وهو من أعلى مقامات العبد، لا يصل إليه إلا الأنبياء والصالحون من عباد الله تعالى، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠)، فبمفهوم المخالفة ومن أهدى ممن اتبع هواه بهدى من الله تعالى، وهو إنصاف القرآن وعدله، ولو كانت نسبة من يتصف هواه بالمدح قليلة نادرة، لكن القرآن أثبتها.

كما يشهد لها حديث النبي ﷺ الذي صححه الإمام النووي: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

د. آندي حجازي
أخصائية تربوية أردنية

كيف أضبط أهواء نفسي؟

منذ اللحظات الأولى لحياة الإنسان بدأ صراع النفس مع أهوائها، فمنذ أن كان سيدنا آدم - عليه السلام - في الجنة، وسمح الله تعالى له ولزوجته حواء بأن يأكلا من كل شجر الجنة عدا شجرة واحدة، جاء الشيطان ووسوس لهما ليقعا في أهواء النفس وضغوط الشيطان وارتكاب المحظور، فلم يستطيعا في تلك اللحظة أن يضبطا شهوتهما، وتناولا من تلك الشجرة المنهي عنها، فكان العقاب بالنزول إلى الأرض والعيش فيها إلى ما شاء الله للإنسان العيش إلى أن تنتهي الحياة، ثم يعود من يستحق إلى الجنة في خلود أبدي.

ويستمر التصارع بين أهواء النفس، بين الخير والشر، فحياة الإنسان ما هي إلا صراع مستمر بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين هوى متبع وهوى مبعد، بين أن أفعل ما يرضي أهوائي وشهواتي وأن أفعل ما يرضي الله تعالى خالقي وواهبي الحياة. ومن هنا، تأتي أفعال الخير وأفعال الشر لبني البشر. ومن هنا، يأتي الحساب والعقاب. وما حياة الإنسان إلا امتحان حقيقي لما يجب على الإنسان من ضبط لأهوائه وشهواته، ووضع لنفسه من أهداف سامية.. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٤١).

الحياة ممتلئة بالمغريات؛ فانظر إلى من يتناول المسكرات، أو المخدرات، أو المدمن على التدخين أو الشيشة، أو من يمارس الفاحشة مع نساء.. أليس يتبع أهواءه؟ ومن ينظر إلى الأفلام الإباحية أو الأفلام الممتلئة بالمشاهد المثيرة للغريزة الجنسية من دون تفكير، ولو للحظات، في الآخرة وفي ما يرضي الله تعالى! وانظر إلى من تتتبع أهواءها في شراء كل ما تشتهيه نفسها من ملابس وأدوات تجميل وزينة وتحف وكماليات... وفي المقابل، تتتبع الشح عند الدعوة إلى الإنفاق على عمل خير أو صدقة أو مساعدة فقير أو إتمام بناء مسجد أو دار علم أو مستشفى... إنها أهواء النفس.

إن أهواء النفس لا تنتهي، واتباع الشهوات أمر سهل محبب للنفس، مع أن أبواب الخير ليست مكلفة ماديا كما هي أبواب الشر، فأنت حتى تتناول الخمر أو المخدرات أو تلعب القمار أو تقع في الربا أو الزنا وغيرها من اتباع لشهوات النفس، فإنك تضطر إلى دفع المال الكثير لها، بينما هناك الكثير من أعمال الخير لا تحتاج إلى مال، كالصلاة والصيام وذكر الله تعالى

ورضا الوالدين وإماطة الأذى عن الطريق ومساعدة الآخرين والابتسامة في وجوه الآخرين ودعوة الناس إلى الخير وحضور الخطب الدينية.

وعلى الرغم من أن بعض العبادات تتطلب الإنفاق المادي، كالحج والصدقة والزكاة، فإنك تشعر بسعادة تلامس أعماق قلبك حينما تؤديها، في مقابل شعورك بالحزن والاكتئاب وأنت تمارس أعمال الشر والمعاصي التي تغضب الله تعالى، والتي تورث في القلب نكتا سوداء تورث الحزن والتعاسة والشعور بفراغ كبير من دون أن تعلم سبب تلك التعاسة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه:١٢٤-١٢٦).

مجاهدة النفس

إن من أعظم الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى. والمجاهدة في معجم «لسان العرب» مأخوذة من «ج هـ د»، التي تدل على المشقة. والمجهود هو اللبن الذي أخرج زبده، لأنه لا يخرج إلا بتعب ومشقة. ولذا، لا يقال «اجتهد فلان في حمل حبة»، بل «اجتهد في حمل صخرة»، لما في الصخرة من المشقة والعناء. وسمي قيام الليل تهجدا لما فيه من تعب ومعاناة في حمل النفس على ترك النوم في الفراش الوثير لتقوم بين يدي الله رب العالمين. وقد قال أحد الصالحين: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين عاما فذقت حلاوته عشرين عاما أخرى»، مكافأة لجهاده أصبح سهلا عليه، ممتعا، لا يستغني عنه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

أما مجاهدة النفس اصطلاحا، فهي: إجبار النفس الأمارة بالسوء والمتبعة للهوى على ما هو مطلوب في الشرع. وقيل هي: بذل المستطاع في أمر الله المطاع، ومخالفة الهوى، وترك المحرمات، والترفع عن المكروهات.

ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» (رواه مسلم). وقال العلماء: «هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ». ومعناه: أن الجنة طريقها صعب يحتاج إلى مكافحة أهواء النفس ومقاومتها، فمن أراد دخول الجنة عليه أن يكره نفسه على فعل الطاعات، وتحمل مشاق العبادات، والمواظبة عليها والصبر على مشاقها، كالصلاة والصيام وإخراج الزكاة والحج وكظم الغيظ والعفو عن المسيء وضبط اللسان عن الغيبة والنميمة. أما النار فطريق دخولها سهل، وهو فعل ما تشتهيه النفس من المحرمات والمعاصي، كشرب الخمر والزنا والغيبة والنميمة وقتل النفس وإضاعة المال والوقت وترك الصلاة والصيام وترك اللباس الشرعي للمرأة والخروج متبرجة من دون أدنى خوف من الله تعالى والتفكير في الآخرة.

فهتك حجاب الجنة يكون بترك الشهوات المحرمة، وهتك حجاب النار باقتحام الشهوات. وهذه هي حياة المسلم: صراع بين ارتكاب تلك المحرمات أو البعد عنها.

قصة وعبرة

وأعلم شيخا، رحمه الله، في سوريا رزقه الله ستة عشر من الأبناء (عشرة ذكور وست إناث)، عمل وزوجته بجهد شخصي منهما (في الثمانينيات من القرن الماضي في زمن توقف فيه النشاط الديني في المساجد السورية) على تحفيظ أبنائهما جميعا، ذكورا وإناثا، القرآن الكريم كاملا، ومجودا، قبل إتمامهم المرحلة الابتدائية، وحفظ كتب الأحاديث النبوية، بل وتحفيظهم سبعا من القصائد الطوال التي تتضمن أحكام الدين والتجويد والعلوم الشرعية، وعودا أبناءهما منذ طفولتهم الباكرة على قيام الليل، فلم يكن يسمح لأحد منهم بأن تفوته صلاة التهجد في جماعة يقيمها الوالد في بيته مع زوجته وأبنائه كل يوم، فلا تأخر عن تلك الصلاة لأي سبب، كما عودا أبناءهما على النوم باكرا والاستيقاظ باكرا قبل الفجر (كما هي السنة النبوية)، وفي التسعينيات من القرن ذاته أصبح سبعة من أبنائهما من أئمة المساجد الدمشقية، وكلهم تزوجوا وأنجبوا الأبناء، ولم يمنعهم ذلك من تعلم علوم الدنيا، فتخرج منهم المهندسون والأطباء والمعلمون... وبنات الشيخ غدون مشرفات حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المساجد. ويذكر الأبناء أن والدهم لم يستخدم الضرب أو الشتم أو الصراخ معهم البتة، فأي تربية تلك العظيمة التي عودت الأبناء على مواجهة أهواء النفس من حب الراحة والنوم واتباع الشهوات؟! إنها التربية على الإيمان والتذكير بالهدف من الحياة.. رحم الله الشيخ العالم الجليل سعيد البرهاني وزوجته الفاضلة.

تنزيلات شهر رمضان

وإن من جمال ديننا الإسلامي العظيم أن جعل في كل عام أياما مباركات عظيمة، فيها دعم رباني من الله تعالى، تعين الإنسان على فعل الطاعات وترك المنكرات، فهي كموسم التنزيلات من الله تعالى في وقت معين من كل عام، ومنها شهر رمضان المبارك، الذي يوفر الله تعالى فيه الدعم النفسي للإنسان المعين على الطاعة بتصفيد الشياطين طول شهر رمضان، وفتح أبواب الجنة ليقبل باغي الخير، وإغلاق أبواب النار رأفة وإعانة من الله تعالى للمسلم على الطاعة. فما أعظم أن نستفيد من موسم الخير هذا الذي تصبح

الطاعات فيه أهون، والمعاصي فيه أصعب، وتصبح العبادات بأضعاف الثواب. فإن كان هناك محل تجاري يعرض تنزيلات هائلة حقيقية لفترة محددة أفلا يقبل الناس عليه لاستغلال تلك التنزيلات الموسمية للاستفادة منها قدر الإمكان؟ فكيف والله تعالى يعطينا شهرا تتضاعف فيه الحسنات؛ أفلا نقبل عليه بكل جوارحنا وقدراتنا؟

وهنا يلزم إشغال النفس بالحلال الطيب، وملء يوم المسلم وليله بالواجبات الشريفة، كالصلاة وقراءة القرآن الكريم والانشغال بصلاة قيام الليل والذكر وإفطار الصائمين وصلة الرحم ودعوة الفقراء أو الأقارب إلى إفطار رمضان، والقيام بالأعمال المفيدة التي تقرب إلى الله تعالى.. ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، فالخوف من الوقوع في المحظورات ووقت الفراغ كإضاعة الوقت في الأسواق وبين الشراء واللهو، أو مشاهدة المسلسلات في رمضان التي تمتلئ بالمشاهد الإباحية أو المخلة بالآداب، والتي تضيع ثواب الصائم وتفتح عليه أبواب الفتن والشهوات، وأقل ما فيها أنها تضيع وقت المسلم كبرامج المسابقات والدعايات.

وإن كان الإنسان لم يستغل شهر رمضان المبارك كمحطة للتزود بالوقود الداعم على الطاعة طوال العام، فأي أوقات من العام سوف يستفيد منها ليعود نفسه على الطاعة والعبادة وجمع أكبر ثروة ممكنة من الحسنات؟

يقول سفيان الثوري: «ما عالجت شيئا أشد علي من نفسي، مرة لي ومرة علي». ويقول الحسن البصري: «ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك». فترك النفس تسعى وراء أهوائها وشهواتها من دون كبحها ووضع ضوابط لها هو الخسارة الحقيقية والضياع، دنيا وآخرة.

نصائح لمواجهة أهواء النفس

• تذكير النفس بالخوف من الله تعالى:

تذكير النفس دوما بالهدف الأساسي لخلق الإنسان، وهو طاعة الله وعبادته، وتعويدها الخوف من الله تعالى وحده ومن عقابه، بتخيل العقاب، والقراءة عما ورد عنه في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وتعويد الشعور برقابة الله تعالى عند قرار ارتكاب المعصية، وجعل الأولوية الخوف من الله لا الخوف على أمور الدنيا كضياع الرزق والربح، أو الخوف على المستقبل، لأن هذه مداخل الشيطان للنفس الأمارة بالسوء لارتكاب المحرمات كالغش والسرقة والربا.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥). لذلك، إن جعلت خوفك من الله تعالى فقط فقد نجوت من أهوائك، لأنه الرادع عن ارتكاب كل معصية وكبيرة.

• استخدم أسلوب العقاب مع نفسك:

حينما تجد نفسك مقبلة فكافئها بما تحب، وإن وجدتها ارتكبت كبيرة أو معصية فعاقبها بفعل طاعة عسى تمحو ما ارتكبت من سيئات، فتصدق بمبلغ من المال، أو صم عدة أيام، أو قم بأعمال تطوعية، أو اقرأ أجزاء من القرآن الكريم، وامنع نفسك من مشاهدة برامج التلفزيون، أو من استخدام الهاتف النقال لفترة.. ولذلك جعل الله عزوجل الكفارات عند ارتكاب الأخطاء من أجل تطهير النفس وعدم التفكير في العودة مرة ثانية للخطأ ذاته.

• دعاء الله تعالى بالعون على مواجهة أهوائك:

لا شيء يعدل دعاء الله تعالى على المساعدة والعون على الطاعة واجتناب المنكرات والمحرمات، فالله وحده قادر على كل شيء، وهو الذي يحب الالتجاء إليه بالدعاء. وتذكر قول سيدنا يوسف في محنته عندما تعرض لفتنة النساء فدعا الله عزوجل لعونه على التخلص من ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)، فاستجاب الله تعالى له وصرف عنه كيد النساء وفتنتهن.

• صمم برنامجا خاصا لرمضان:

صمم برنامجا لك ولأبنائك لمحاربة أهواء النفس في رمضان والاستفادة من نفحات الشهر الكريم وثوابه العظيم. فما أعظم أن تجعل لنفسك برنامجا من الطاعات تقسم به أوقات يومك، فتخصص أوقاتا للصلاة، ولقراءة القرآن الكريم، ولصلاة الليل، ولإعانة الوالدين في أعمالهما، أو دعوتهما والأهل لتناول الإفطار، أو دعوة فقراء أو المشاركة في إطعامهم، أو توزيع الصدقات على دور الأيتام والمحتاجين.

• ابتعد عن المشتتات والملهيات:

فكما ذكرنا «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»، ولذلك طريق الشر سهل ميسر، فلا تجعل مثلا للتلفاز وقتا في جدولك في رمضان، تفرغ لأعمال الخير والطاعات فقط، وابتعد عن كل المشتتات والمحبطات وسالبات الثواب وخاطفات ساعات رمضان الثمينة ودقائقه، فترفع عن السفاهات لأنها لا تفيد في الآخرة.

• رسول الله ﷺ قدوتنا في جهاد النفس:

تذكر أن رسول الله ﷺ قدوتنا في مجاهدة النفس وفعل الطاعات، فكان يشمر ويجتهد في رمضان، ويعتكف في العشر الأواخر، ويوقظ أهله، وتتفطر قدماه وهو يصلي قيام الليل، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بنا نحن ونحن الأحوج للثواب والمغفرة من الله عزوجل؟!

مناظرة بين علم النفس والدين:

أفعالنا بين العاطفة والعقل

عبدالله شريف ومحمد عبدالعزيز
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية - القاهرة

د. مجدي حسين

بالتأكيد نحن لسنا آلات معدومة العاطفة. وفي الوقت ذاته، ليس من المفترض أن نغيب عقولنا وننساق فقط - وباندفاع وطيش - وراء عواطفنا، سواء في قراراتنا أو ردات أفعالنا، فنبل المقصد لا يعفي من خطايا الوسيلة، فليس بالتظاهرات المنفلتة يكون الانتصار لرسول الله ﷺ ضد الإساءات المتكررة، وليس بالتدليل المفسد للأبناء تكون المحبة والرحمة، وما تغيير المنكر رهن بالاندفاع والعاطفة فحسب، بل يجب أن يحتكم إلى ضوابط الشرع والعقل.. وهذا ما نناقشه من خلال هذه المناظرة بين عالمين كريمين: د. مجدي إبراهيم حسين (استشاري الطب النفسي في جامعة عين شمس)، ود. سامي السرساوي (أستاذ الشريعة والقانون وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف).

• كثير من المسلمين تأتي ردود أفعالهم محتكمة إلى العاطفة وليس إلى العقل، ويظهر هذا في مواقف كثيرة، منها اندفاع كثيرين إلى ارتكاب تصرفات غير محسوبة إثر وقائع الرسوم المسيئة المتكررة. ويحدث هذا أيضا حتى في تصرفات الزوجين بعضهما مع بعض.. فلماذا تحتكم معظم تصرفاتنا إلى العاطفة لا إلى العقل؟ وكيف يمكن تصويب ذلك؟

- د. مجدي إبراهيم: التفكير بالعاطفة له أصل تاريخي، فالشعوب العربية، لاسيما التي تطل على البحر المتوسط، تشترك في هذه الصفة مع البلاد الأوروبية التي تقع على الضفة الأخرى من البحر، ومن دلائله: الميل إلى الصوت العالي، والمزاج الحاد، والتقلب السريع في المشاعر، وصعوبة إخفاء رد الفعل الذي يكون دائما متسرعا.

د. مجدي إبراهيم: البيئة لها دور في تغليب العاطفة.. وتصويبها مسؤولية العلماء والإعلام

والبيئة لها انعكاس على تكوين الشخصية، كما تقول مراجع الطب النفسي والأبحاث التي تدرس العوامل التي تساعد في تكوين الشخصية. فالأماكن الساحلية تجعل الإنسان أكثر ميلا إلى الحرية، ويكون مزاجه متقلبا كموج البحر، بينما من ينشأ في بيئة صحراوية يتسم بالقسوة نوعا ما، ويكون متحفظا في مشاعره.

وتظهر هذه المشاعر عند حدوث موقف مثير أو أمر جلل، فتجد العقل الجمعي ينطلق، والكل يتصرف بمنطق ما تربى عليه وما طبعته البيئة في وجدانه، فمنهم من يميل إلى الاندفاع والعنف من دون قياس العواقب.. وتصويب ذلك يأتي من خلال تفعيل دور الإعلام وصناع القرار وعلماء الدين لتغيير الرأي العام وتوجيهه إلى المسار الصحيح.

- د. سامي السرساوي: القطاع الكبير من المسلمين يغيب عنه الوعي الديني الكامل، وتغلب عليه العاطفة التي ينبغي أن تكون مرتبطة بالكتاب والسنة، فأي عاطفة لا تنضبط بالكتاب والسنة هي وبال على الشخص وعلى الأمة؛ فمن حق المسلم أن يغضب عندما يساء إلى النبي ﷺ، أو أي موضوع ينال ثوابت الإسلام، لكن من دون الاندفاع لهوى عاطفته.

وعلى أهل العلم والفضل أن يحددوا طرق إحكام العقل وضبط العاطفة وسبل الرد على الاستفزازات ردا عمليا، وليس من خلال العنف والتخريب كما يتخيل البعض، إنما رد عملي عن كيفية التزام المسلم بأخلاقيات دينه ونبيه محمد ﷺ؛ ففي زمننا الحالي عشرات التظاهرات في كل اتجاه لكنها لا تغير شيئا على أرض الواقع؛ لأنها غير منضبطة ومقيدة

الإعلام أكبر تأثيرا على عقل الطفل فإما أن يجعله عنيفا دمويا مندفعا أو عاقلا متزنا

بما يرضي الله وبما يرضي رسوله ﷺ.

وعلى الإنسان المسلم أيضا ألا يتصرف إلا بناء على فهم ووعي لواقع الدين، ولا أتحرك بعاطفتي كـ«الدابة التي قتلت صاحبها»، وأن يعلم المسلم أن أي فعل أو رد فعل من دون وعي أو انضباط، لا يرد حقا، ولا يمنع ظلما وعدوانا، إنما تكون له آثار سلبية أكبر. وعلى الإنسان قبل أن يتصرف في أمر عام مراجعة العلماء لضبط ميزان العاطفة والعقل.

دور محوري للإعلام

● هل تلعب مؤسسات الأسرة والتعليم والدين والإعلام دورا «سلبيا» في هذا الاتجاه؟ وكيف يمكن تصويبه؟

– د. مجدي إبراهيم: للأسف بعض المؤسسات تتصرف بمنطق العقل الجمعي، وتخضع للرأي العام، وتفتقر إلى إعلام الأزمة وإدارة الأزمة، فالعالم العربي حتى الآن لا توجد فيه إدارة أزمة في الإعلام.

والأسرة والإعلام من أكبر وسائل الاتصال تأثيرا في عقل الطفل، وأصبح في يدها الأساس لشخصيته، فتجعله عنيفا دمويا مندفعا أو عاقلا متزنا، فالطفل في السنوات السبع الأولى من عمره يبدأ في تجميع الأفكار والعادات، من الأسرة ومن التلفزيون.

ومما نراه من عنف في التلفزيون ومظاهر الفساد يمكن أن نقول إنه يؤثر بالسلب في عقل الطفل العربي، فهو لا يعرض إلا ما يثير الشباب ويدمر العقل.

– د. سامي السرساوي: أعطني إعلاما لمدة عام أغير لك المجتمع بأسره. والتلفزيون والإذاعة والصحافة لها قدرة هائلة على الحشد والتوجيه. والإعلام يشكل ضمير الأمة ويوجهها؛ فعندما يعرض الإعلام ما يسيء إلى الدين أو إلى رموزه، أو يعرض الإساءات التي يخترعها الغرب أو شعاراتهم، أو يعرض مثيرات للشباب أو أغاني وأفلاما هابطة ضد الإسلام، فيعتبر دوره سلبي يضر الأمة والدين، لكن عندما يعرض ما يصحح الأخطاء أو يزيل الشبهات أو يقدم ما يفيد الدنيا والدين فتجب تحيته.

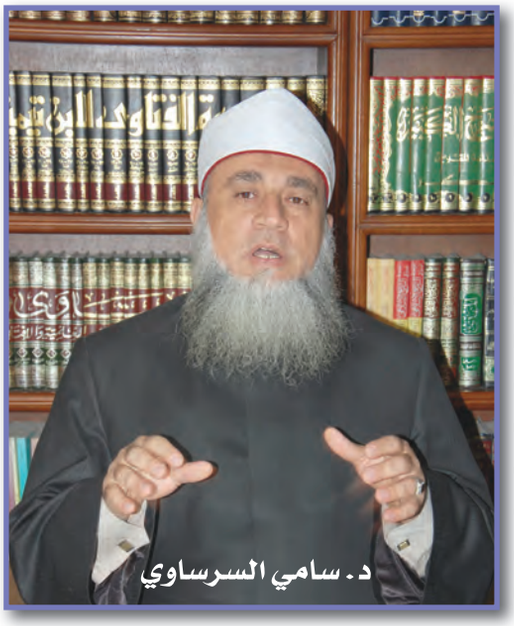

بناء الشخصية

● ينساق كثيرون وراء عواطفهم في تقليد ومحاكاة بعض الشخصيات المؤثرة مجتمعيا، سواء كانت شخصيات إيجابية أم سلبية، فنجد البعض يقبلون على التدين الشكلي، والبعض يقلدون المشاهير في كل ما يفعلونه من دون احتكام إلى عقل أو فطرة سليمة.. فما الأسس التي ينبغي زرعها في نفوس أبنائنا ليكونوا قادرين على التحكم في عواطفهم والاستماع إلى صوت العقل؟

– د. مجدي إبراهيم: اتباع الغربيين وتقليدهم والاقتداء بهم ومحاكاة

عندما ترى منكرا فكر أولا واستخدم الحكمة وابتعد عن العنف والانفعال والغضب

طرق لبسهم وكلامهم، شيء موجود وأساسي بين المراهقين. وتشير دراسات علم النفس الاجتماعي إلى أن الشهرة عنصر جذب مهم جدا، والنجاح أيضا عنصر جذب، فكلما حقق الشخص المشهور نجاحا أكثر، زاد تعلق الناس به ومحاكاة تصرفاته وأفعاله، لذلك على المشاهير التصرف بحذر، والالتزام في كلامهم وسلوكياتهم لأنهم قدوة.

ينبغي إعطاء الطفل مفاتيح أساسية لبناء شخصيته ونماذج قويمة يأخذ منها وعنها

ووضع علم النفس عدة أسباب للتقليد، منها الحاجة إلى الأمان من دون خوض تجارب جديدة، بالإضافة إلى الحاجة إلى قبول الآخرين، فلكي يقبلوني لابد أن أكون شبيها لهم.

ومن الأسباب أيضا الاعتقاد بأن الآخر يمتلك معرفة أوسع، ولديه إنجازات أكبر، فأنا أطمح إلى الوصول إليه.

وجزء كبير من شخصية الطفل يتكون في السنوات السبع الأولى، فينبغي في هذه الفترة إعطاؤه

مفاتيح بناء الشخصية ونماذج يأخذ منها وعنها.

- د. سامي السرساوي: هذا يحتاج إلى تغيير الثقافة الكاملة لدى الأطفال لما قبل الحضانة، والإعلام مسؤول بدرجة كبيرة، حيث إنه رسخ - على مدار عدة سنوات - أن النموذج للمسلم ليس هو الحبيب محمد ﷺ، وليس الصحابة الأطهار أو التابعين، بل الممثل الفلاني والمصارع واللاعب والزعيم الغربي، حتى أصبح ذلك النموذج الراسخ لدى أغلبهم.

الكثير من الشباب أصبح عندما تحدثهم عن مثل هذه الشخصيات يسمع منك، وعندما تحدثه عن الصحابة أو الدين يتجاهل، علما بأنه في الإسلام نماذج وثوابت سبقت الغرب بكثير، حيث إنهم يعتبرون تلاميذ علينا، لكن للأسف هم أخذوا منا ولم يستكينوا، ونحن ركنا ونمنا، حتى إننا نهدم ما قدمه لنا أجدادنا، ونحتاج إلى جهد العلماء وصدق النوايا، ولابد على الشباب أن يقرأوا تاريخهم بصدق.

ضوابط التغيير

● كيف ينبغي أن يكون تعامل الإنسان السوي عندما يرى أمرا منكرا؟

- د. مجدي إبراهيم: الإنسان السوي عليه التفكير أولا قبل التصرف، ولتغيير المنكر لابد من استخدام الحكمة والقول الحسن كما تذكر آيات القرآن الحكيم، وضرورة البعد عن الانفعال والغضب والعنف.

ومن طرق ضبط النفس الوضوء، لأنه يطفئ نار الغضب، بالإضافة إلى تعديل وضع الجسم من القيام إلى الجلوس أو العكس، لتغيير دورة الدم والمخ، والمشي والرياضة واستخدام المسبحة والحديث مع النفس.

● النقاش مع الطفل في جميع تساؤلاته من أبرز ما يؤدي إلى سلامة النفس والعقل

● التعميم من أخطر آفاتنا.. وعلينا تنشئة جيل يفكر ويستنتج ويستنبط ويميز ويقرر

● أعطني إعلاما لمدة عام أغير لك المجتمع بأسره كيفما تشاء

وينبغي عدم الخوض مع الجاهلين، فمن يجادل الجاهل سوف يخسر، لأنه يعتمد على الصوت العالي، بالإضافة إلى أنه لابد من عدم الحديث إلا بحجة وأدلة، فشرط نجاح المناقشة والمناظرة التساوي في العلم والحجة.

- د. سامي السرساوي: الرسول ﷺ رسم الطريق لذلك من خلال الآيات والأحاديث، وقد قال الله عزوجل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله عزوجل أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

والتغيير باليد ليس لكل الناس، وعندما نرى أمرا مسيئا لابد أن تكون ردات أفعالنا منضبطة بميزان الشرع والعقل. والتغيير باليد لمن عنده آلياتها، فالمسلم يستطيع التغيير في منزله مع أولاده، لكن لا يستطيع أن يغير في بيت جيرانه، لكني أملك النصيحة لهم، والحث على تجنب المنكر، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩). فينبغي عند تغيير المنكر بإحدى الطرق الثلاثة أن تكون بأسلوب حسن، قال الله جل وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥)، وإذا علمت أن هذا الشخص، الذي تريد تغيير المنكر لديه، رجل عصبي عنيف، فينبغي أن تلتزم التغيير بالقلب وترفض المنكر، أما الاندفاع خلف العاطفة فإنك تدمر أكثر مما تصلح.

نصائح للشباب

● الشباب على وجه الخصوص سريعو التقلب المزاجي.. فبسرعة يحبون، وبالسرعة نفسها يكرهون، فما النصائح التي يمكن أن تقدم لهم في هذا الخصوص؟

- د. مجدي إبراهيم: انتشار الأفلام الرومانسية والأغاني العاطفية والكلمات المبتذلة، أثر على تحكم الشباب في عواطفهم وأمزجتهم. وتقلب المزاج والاندفاعية موجودان بنسبة كبيرة في فترة الشباب، لكن وجود هدف واضح لهم مع بعض النجاحات يجعلهم يفكرون بنضوج أكثر.

التركيز في صنع نجاح هو الشيء الذي ينبغي أن يسعى إليه الشاب، فمدارس علم النفس تشير إلى أن الطفل الذي يربى على التنظيم والترتيب وضبط النفس يمر بمرحلة الشباب في هدوء وعدم تخبط.

● تربويا، ينساق بعض الآباء

في تدليل أبنائهم بلا حدود تحت سقف عاطفة الأبوة أو الأمومة، متجاهلين ما قد يكون لذلك التدليل الزائد من آثار سلبية، فما الطريقة السليمة للمزج بين العاطفة وحسن التنشئة؟

– د. مجدي إبراهيم: أكدت مدارس علم النفس الحديثة ضرورة رصد تطور السلوك عند الأطفال.. والعاطفة التي وضعها الله في قلبي الأم والأب لا يمكن منعها، لكن هناك ضوابط لها، فينبغي أن يكون مع الحب والتدليل حزم وحسم بطريقة تبتعد عن العنف.

وينبغي في حال التربية الحذر من عدم الوفاء بالوعد، والعنف، والانشغال، والسب، والضرب، وعدم الالتزام بتعاليم الشرع.

ولابد من خلق نماذج في خيال الطفل عن مدى أهمية الإيثار والبعد عن الأنانية، وافتعال مواقف تعليمية للطفل للسيطرة على النفس وكيفية القيادة، وعدم التحكم في اختيارات ملابسه وأكله.

والنقاش مع الطفل في جميع تساؤلاته من أبرز ما يؤدي إلى سلامة النفس والعقل، لأن هذه الإجابات هي التي تشكل تفكيره القادم، ومن المهم وضع الإجابات التي تجعل منه طفلا مسؤولا غير مدلل.

– د. سامي السرساوي: أوصانا الله بحفظ أمانة الأسرة والأبناء في نداء قال فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ (الأنفال:٢٧-٢٨)، فتربية الأبناء ينبغي أن تكون على الدين الذي أساسه الرحمة والعاطفة، ففي عهد صحابة رسول الله ﷺ كان من هم دون العشرين يقودون جيوشا نتيجة التربية على الإسلام الصحيح، كما حدث في شهر صفر سنة ١١هـ عندما جهز النبي ﷺ، جيشا ضم كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وأمر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وكان عمره حينها يقارب ١٨ عاما، وأمره أن

عندما يستشعر الشاب عظمة الله في قلبه تنضبط أفكاره وعواطفه

يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

فمن هنا، ينبغي ضبط ميزان العاطفة والتنشئة لدى الأطفال بتربيتهم على نصرة الحق والمظلوم، وحب الناس، والبعد عن الأنانية، وقول الصدق، وإطعام الطعام، وقص سيرة النبي ﷺ والصحابة الكرام عليهم، وضبط ما يشاهدونه على التلفزيون.

ميزان التقييم

● على المستوى العام اعتاد كثيرون أن يطلقوا أحكاما عامة بصفة إجمالية.. فمثلا يقول البعض هذا النظام فاشل، أو الغرب يضطهد المسلمين، أو التعليم الديني سبب انتشار التطرف.. فكيف يمكن ضبط ميزان التقييم ليكون منصفا ولا يطلق أحكاما لا تحتكم إلى العقل؟

– د. مجدي إبراهيم: يعتبر التعميم أخطر آفة وعيب من عيوب التفكير، وللأسف التعميم ناتج عن أسلوب التعليم الذي يعتمد على التلقين والحفظ، بجانب أسلوب التربية الذي يعتمد على عدم المناقشة والجدل.

وكلما نشأ الشخص في جو ديموقراطي وتعليم جيد، كانت قدرته على الاستنتاج والاستنباط أقوى، وتزداد قدرته على التمييز وإطلاق الحكم الصائب على الأشياء.

وعقل الإنسان عندما يرى شخصا آخر أو فكرة جديدة يبدأ في فحصها، فإذا اتفقت مع ما تربى عليه من عادات وتقاليد وتنشئة، فإنه يصنفها لديه في مراتب ودرجات، وربما يطلق عليها حكما بالرفض أو القبول، لذلك من المفترض أن تكون هناك تربية سليمة على كيفية التعبير وتقدير الأشياء.

ويلعب الخوف والوسواس القهري وغيرهما من أمراض النفس دورا في إطلاق الأحكام، فبعض الذين نشأوا على الخوف من الغير ومن التجديد والابتكار يرفضون أي شيء آخر، فضلا عن إطلاق أحكام غير دقيقة قبل التجربة وقبل الحصول على معلومات كاملة.

– د. سامي السرساوي: إذا أسند الأمر إلى كل متخصص انضبطت الحياة، ولكن تنطلق الفتاوى ممن هو غير أهل لذلك، وينبغي ألا يتكلم أي شخص أو يطلق الأحكام جزافا، إلا إذا كان لديه علم في هذا الاتجاه، وجاء في الحديث الشريف أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن موعد قيام الساعة، فقال له رسول الله ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (رواه البخاري).

ومن أبرز الأسباب التي أدت إلى إطلاق الأحكام غير الصحيحة قلة الثقافة والمعرفة، وعدم الارتباط بأرض الواقع.

الضوابط الأخلاقية لمنظومات الهندسة الطبية

د. شيرين فراج
أستاذة الهندسة الطبية - مصر

الهندسة الطبية، هي العلم المعني بتطوير وتصميم الأجهزة والمستلزمات الطبية، وكذلك في تقانات تحليل الإشارات والذكاء الاصطناعي، وتجدر هنا الإشارة إلى فروع وتطبيقات الهندسة الحيوية الطبية، التي أدت إلى الثورة العلمية الطبية الحديثة في التشخيص والعلاج.

فما قبل عام ١٩٠٠م كان الطب يعتمد على الطبيب وحقيبته الصغيرة السوداء ومهاراته وحسه الإكلينيكي، ثم بدأ التحول في المجال الطبي والثورة في التشخيص والعلاج من التطور السريع للعلوم التطبيقية التي أفرزت المجالات البينية، ولنذكر هنا فروع الهندسة الحيوية الطبية وتطبيقاتها، وهي:

١ - الميكانيكا الحيوية.
٢ - التحليل الطبي والبيولوجي.
٣ - المجسات الحيوية.
٤ - الهندسة الإكلينيكية.
٥ - المعلوماتية الطبية والحيوية.
٦ - هندسة التأهيل.
٧ - المحاكاة الفسيولوجية.
٨ - النانو تكنولوجي الحيوية.
٩ - الأجهزة الطبية.
١٠ - الهندسة العصبية.
١١ - هندسة الأنسجة.
١٢ - الهندسة الحيوية.
١٣ - المواد الحيوية.
١٤ - التصوير الطبي.
١٥ - وأخيرا الأجهزة المساعدة والأعضاء الصناعية.

ومما سبق يتضح كم يتداخل مجال الهندسة الحيوية الطبية في المجال الطبي، وكم يعتمد التشخيص والعلاج الطبي على هذا المجال في إيجاد حلول وعلاجات لأمراض مستعصية من أجل رفاهية الحياة والبشرية والإنسان.

ولكن في خضم كل هذه المزايا التي من المتصور أنها تعود على الناس بالنفع وحياة وصحة أفضل، تظهر أخلاقيات الممارسة والتطبيق والبحث في هذا المجال الذي لو أسيء استخدامه قد يصبح مضرا بالبشرية، فمجال الهندسة الطبية يستخدم كل التقانات الهندسية، خصوصا ذات التكنولوجيا العالية والإلكترونيات والميكانيكا.

وقد أصدر الاتحاد الأوروبي توجيهات وضوابط جديدة لاختصار استخدام جهاز الرنين المغناطيسي (٢٠٠٦) نتيجة لمخاطر الإشعاع الكهرومغناطيسي.

بالإضافة إلى ذلك التطور لا ينتهي عادة، فجهاز الرنين المغناطيسي خضع لعدة تطورات، فهناك الرنين المغناطيسي المفتوح الذي يصلح لحالات معينة ولا يصلح لأخرى. والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كانت حالة المريض لا تستدعي القيام بالفحص بجهاز رنين مغناطيسي قوي عالي المغناطيسية، فهل إذن من الأخلاق أن أعرض المريض للفحص بجهاز رنين مغناطيسي عالي المغناطيسية لأي سبب آخر غير احتياجه الفعلي للفحص؟ وهل من واجب الطبيب أن يوضح احتياج المريض الفعلي للفحص وبأي نوع من الأجهزة وللمريض حق الاختيار؟

الموجات فوق الصوتية

ولننطلق إلى مثل آخر وهو كثرة استخدام الفحص بالموجات فوق الصوتية، خصوصا أثناء الحمل، وإغفال الكثير من الأطباء وعدم وعي المرضى بأن ذلك قد يكون مضرا للجنين، حيث إن هناك أبحاثا كثيرة أثبتت إمكانية الضرر، مثل التأثير على الجهاز السمعي للأجنة، ووجد أن الطفل الذكر الذي يتعرض إلى الموجات فوق الصوتية كثيرا في بطن أمه يكون أعسر (أي يستخدم اليد اليسرى)، ولم يعرف حتى الآن نوعية الضرر الذي تسببه تلك الموجات على المخ، وكذلك نسبة الصفراء الوليدية الفسيولوجية، وذلك لأن تلك الموجات تقوم برفع درجة حرارة الخلية. فمن حق المريض أن يعلم مدى الضرر الواقع

عليه، خصوصا مع انتشار الموجات ثلاثية الأبعاد، وزيادة نسبة الإشعاع بها من دون أن تكون لها فائدة إكلينيكية. ومن هنا يجب أن يتم استخدام تلك الفحوصات تحت ضرورة طبية ملحة، وبعد الفحص الإكلينيكي الذي يحدد أن هناك مشكلة ما يجب التأكد منها، ولا تكون تلك الفحوصات عشوائية أو لرغبة الأم في رؤية جنينها.

وهناك محددا أمان لعمل أجهزة الموجات فوق الصوتية، التي من حق المريض أن يعلم مدى الجرعة الإشعاعية التي يتعرض لها، وهما:

أ - المعامل الميكانيكي، وهو علامة الضرر التجويفي.

ب - المعامل الحراري، وهو علامة الضرر الحراري على الأنسجة.

فالتقانات الحديثة يجب أن يكون لها بروتوكول خاص بها، والمريض يجهل الضرر الذي قد يلحق به، وقد يجهله الطبيب أحيانا أيضا. فمع التطور الطبي الهائل ومع الاتجاه إلى التخصص الدقيق نجد أن سلوك الطبيب اختلف ولم يعد حكيم الماضي، وأصبح الاعتماد في التشخيص والعلاج على استخدامات الأجهزة الطبية، وقد يقوم مثلا طبيب أطفال بطلب أشعة رنين مغناطيسي لطفل وقد لا يحتاج الطفل إليها فعليا، فعلى الطبيب المتخصص في الأشعة، وهو الأكثر دراية باستخدام ذلك الجهاز، مناقشة ذلك مع طبيب الأطفال لرؤية مدى جدوى ذلك الفحص مقابل ما سيتعرض له الطفل من الإشعاع.

ومن الثابت علميا أن الطول الموجي لإشعاع الرنين المغناطيسي يتوافق مع طول الطفل، مما يعظم الضرر على الطفل.

ولنسرد بعض الأضرار التي قد تصيب الإنسان من جراء التعرض للموجات الكهرومغناطيسية والإشعاع غير المؤين عموما:

١ - الضرر الناتج من الديناميكية الكهربية للمجال المغناطيسي.

٢ - الضرر الناتج من المغناطيسية الميكانيكية للمجال المغناطيسي.

٣ - الضرر الناتج من التفاعل على مستوى الذرة والنواة.

وتلك الأضرار تؤثر على سريان الدم وتأخير السريان في إحداث التدفق وزيادة في ضغط الدم والتأثير على النمو والإنجاب وعمليات نمو الجنين والسلوك والجهاز العصبي المركزي.

بالإضافة إلى تأثير موجات الراديو في رفع درجة حرارة الخلايا التي قد تؤدي إلى الأمراض السرطانية، والصداع الناتج من زيادة وجود السيراتونين في الدم، والتأثير على إفراز هرمون الميلاتونين الذي له فائدة كبرى في تخليص الجسم من الشوارد الحرة، التي أظهرت الأبحاث أن زيادتها سبب الأمراض السرطانية.

فمن أخلاقيات التطبيق أن يعلم كثافة القوى ومعامل الامتصاص النوعي للإشعاع غير المؤين عند التعرض إلى أي من تطبيقات هذا الإشعاع في الطب والحياة العادية، مثل أجهزة التليفونات المحمولة وأبراج البث الإذاعي والتليفزيوني وأجهزة التحكم عن بعد وغيرها من التطبيقات التي لا تخلو منها حياتنا. إذن لا يخلو أي تطبيق من الضرر، ولتعظيم فائدته يجب استخدامه الاستخدام الصحيح غير مدفوع بضعف الحس الإكلينيكي للطبيب.

أجهزة الإشعاع المؤين

من أجهزة الإشعاع المؤين أجهزة الجاما كاميرا، التي تستخدم في فحوصات القلب وغيره. أحيانا كثيرة يتناسى الطبيب ويجهل المريض أنه يحقن بمواد مشعة، وأنه يصبح منذ ذلك الوقت وطيلة حياته مشعا. صحيح أن فترة نصف العمر للمادة، التي تختلف من فحص إلى آخر، تقلل من نسبة الإشعاع، لكنها لن تنتهي، أي إن الإشعاع الناتج من المريض سيقل ولكنه لن ينتهي أبدا.

ومع تطور أجهزة الجاما كاميرا ظهرت أجهزة إشعاع البوزيترون المقطعي، والتي تستخدم في دراسة الأيض، وبالتالي تحديد التشخيص بناء على تغيرات الأيض الناتج من الأمراض السرطانية ومرض باركنسن وفحوصات القلب. المشكلة فقط تكمن في أن هذا الجهاز يستخدم مواد مشعة ذات فترة نصف عمر طويلة بالنسبة إلى الفحوصات المستخدمة في الجاما كاميرا.

وبالتالي، فإن تحديد وطلب مثل هذا الفحص يجب أن يكون تحت

ضرورة ملحة تحتاج إليه لا أن يكون عشوائيا.

الأشعة السينية

وننطلق كذلك إلى فحوصات الأشعة السينية، إلى حق المريض في معرفة الجرعة الإشعاعية التي سيتعرض لها، فمثلا أجهزة الأشعة المقطعية تصدر نسبة إشعاع كبيرة، فهي تعرض المريض إلى جرعة من ١٠-٢٥ مللي سيفرت (وحدة القياس)، وهي جرعة كبيرة قد تؤدي إلى زيادة نسبة التعرض إلى مرض السرطان. وفي حين أن العالم الآن يتجه إلى تقليل الجرعة الإشعاعية التي يتعرض لها المريض، فتم اختراع أجهزة الأشعة المقطعية الحلزونية، ثم الآن الأجهزة المقطعية المخروطية، بالإضافة إلى فائدتها الإكلينيكية فإنها تخفض نسبة الإشعاع الذي يتعرض له المريض بنسبة ٩٧ في المئة، فإذن من حق المريض أن يعلم ذلك، ويطلب ذلك الفحص إذا كان قادرا ماديا للتقليل من الجرعة الإشعاعية.

والآن هناك أجهزة الأشعة السينية، والتي تعرض المريض إلى جرعة إشعاعية لا تتجاوز مقدار المرور من البوابات الإلكترونية، ولكن لارتفاع ثمنها، ولأن الإقلال من الإشعاع الذي يتعرض له المريض لم يكن أبدا في بؤرة اهتمام الطبيب، فالمهم بالنسبة إلى الطبيب هو كتابة العلاج للمريض وتشخيصه، أما حساب مدى ما يتعرض له المريض من الإشعاع وأثر ذلك على حياته بعد ذلك فهو أمر غير مدرك.

التحليل الطبي

التحليل الطبي هو أحد أساسيات التشخيص السليم، وأهم ركائزه «كيت الاختبار»، والتي تحتوي على كيماويات متغيرة القدرة على الثبات، فهناك أكثر من مؤشر فيها وهي: الزمن، نوعية الكيماويات، عدد مرات الاستخدام بعد الفتح. وبناء على «كيت اختبار» تعطى النتائج، إذن فالتأكد من استخدام أفضل الكيماويات وأفضل المنتجات عالميا، هو أمر أساسي لا يقبل المناقشة، والذي يؤثر فعليا على التشخيص السليم، ولكن ماذا يحدث نتيجة للطلب على الأرخص؟ بدأت الشركات تتنافس في استخدام كيماويات فترة ثباتها قليلة ونتائجها غير مؤكدة. ولرخص ثمنها انتشرت، وانتشر معها عدم دقة نتائج المعامل، والتي قد يجهل المريض والطبيب أحيانا أسباب عدم دقة النتائج، وانتشر معها فكر أن يتم إجراء الاختبار المعملي في أكثر من معمل للتأكد من النتائج. إذن، أليس من أساسيات الأخلاق استخدام «الكيت» التي تمت معايرتها ولها شهادات جودة وفترة ثبات طويلة، حتى ولو كان ثمنها مرتفعا؛ لأن إجراء التحليل مرة بكل تأكيد أوفر من إجرائه عدة مرات للوصول إلى نتيجة سليمة؟!

بالإضافة إلى احتياج أجهزة المعامل إلى المعايرة حتى تعطي نتائج سليمة.

جهاز التنفس الصناعي

ومع تطور جهاز التنفس الصناعي، الذي له ثلاث طرق للعمل:

متحكم كليا، وهنا هو يتحكم كليا في تنفس المريض، ولا يقوم باستقبال أو التعامل مع أي محاولة للمريض في التنفس، وبالتالي يتم برمجته على دورة لضخ الهواء وسحبه من الرئتين، وعادة يكون المريض في حالة لا يستطيع التنفس فيها.

مساعد للمريض، وفي تلك الحالة يستطيع المريض التنفس، ولكنه لا يأخذ القسط المحتاج إليه من الهواء، فيعمل الجهاز في تلك الحالة على ضخ كمية مناسبة من الهواء، في تلك الحالة يجمع الجهاز طريقتي التحكم والمساعدة، فتتم برمجته بالزمن، إذا فشل المريض في سحب الهواء يقوم الجهاز بضخ الهواء كليا.

ومع تطور رسم المخ الكهربائي وطرق تحليل الإشارات، ظهرت مشكلات فقهية ودينية، مثلا في مجال نقل الأعضاء وزراعتها، لاسيما في حالات موت جذع المخ وفي حالة المرضى الذين استعصى شفاؤهم.

أجهزة المناظير

أجهزة المناظير، التي أصبحت لا غنى عنها، لكن لارتفاع ثمنها وحيث إن تلك الأجهزة في أغلب الأحيان لا يتم تعقيمها، لأن استخدام الكيماويات ومواد التعقيم يسبب لها تآكلا، وفي الوقت نفسه يقلل من عمرها الافتراضي، ويقوم الأطباء في أفضل الظروف بتطهيرها، وهناك شتان بين التطهير والتعقيم، فأصبحت أحد أسباب نقل العدوى، خصوصا الالتهاب الكبدي الوبائي، فأصبحت تلك الثورة التكنولوجية الحديثة، والتي ساهمت بدور فعال في مجال التشخيص والعلاج، أحد مسببات الأمراض المستعصية. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الأمان في إجراء أي تدخل طبي، وإن كان مكلفا أفضل، أم أن ضعف الأخلاق والمبادئ والرغبة في التربح أصبحت القيم السائدة ولو على حساب الآخرين؟

وقائع لا أخلاقية من الحياة العملية

علم الاجتماع هو علم يدرس السلوكيات، ولكي نكون أكثر دقة، عند تصنيع أي جهاز طبي يقوم المصنع بوضع إرشادات عامة ومهمة للاستخدام، وقد لا تتصور كيفية تفتق ذهن بعض المستخدمين عن استخدامات لا أخلاقية، وقد تكون مضرة للمرضى، فهناك بعض السلوكيات الناتجة من شعوب الدول النامية مدمرة، فهي تسلك منهج التوفير، والتواكل، والإهمال واللامبالاة، التي مؤكدا تصيب

المريض بالضرر، وعادة ليس هناك قانون أو حكم رادع لتلك السلوكيات، التي أحيانا كثيرة تودي بحياة البشر.

وسأقوم بسرد قصص حقيقية واقعية كنت شاهدا عليها تثبت مدى أهمية الدعوة إلى التمسك بالأخلاق والقيم ومبادئنا الدينية.

في صرح طبي كبير، وفي وحدة غسل الكلى، كان جهاز غسل الكلى به عطل في وحدة التسخين الخاصة بالدم (حيث تجب إعادة تسخين الدم لدرجة حرارة الجسم قبل دخوله إلى الجسم مرة أخرى، حيث إن خروج الدم من الجسم يفقده لدرجة حرارته)، فبدلا من أن يغلق العمل على الجهاز تم العمل به، ووضع مريض غسل الكلى عليه، مع تفتق ذهن العاملين على الوحدة بحل، وهو أن يقوموا بإحضار مياه دافئة لوضع أنابيب الدم قبل دخولها الجسم لتسخين الدم مرة أخرى.

وهنا حدثت المأساة، قامت الممرضة بإحضار مياه بدرجة حرارة الغليان، وعند وضع أنابيب الدم بها ودخول الدم إلى المريض مرة أخرى توفي المريض، فقام الطبيب في ذلك الوقت بنهي الممرضة عن فعل ذلك مرة أخرى فقط!

ووحدة غسل الكلى هي وحدة على قدر أهميتها للمرضى وقد تكون حياتهم متوقفة عليها، على قدر ما تكون سببا لكوارث كثيرة، فهي تنقل العدوى، وقد حدث ذلك كثيرا، ولايزال يحدث يوميا، فهي قد تكون ناقلة لعدوى مرض الإيدز والالتهاب الكبدي الوبائي، حيث إن فلتر الدماء الذي يجب ان يعدم بعد كل استخدام، نتيجة لضعف الأخلاقيات وبغرض تعظيم المكسب المادي، يتم استخدامه أكثر من مرة، مما يؤدي إلى انتشار العدوى! أترون معي، يدفع المريض ثمن العلاج ويعاد استخدام الفلتر أكثر من مرة، ويؤدي إلى إصابته بأمراض قاتلة نتيجة لانعدام الضمير.

ولنقف قليلا عند الضمير. فما هو الضمير؟ وما هي تلك الرقابة على النفس؟ وأين يقع الضمير؟ وما معنى غياب الضمير وضرر ذلك على البشرية؟ وما علاقة الضمير بالخطأ؟

الضمير هو وازع النفس، ومستلهم الهداية من الروح، وهو العقل الذي يفرق بين الخير والشر، هو المسؤول عن محاسبة النفس على الخطأ وفقا للمثل الدينية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٧-١٠). وإذا غاب الضمير والوازع فجرت النفس، وانتشر الفساد في الأرض.

ووحدة غسل الكلى يجب أن تصاحبها وحدة معالجة مياه ذات خاصية معينة، حيث إن تلك المياه لها دور في عملية تنقية الكلى، فمثلا إذا احتوت المياه المستخدمة في أجهزة الغسل الكلوي على كالسيوم أو مغنسيوم أعلى من الحدود المطلوبة، فإن المريض سيعاني من الغثيان والتشنج والقيء، وإذا احتوت على نسبة عالية من النيترات فسيصاب المريض بالأنيميا الدموية، وإذا احتوت على نسبة عالية من الكبريتات فإنها قد تؤدي أحيانا إلى الوفاة. وكانت لي دراسة عن نوعية تلك المياه، وتبين تلك الدراسة أن وحدة معالجة المياه في كثير من الأماكن لا تؤدي دورها، فإما يتم تحويل المياه من دون المرور على بعض الفلاتر، أو أن الفلاتر تهالكت حتى لم تعد تؤدي دورها في التنقية، مما يؤدي إلى أن العديد من المرضى يصابون بالغثيان والدوخة، ونجد الطبيب يعالج ذلك بإعطائهم محلولا ملحيا لمحاولة ضبط كيمياء الدم من دون التنبه إلى أصل المشكلة.

في العديد من المراكز الطبية، التي قد تكون باهظة الثمن في تقديم العلاج، تتم إعادة استخدام أدوات، أو مستلزمات ذات استعمال مرة واحدة، من إبر أخذ العينات وبعض من المستلزمات الطبية، مثل السلك المرشد، القسطرات الباهظة الثمن، مثل القسطرات البالونية وقسطرات الأوعية الدموية، قفازات، وغيرها.. ويعللون ذلك بأنهم يقومون بتطهيرها عن طريق استخدام بعض المطهرات، أو تعقيمها في أفران التعقيم، وهو أمر بالغ الخطورة لسببين: الأول أن تلك الأشياء مصممة على ألا يتم تعقيمها مرة أخرى، فإذا ما أدخلت في وحدات تعقيم فسيتغير تركيبها

الكيميائي، وستخرج مواد ضارة جدا بالصحة، وعند استخدامها للمرضى ستكون جالبة للمرض. والثاني في حالة استخدام مواد مطهرة لتطهيرها فإنها كذلك ستقوم بإخراج مواد ضارة بالإضافة إلى نقلها للعدوى، حيث إن التطهير ليس إلا الإقلال من جزيئات الميكروب والفيروس، ولكنه ليس تعقيما.

وبالنسبة إلى المستلزمات أو الآلات التي تعقم في كثير من الأحيان، يتم إغفال عملية التعقيم والاكتفاء بالتطهير، حيث إن التعقيم هو عملية معقدة ومكلفة، وهذا الوضع في معظم العيادات الطبية وفي كثير من المراكز الطبية التي لا يوجد لديها جهاز تعقيم بالبخار وغير قادرة على القيام بالتعقيم.

وعملية التعقيم تبدأ من غسل الأجهزة أو الآلات بالماء والصابون جيدا، وإزالة آثار الدماء، ثم تركها لفترة في مواد مطهرة، وبعد ذلك يتم تغليف تلك الآلات بغلاف معين به علامة يتغير لونها عند التعقيم، ثم إدخال تلك الآلات في جهاز التعقيم بالبخار في دورة كاملة، ثم التأكد بعد ذلك من كفاءة التعقيم بتغير لون العلامة، وأخذ عينات وتحليلها للتأكد من كفاءة التعقيم.

وفي كثير من المستشفيات، خصوصا أجهزة الشفط لا يتم تغيير الأنابيب الخاصة بها، فالأطفال عند الولادة يتم التشفيط لهم ولكن لا يتم تغيير الأنبوبة الخاصة بالجهاز! وفي العمليات الجراحية يستخدم كذلك الشفاط في كثير من الأحيان من دون تغيير أنبوب الشفط، مؤذنا بانتقال العدوى.

وقد حدث يوما أن انتقلت عدوى إلى كل من أجروا جراحات في خلال أسبوعين في وحدة عمليات معينة، وعند البحث وجد أن بعض المستلزمات الجراحية يعاد استخدامها بعد وضعها في محلول التطهير «سايداكس»، وأن المحلول قد انتهت صلاحيته، ومع ذلك يعاد استخدامه!

قسطرة تشخيصية

ولننتقل إلى مرتبة أخرى من اللاأخلاقيات، منذ حوالي خمسة عشر عاما بدأ العالم في محاولة اختراع أو إضافات لأجهزة لتفادي القيام بالقسطرة التشخيصية لمرضى القلب، فبدأ اختراع منظار الموجات فوق الصوتية للقيام بفحوصات القلب بدلا من القسطرة التشخيصية، ثم أخيرا القيام بإضافة مقطوعات معينة لجهاز الأشعة المقطعية حتى يصل إلى ٣٠٠ مقطع، وهو الذي يمكن من فحص القلب وتفادي عملية القسطرة التشخيصية. لكن تلك الأجهزة الحديثة، واستخدامها بكل تأكيد أفضل للمريض من القيام بإجراء القسطرة التشخيصية وما لها كذلك من مخاطر، سيقلل من عمل السادة أطباء القلب الذين يقومون بعمل القسطرة التشخيصية، وهو دخل بكل تأكيد لا بأس به لهم، فيرفضون إخبار المريض بتلك الأجهزة الحديثة، وكذلك يشككون في كفاءتها. ولقد شاهدت مريضا بجلطة في القلب أصر جميع أطباء القلب الذين يقومون بإجراء القسطرة التشخيصية والعلاجية على القيام بإجرائها له ورفض استخدام الأشعة المقطعية الحديثة، وحين أصر المريض على إجرائها كانت النتيجة عجيبة، فهو لا يحتاج لا إلى قسطرة تشخيصية ولا إلى تركيب دعامات، فهو لا يحتاج إلى أكثر من علاج دوائي! إذن ما هو حق المريض في استخدام أكثر التقنيات حداثة لتوفير مشقة إجراء العمليات؟ وما هو حق المريض في الحصول على أفضل علاج من دون الزج به في استفادة شخصية لآخرين؟ وما هو حق المريض في معرفة الأخطار المتوقعة لاستخدام علاج معين؟

التقدم العلمي الآن أتاح معرفة إذا كان المريض يحتاج إلى قسطرة علاجية أم لا من دون الزج به في قسطرة تشخيصية، وبناء عليه، يتم تجهيز نوعية العلاج الذي يحتاج إليه من دعامات أو قسطرات بالونية بالمقاس الذي يحتاج إليه للقيام بالقسطرة العلاجية إذا لزم الأمر، أما أن أقوم بعمل القسطرة التشخيصية لتحديد المشكلة ثم البدء في تجهيز احتياجات المريض إذا لزم له علاج في الجلسة نفسها فهو أمر لم يعد مقبولا.

هشاشة العظام

هشاشة العظام أصبحت أمرا شائعا عند كبار السن، لاسيما السيدات، ومن دون تفكير يقوم الطبيب بكتابة علاجات الكالسيوم من دون النظر والتدقيق في سبب الهشاشة، ومن دون إعلام المريض بأن علاج الكالسيوم وتناوله لفترات طويلة يؤدي إلى أن يترسب على الشرايين مسببا تصلب الشرايين، ومشاكل في القلب، بالإضافة إلى أضرار كثيرة أخرى.

وقد اكتشف العلماء أن سبب الهشاشة ليس نقص الكالسيوم كما يزعمون في أغلب الأحيان، وأن السبب في الهشاشة هو نقص مادة السيلينيوم. فقد ظهر أن أغلب المصابين بالهشاشة لديهم، بالإضافة إلى ذلك، الأنيميا، فوجد أن السبب وراء ذلك هو أن العامل الرابط لإدخال الكالسيوم والحديد في الخلايا لا يعمل بكفاءة، وذلك لنقص مادة السيلينيوم. إذن، قد يكون العلاج لمرضى الهشاشة هو تناول بعض الأغذية الخضراء الغنية بالسيلينيوم مثل الجرجير...إلخ.

مما سبق يتضح أن العديد من مشكلات الممارسة اللاأخلاقية عند استخدام منظومات الهندسة الطبية تكمن في الآتي:

١ - أن يجهل الطبيب المنظومة التي يعمل عليها، ولا يحيط علما بجميع جوانب الضرر أو الضرر المحتمل، والفائدة من استخدامها، وذلك يعود

إلى عدم دراسة الطبيب لعلم الأجهزة الطبية. وفي تلك الحالة يكون الطبيب مظلوما والمريض كذلك لوقوع الضرر عليه عن غير قصد.

وإنني أدعو إلى تضمين دراسة مبسطة عن علوم الأجهزة الطبية في مقررات دراسة الطب أسوة بما هو متبع في كلية الهندسة لدراسة الهندسة الطبية، فهي تشمل دراسة العلوم الطبية الأساسية من تشريح وعلم وظائف الأعضاء وكيمياء حيوية... إلخ.

٢ – أن يعتقد الطبيب أن كثرة الفحوصات للتشخيص هي أفضل من قلتها، لذلك لرغبته في الدفع بجميع الأسباب التي قد تكون مسببة للعارض. وهنا نجد أن هناك سببين لذلك: أولهما: ضعف الحس الإكلينيكي للطبيب، والذي يكون دائما أساس التشخيص. والثاني: هو البند الأول وعدم علم الطبيب بالأضرار المحتملة نتيجة التعرض لمنظومة طبية في غير احتياج.

٣ – المصالح الشخصية والإهمال هي الآن من أشد الممارسات اللاأخلاقية، فارتفاع ثمن الأجهزة الطبية وتطورها السريع جعلا من بعض الذين يقتنونها يستخدمونها أحيانا من دون ضرورة طبية، وذلك للاستثمار، أو لا يقومون بإجراءات الأمان عند الاستخدام، وذلك أيضا بهدف التربح.

٤ – سرعة التطور في الأجهزة الطبية ومحاولات العالم لاختراع الأجهزة التي تعظم الفائدة وتقلل وتعدم الضرر المحتمل أو الناتج، ومن ذلك كما سبق أن ذكرنا أجهزة الأشعة المقطعية المخروطية، والتي تعتبر الآن هي الثورة في عالم الإشعاعات، فهي تعطي صورة دقيقة للأنسجة، وهو أمر لم يكن قائما من قبل، بالإضافة إلى أن نسبة الإشعاع الصادر منها تقل عن مثيلتها بـ ٩٧ في المئة. لكن ماذا فعلت مجتمعاتنا، فهي لم تستطع توفير مثل هذا التشخيص الباهظ الثمن، ويظل حتى الآن استخدام الأجهزة عالية الإشعاع، ومسألة حقوق الإنسان من التعرض لمخاطر الإشعاع وحقه في المعرفة بمختلف أنواع التشخيص والعلاج ليست في بؤرة الاهتمام.

٥ – في مجتمعاتنا العربية يغفل حق المريض في المعرفة، في حين أن الدول الأوروبية وغيرها تنص على حق المريض في معرفة مرضه، وشرح جميع أركان العلاج وما قد يتعرض له من ضرر محتمل أو أعراض جانبية، وهذا يساهم جديا في نجاح العلاج. فعلينا احترام حرية مخاطرة الإنسان بصحته وحياته من أجل تحقيق منفعة خاصة.

٦ – وأخيرا علينا أيضا أن نعلم أن عدم معرفة الآن الأضرار التي قد يسببها استخدام الأجهزة الطبية الحديثة لا يعني عدم وجود أضرار لها، فعند اختراع أي جهاز جديد يعتبر هو الأكثر أمانا؛ لعدم معرفتنا ربما بأضرار له قد تكشف عنها الأيام. فالآن يجب أن يقدم للمريض أفضل علاج ناجع، وتستخدم في التشخيص أفضل الأجهزة الحديثة، إن كان المريض في احتياج لها، ولكن على الطبيب أن يحترس من جهة عدم التحدث عن الأمان الكامل لهذا التطبيق، ولأدلل على ذلك ففي أوائل القرن الماضي كان الطب يجيز استخدام الأشعة السينية في الكشف على المرأة الحامل، ولكن ماذا عن الآن؟ لقد أصبح مجرما استخدام فحوصات الأشعة السينية في الكشف على الأجنة، واستبدلت أجهزة الموجات فوق الصوتية بها، وهي بكل تأكيد أكثر أمانا من أجهزة الأشعة السينية في حالة استخدامها المقنن.

٧ – إن عدم تخصيص أبنية خاصة لخدمات الرعاية الصحية والعلاجية يؤدي أحيانا إلى تلوث البيئة المحيطة، خصوصا مراكز الأشعة بأنواعها ومراكز الغسل الكلوي.

وفي النهاية، إن من أخلاقيات استخدام الأجهزة الطبية في العلاج ألا تكون سببا في انتشار العدوى، أو الإساءة إلى كرامة الإنسان، أو أذى يصيب الجسم مع استقلال الجسم البشري أو ضرر قد يصيب الإنسان بسبب سوء الاستخدام، وألا تكون الفائدة المرجوة أقل من الضرر الذي قد يصيب الجسم البشري، مع المساواة في تقديم سبل العلاج لجميع البشر من دون تفرقة أو تمييز.

ولا يخضع المريض للعلاج أو البحث من دون موافقة رسمية منه، على ألا تصبح تلك الموافقة هي صورة لحماية الطبيب تؤخذ روتينيا قبل إجراء العمليات الجراحية ومن دون شرح للمريض عن نوعية العلاج الذي سيتلقاه ومخاطره.

ويجب على الطبيب والهيئة المعاونة بذل كل العناية والاحترام والرعاية للجسم البشري للحفاظ على الإنسانية، مع استمرارية التعلم حتى يقدموا أفضل رعاية ويكونوا على علم بأحدث أساليب العلاج وأفضلها، فقديما كان يسمى الطبيب حكيما؛ لأنه يجب أن يمتلك الحكمة ولا يكون سببا في ضرر.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

(البقرة:١٧٩)

بهذا الالتزام بمبدأ حق الحياة والمعرفة، وحرية الإرادة للإنسان، وكرامة الجسم البشري وعدم انتهاكه والحفاظ على خصوصيته، وبالتشدد في توقيع الجزاء على أي عدوان عليه سارت الشريعة في مقدمة الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان.

والتي منعت تماما أن يحول الجسم البشري أو جزء منه إلى مصدر للكسب.

وأنهي قولي بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

مخاطر الإعلانات التليفزيونية على القيم

د. محمد الفاتح حمدي
كاتب صحفي

يقول الكاتب والأكاديمي الفرنسي الشهير «ريجيس دوبريه»:

«إن عالم الصورة الإعلانية التلفزيونية، يندرج ضمن حرب اقتصادية ضاربة لا هوادة فيها، فحركة الصورة تتعلق أساسا بحركة تجارية، وتباشر صناعة مهمة تتحكم فيها مصالح هائلة وأموال طائلة، وهو الوضع الذي يحول الصور الإعلانية من تحف فنية ذات قيمة جمالية إلى مجرد منتوج تجاري بقيمة مادية، ولذلك فإذا كانت الحرب استمرارا للسياسة بوسائل أخرى، فالاقتصاد السمعي البصري هو تصريف للسياسة الدولية بوسائل أخرى، فالصراع الذي تخوضه الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، اعتمد على السينما بشكل أساسي، لأنه حين يمر فيلم أميريكي تمر معه السيارة الأميريكية وغيرها من منتوجات الاقتصاد الأميريكي. إن صناعة الحلم حددت في هذا السياق كأداة أساسية للهيمنة والتحكم، فمن المؤكد – كما يقول ريجيس دوبريه –: أن الصورة تتضمن قدرة هائلة على الاستحواذ على وعي الناس وانتباههم وأذهانهم، وتنفذ إلى زمانيتنا الخاصة، إنها اجتياح لحميميتنا الفردية».

تمهيد.

شهدت المجتمعات العربية تطورا كبيرا على مستوى كل مجالات الحياة في ظل الانتشار الكبير لتكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، حيث أصبحت هذه المجتمعات تعيش في عالم مفتوح على مصراعيه، في ظل العولمة الإعلامية، متأثرة بما يشهده الغرب من تحولات على المستوى الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والثقافي والرياضي، والإعلامي، خصوصا مع التطور الكبير الذي يشهده البث الفضائي، وقد استقطبت مسألة الاستقبال التلفزيوني المباشر منذ التسعينيات اهتمام الجميع في العالم العربي، من

سياسيين ومفكرين وباحثين اجتماعيين ومختصين بمجال علوم الاتصال والإعلام. كما أثارت هذه القضية جدلا واسعا في مختلف الأوساط، واتخذت السلطات في العديد من الأقطار العربية تجاهها مواقف متباينة. وربما كان سبب تخوف الكثيرين من ظاهرة البث الفضائي المباشر هو الحفاظ على الهوية الثقافية المحلية، في الوقت الذي تحاول فيه الولايات المتحدة الأمريكية اختراق الثقافات المحلية في كثير من دول العالم، ومن بينها الثقافة العربية الإسلامية. ولقد ساهم البث الفضائي المباشر في تعريف الشعوب العربية والإسلامية بشتى الثقافات، والعادات والتقاليد، والعلوم والفنون السائدة في شتى المجتمعات العالمية، في إطار ما يعرف بحوار الحضارات والثقافات بين الشعوب. وما نلاحظه في واقعنا وداخل أسرنا بخصوص التزايد الكبير واللافت للانتباه للقنوات الفضائية الأجنبية والعربية التي غزت بيوتنا ومؤسساتنا، حيث أصبحت هذه القنوات الفضائية قادرة على تخطي الحواجز والحدود الجغرافية والسياسية، وتجاوز الرقابة التقليدية، وتنامي قوة المنافسة بينها على استقطاب المشاهدين، مما جعل المشاهد يواجه كما هائلا من الصور والأفكار والبرامج والرؤى، لم تكن معتادة لديهم في البيئة المحلية الخاضعة للرقابة الرسمية. لقد أصبحت مشاهدة هذه القنوات متاحة وميسرة للمتلقي، وأصبح التعرض للقنوات الفضائية بين أوساط الجمهور الجزائري يتحرك وسط مئات الخيارات المتاحة من القنوات والاتجاهات الفكرية والسياسات الإعلامية، وهو الأمر الذي يترتب عليه انعكاسات متباينة على الصعيد الأخلاقي والقيمي والتربوي، والاجتماعي والسياسي، ومن بين هذه الخيارات المتاحة من القنوات نجد قنوات الموسيقى والغناء، والمسلسلات والدراما، وقنوات الرياضة والألعاب، وقنوات الأخبار والبرامج الحوارية، وقنوات الجنس والإثارة، وقنوات الإعلانات التجارية والخدمات، وغيرها كثير، حيث تبث برامجها عبر الأقمار الصناعية المتعددة (العربية والأجنبية)، والتي يصل بثها إلى كل البيوت الجزائرية والعربية، ويبقى أمام المشاهد اختيار البرنامج والقناة المفضلة التي تلبي رغباته وحاجاته من المشاهدة اليومية.

دور القنوات الفضائية العربية

كل هذا التنوع في القنوات المتخصصة والموضوعاتية والجامعة - الحكومية والخاصة - ساهم في تفتيت الجماهير إلى فئات معينة، حسب الرغبات والإشباعات التي تحققها هذه القنوات الفضائية. فنجد مثلا - حسب دراسات عربية كثيرة (١) - جمهور الأطفال يفضل قنوات الأطفال، مثل «قناة الجزيرة للأطفال»، وجمهور الشباب الذي يفضل القنوات الرياضة، وقنوات الموسيقى والغناء والأفلام، مثل «قناة الجزيرة الرياضية، دبي الرياضية، وقنوات روتانا وقناة ٢ MBC» وغيرها كثير، ونجد جمهور ربات البيوت اللواتي تفضلن قنوات المسلسلات والطبخ والصحة والقنوات الدينية وغيرها. فهذا التنامي الكبير في عدد القنوات الفضائية العربية وبرامجها هو خدمة للمشاهد العربي من جهة، والربح والتجارة من جهة أخرى، وهذا ما أدى إلى زيادة بحجم كبير في عدد البرامج الإعلانية والإعلامية التي تنتجها، حيث تسعى كلها إلى استقطاب أكبر قدر من المشاهدين إليها من خلال تركيزها على البرامج المثيرة التي تستقطب أكبر شرائح المجتمع، مثل فئة الشباب التي تفضل بحجم كبير برامج المباريات الرياضية المثيرة، والأفلام والمسلسلات والأغاني والحوارات مع نجوم الرياضة والفن والغناء، وأيضا تنظيم المسابقات والألعاب، حيث يتم التركيز على نوعية الجوائز المالية المغرية، وذلك بهدف كسب مشاركة قياسية من الجمهور، والتصويت عبر الرسائل القصيرة، وكل ذلك من أجل تحقيق أرباح كبيرة للقناة، بالإضافة إلى بيع مساحات إعلانية للمؤسسات ووكالات الإعلان داخل هذه البرامج وبأسعار خيالية في الكثير من القنوات التي تشهد إقبالا على برامجها مثل قناة «MBC١ ومختلف قنواتها»، وأيضا قنوات الجزيرة الرياضية وأبوظبي ودبي وروتانا، وغيرها كثير.

وظائف الإعلان في حياتنا اليومية

إن الوظيفة الأساسية للإعلان الذي يبث عبر برامج القنوات الفضائية العربية، هي إيصال الرسالة الإعلانية لجمهور المستهلكين، والتي تعتمد بدورها على جذب الانتباه كأول خطوة للإعلان الناجح، وهي مهمة لم تعد سهلة في ظل التطورات الكبيرة في وسائل الاتصال والإعلام الحديثة، حيث يتطلب الأمر وجود إعلان متميز يجذب انتباه الجمهور وسط هذا الكم الهائل من الإعلانات، مما حفز على استخدام العديد من تقنيات وأساليب الإعلان لتحقيق هذا الغرض، خاصة وأن التلفزيون بوصفه وسيلة إعلانية تتميز بالعديد من الخصائص، كتقديم الرؤية والصوت والحركة، والتي تعطي للمعلنين مرونة إبداع هائلة، وذلك يتحقق نظرا لتفاعل الصورة مع الصوت، مما يمنح فرصة إبداعية هائلة، ومرونة في تصميم الرسالة ويجعل من الممكن خلق تمثيل درامي مماثل لحقيقة السلع والخدمات. وما تقوم به الإعلانات التلفزيونية أنها تعكس صورة السلعة والجو المحيط بها، وتخلق جوا عاطفيا واستمالات مسلية، تساعد في إظهار السلع العادية بصورة مبهرة.

لقد أصبح الإعلان صناعة تقوم على أسس فنية وعلمية، تشترك فيها كل علوم التأثير، ابتداء من مبادئ الإحساس والتنبيه والمؤثرات الصوتية واللونية والمركبة والإيقاعية، وفي الإعلان تمارس أكثر درجات التقنية التلفزيونية تطورا، كي تأتي الرسالة الإعلانية مكثفة، قوية، مؤثرة، فاعلة، تخترق الوعي مباشرة، وتتراكم في

الذهن بلا حاجة إلى تأمل أو تحليل، أهم شيء فيها هو التفاعل مع هذه الرسالة والاستسلام لها ولتأثيرها. ومن أجل ذلك توظف شركات الإعلانات العالمية الخبراء في علم النفس والتحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، لدراسة دوافع الجمهور وسلوكه وعاداته وقيمه وتفضيلاته ونقاط مقاومته ونقاط تجاوبه، كما تدرس تأثير الجماعة وضغوطاتها، والمحاكاة التي قد تتحول إلى عدوى، عن طريق هذه المعرفة الدقيقة، تقدم الإعلانات كي تجد منافذ التقبل مفتوحة أمامها، وكي تتجنب الاصطدام بنقاط المقاومة.

وفي هذا الإطار، «تشهد القنوات الفضائية تنافسا كبيرا فيما بينها، من أجل جلب أكبر قدر من المعلنين إليها، وذلك من خلال بيع فترات زمنية مهمة (فترات الذروة) على البرامج التي تستقطب حجما كبيرا من المشاهدين، وذلك بأثمان باهضة، خصوصا فترات الذروة، لأن الإعلان يعد موردا أساسيا في المحطات الفضائية، لذا توليه عناية فائقة من حيث الميزانية المرصودة، وكتابة السيناريو وأداء الممثلين ولغة التصوير، وتوظيف الألوان، وتدرجات النور أو الظلال، وطريقة توزيع الأشياء في الفضاء، وفي استعمال الموسيقي والمؤثرات الصوتية. ويترك للجمهور المشاهد الحكم بنجاح أو فشل الإعلان التلفزيوني، وهو الذي يقبل أو يرفض المعلومات التي تعرضها الرسالة الإعلانية. فالإعلان التلفزيوني الناجح هو الذي يأخذ بعين الاعتبار طبيعة الجمهور المستهدف، باعتباره نظاما متكاملا ومتفاعلا من السمات العامة والسمات الاجتماعية والفردية والسلوكية» (٢)، والمتتبع لبرامج القنوات الفضائية يلاحظ أن أغلب القنوات أصبحت تبث برامج الإعلانات في محتوى البرامج المقدمة، خصوصا البرامج التي يزيد عليها الطلب من قبل الشباب، مثل المباريات الرياضية والأفلام والمسلسلات والأغاني والألعاب والمسابقات الكبيرة وبعض البرامج الحوارية المثيرة على شكل فواصل إعلانية، وهذا ما يجعل حجم المشاهدة لهذه الإعلانات ترتفع مع مرور الأيام، وكلما زاد حجم المشاهدة للبرامج ذات الشهرة الكبيرة ارتفع معه ثمن الزمن المخصص لفترة بث الإعلانات.

مخاطر الإعلانات التلفزيونية على الفرد والمجتمع

إن المتتبع للقنوات الفضائية العربية، يلاحظ بأن حصة الإعلانات التي تبث في العديد منها، تكاد تساوي المدة الزمنية المخصصة لبعض البرامج اليومية، مما يجعل المشاهد مكرها على متابعتها، والتي قد تحمل في أغلبها إيحاءات تتنافى مع قيمنا وعاداتنا وأعرافنا، والمعايير السائدة داخل مجتمعاتنا الإسلامية والعربية، من خلال توظيف المرأة بشكل يثير الانفعالات والشهوات، ويحرك الغرائز الجنسية لدى الجمهور بعرضها بلباس غير محتشم. وهذا ما أكدته العديد من الدراسات العربية التي ترى بأن «الإعلان في القنوات الفضائية العربية والأجنبية يخاطب الغرائز الجنسية، من خلال الرقص والغناء والحركات التي تقدم بها الموديلات داخل الومضات الإعلانية، وما يحققه المنتج من انتعاش وقتي، وسعادة لحظية بمجرد تناول بعض السلع الاستهلاكية، مثل المشروبات الغازية، وهو بذلك لم يركز على المنتج أو قيمته وفائدته، وإنما أعطى صورة أبعد ما تكون عن قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، من الاختلاط بين الجنسين بصورة مستفزة، لم يرض عنها الكثير من أفراد المجتمع العربي والإسلامي» (٣). هذا في ظل غياب المراقبة من قبل السلطات المعنية، أو في ظل سيطرة أصحاب المال والأعمال على مختلف وسائل الإعلام والأسواق التجارية، إذ لا يهمهم سوى الحصول على أرباح كبيرة، من خلال الوصول إلى أكبر عدد من مشاهدين للومضات الإعلانية المقدمة في القنوات الفضائية. أما مراعاة القيم والعادات والتقاليد السائدة داخل المجتمعات العربية والإسلامية بالنسبة لهم، فهي في آخر الاهتمامات أو غير موجودة إطلاقا، مادام الهدف الأسمى هو تحقيق الربح والكسب الكثير، وتحقيق حجم أكبر من المبيعات، حتى ولو كان على حساب منظومتنا القيمية.

وفي ظل تزايد الفترات الإعلانية في القنوات الفضائية العربية، وخصوصا الإعلانات المستوردة من الدول الأجنبية، أصبح شبابنا في ظلها تائها قد يقلد كل ما يشاهده عبر هذه الومضات الإعلانية، والتي على الرغم من قصر المدة الزمنية للومضة الإعلانية التلفزيونية فإن أثرها قد يكون عميقا، خاصة عندما يتكرر عرضها أكثر من مرة، حيث تصبح مطبوعة في

ذهن المتلقي، وهذا ما يؤكده المفكر الجزائري عزي عبدالرحمن قائلا: «إن التأثير يكون إيجابيا إذا كانت محتويات الرسائل الإعلانية وثيقة الصلة بالقيم، وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا، وبالمقابل يكون التأثير سلبيا إذا كانت المحتويات لا تتقيد بأي قيم، أو تتناقض مع القيم، وكلما كان الابتعاد عن القيم أكبر، كان التأثير السلبي أكثر» (٤). وقد يكتسب الشباب من مشاهدته لتلك الإعلانات المختلفة وفي فترات متعددة العديد من السلوكيات والعادات الغريبة عن مجتمعنا، سواء أكانت مفيدة أو مضرة بالنسبة له، وذلك تحت شعار الموضة والتفتح على الآخر، ومواكبة تطورات العصر، وما نشاهده يوميا في واقعنا الحاضر من مظاهر غير اعتيادية في اللباس والأكل والحوار والعلاقات الاجتماعية، خير دليل على التغيرات والتحولات الحاصلة داخل المجتمع الجزائري، والتي قد يكون لبرامج الإعلانات التلفزيونية دور كبير في هذا التغيير السلوكي والقيمي، سواء على مستوى الأسرة أو المجتمع.

لقد جعلت القنوات الفضائية بمختلف برامجها نسبة كبيرة من الشباب العربي يعيش في عالم خيالي، بعيدا عن مجتمعه وأسرته، لا يدرك ماذا يفعل فيه، يفكر دوما في محاولة الوصول إلى هذا العالم المثالي الذي صورته وزرعته وسائل الإعلام والاتصال المختلفة في مخيلته، مما «ولد لدى شبابنا مرض الإحباط والقنوط واليأس من واقعه المعاش، وخصوصا في حالة عدم قدرته على امتلاك ما تسعى القنوات الفضائية العربية لترويجه من خدمات متنوعة، وقد يعود ذلك لظروفه الاجتماعية، والاقتصادية الصعبة التي يتخبط فيها، لأن أغلبيته – الشباب – في هذه المرحلة يكون مرهف الحس، شديد الحساسية، ويتأثر تأثرا بالغا بنقد الآخرين، ويستغرق في أحلام اليقظة، ويحقق عن طريقها ما لم يستطع تحقيقه في الواقع» (٥)، وهذا ما يجعله يشكل صورة نمطية لحياة جديدة، صنعتها برامج الإعلانات الفضائية في مخيلته، وفي حالة عدم قدرته على تحقيق ذلك قد يتصرف تصرفات تسيء لأسرته ومجتمعه وحتى لشخصه.

إن تركيز القنوات الفضائية العربية على الإعلانات كمورد اقتصادي أساسي، يجعلها تهمل المبدأ الذي وجدت من أجله، وهو تلبية رغبات ومتطلبات الشباب، الذي يأمل دوما لمشاهدة برامج وحصص تلفزيونية تعبر عن رغباته وتطلعاته، ولكن في الغالب يجد نفسه يشاهد ومضات إعلانية متنوعة، لا تعبر عن حاجاته الأساسية وطموحاته المستقبلية، أقل ما يقال عنها: إنها ترويج للثقافة الغربية الاستهلاكية القائمة على مبدأ الماديات، لذا «يذهب بعض الشباب لشراء وفعل أشياء لا لزوم لها، تؤدي إلى الانحراف في السلوك، وتضييع الحدود، وتكثر التناقضات في صفوف هذا الجيل الفتي الذي يصبو إلى مجاراة صيحات العصر والموضة، والمبالغة في مجاراتها، ولو على حساب باقي أفراد أسرته، أو على حساب القضايا الأساسية في الحياة» (٦). إن ما تسعى له القنوات الفضائية العربية والأجنبية وغيرها من وسائل الاتصال والإعلام، من خلال برامجها، هو تكوين جيل من الشباب لا يدرك ولا يشعر بما يقوم به من سلوكيات في حياته اليومية، وكأنه مخدر بما يصله يوميا من برامج مسمومة، وذلك من خلال ترويج لإعلانات أجنبية، تقوم على معادلة توضح كيفية نجاح «والت ديزني» و«الماكدونالدز» في غزو الثقافة العالمية التي وضحها «بن يامين بوربار» (Benjamin Borber)» في أن سبب نجاح استعمار والت ديزني للثقافة العالمية يكمن في ظاهرة قديمة قدم الحضارة الإنسانية، وهي المنافسة بين الشاق والسهل، والبطيء والسريع، وبين المعقد والبسيط. فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي، يدعو للإعجاب والإكبار، وكل ثان من هذه الأزواج يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا. إن «ديزني» وماكدونالد» وmtv تروج لما هو سهل وسريع وبسيط» (٧)، وهذا ما يؤدي إلى إحداث زعزعة في قيم الشباب الجزائري والعربي، كما يؤدي ذلك إلى حدوث اضطرابات في سلوكياته وأفكاره من خلال تنازله عن العديد من القيم التي منبعها الثقافة الإسلامية، وتشربه جملة من القيم التي تبث من خلال الفواصل الإعلانية المستوردة، تحت شعار التقدم والعصرنة والموضة – عبر نافذة البث الفضائي المباشر – والتي تروج للعديد من القيم المادية والاستهلاكية، والتي يطبعها الإغراء والإغواء، وإظهار مفاتن النساء، والاختلاط بين النساء والرجال، بالإضافة إلى إظهار الخمور والعلاقات الغرامية والممارسات الجنسية على المباشر، دون حذف بعض المشاهد المثيرة للشهوات، مما يؤدي به إلى الوقوع في المحرمات من خلال المشاهدة المتكررة لتلك المشاهد الإباحية التي تزرع في نفوس الشباب الروح الانهزامية.

يعد تكرار تلك الومضات الإعلانية بشكل كثيف عبر البرامج التلفزيونية خطرا على شبابنا، من حيث إنها «تخاطب قلب الشباب المولع باستخدام كل شيء جديد إذا أمكن له ذلك. فالسيارة الجديدة تستأثر الشاب، وخاصة عند عرضها في الإعلانات، والموضات الحديثة التي تسيطر على تفكير معظم الشباب، لأن للإعلان قوة تأثيرية على هذه المرحلة المهمة من حياة الإنسان – مرحلة الشباب – حيث يحرك الدوافع الكامنة داخله، فيلجأ الشباب إلى تلبية هذه الدوافع عبر السؤال عن موضوع الإعلان أو عن السلعة أو الخدمة المعلن عنها، ثم يذهب ويفكر بالجواب مليا، وعند عدم قدرته على

شراء السلعة، أو الخدمة، يتبادر إلى ذهنه الشراء بالتقسيط أو بقرض من المصرف، وهكذا يصبح مدانا، يسدد كل شهر أقساطا، وتصبح حياته بالتقسيط، ولا يستطيع تحقيق التوازن المالي في حياته، لأن مصاريفه أكثر من دخله، ومن المؤسف أن فئة غير قليلة من الشباب العربي تعيش هذه الحالة السلوكية الاستهلاكية غير الرشيدة (٨)، ويقول في هذا الشأن «ماركوس» في كتابه «التحليل الآتي للاستهلاك»: «إن المستهلكين يرون أنفسهم في السلع التي يستعملونها، حيث يجدون نشوتهم في سياراتهم، وفي حجم وشكل منازلهم، وفي الأجهزة التي يستعملونها. فالميكانيزمات التي تربط الفرد بمجتمعه قد تغيرت» (٩)، فلم يعد الأفراد داخل المجتمع يولون مكانة للصدق والأمانة والصبر. فالإنسان الناجح اليوم يقوم على أساس ما يملكه، وهذه الفكرة أكدها «برمان ماركوس» من خلال الدراسات التي قام بها، حيث توصل إلى أن حياة الأفراد تتميز اليوم بالامتلاك، كما أن بعض الممتلكات لها معان قوية ورمزية» (١٠).

الإعلانات التلفزيونية والشباب

والمقصود أن كثرة الومضات الإعلانية التي تحتوى على مشاهد غير أخلاقية في بعض الفضائيات العربية التي دخلت بيوتنا من دون استشراف منا، تشكل هذه الأخيرة - الومضات الإعلانية التي تحتوى على لقطات خليعة - خطرا كبيرا على قيم شبابنا، ونحن نعاينها دون أن نحرك ساكنا قبلها، بدعوى التحضر والانفتاح والتعرف على ثقافات الآخرين، ومن دون أن نقوم بتوجيه وإرشاد شبابنا فيما يختارونه من أفلام ومسلسلات وأخبار وأفلام كارتونية، تناسب مرحلة نموهم مع مراعاة البيئة التي يعيشون فيها، كما أننا أصبحنا غير مهتمين (بصفتنا أولياء) بالحوار مع أبنائنا في العديد من القضايا التي أصبحت تشكل حاجزا داخل الأسرة الجزائرية، ممنوع الحديث فيها مع الأبناء، مثل العلاقات الجنسية والزواج والعلاقات الغرامية، والصداقة والتعارف والحب وتبادل المعلومات، والغيرة على اللغة العربية، وطريقة اختيار الأصدقاء، واختيار القدوة الصالحة في المجتمع، وطريقة التفكير والحوار، والقناعة في العيش بما نملك من قدرات مادية، تناسب مكانتنا الاجتماعية، كما تجنبنا الإسراف والتبذير وطريقة اللباس والأكل وغيرها من العادات، التي يجب علينا فتح الحوار فيها بشكل مستمر، وهذا ما يدفع بشبابنا خلال مراحل نموهم إلى اللجوء للبث الفضائي وغيره من الوسائل الإعلامية والاتصالية، لمعرفة بعض المسائل التي تعد من الممنوعات، بحكم حب الاطلاع والاستزادة في هذا المجال، وخصوصا في مرحلة المراهقة التي يميل فيها الشاب إلى محاولة اكتشاف ومعرفة العديد من القضايا المرتبطة بشخصيته، ومراحل نموها، وكيفية الظهور، وإثبات وجوده داخل الجماعة التي يعيش معها، ومن أجل إشباع رغباته وحاجاته في هذا المجال الذي كان يصنف بالنسبة له من الممنوعات داخل الأسرة وذلك في ظل غياب دور الأولياء في تلقين أبنائهم لهذه الأمور التي جاء بها الدين الإسلامي، والتي حث على الحديث فيها ومناقشتها، والحوار بخصوصها مع الأبناء، حتى لا تبدو غريبة وجديدة عنهم في الوقت ذاته، مما يدفعهم للبحث عنها في قنوات أخرى تزيف الحقيقة، وتحطم العادات والتقاليد والمبادئ السامية، داخل الأسرة والمجتمع على حد سواء.

إن ما يشاهده الشباب العربي من ومضات إعلانية متنوعة عبر بعض برامج القنوات الفضائية العربية، والتي يغلب عليها طابع الترفيه والتسلية المبالغ فيهما، والإغراء والإغواء من خلال إظهار مفاتن النساء، وظهور النساء مع الرجال في أفلام إعلانية خليعة تروج للممارسات الجنسية، وترويجها للمسابقات من خلال القدرة على دخول عالم الشهرة والنجومية أو الربح السريع، وذلك بالمشاركة في تلك البرامج والتفاعل معها، وفي ظل تزايد بث هذا النوع من البرامج المغرية قد يكون لذلك انعكاس خطير على حياة الشباب، يدفع بالكثير منهم إلى الانفصال التدريجي عن الواقع الذي يعيش فيه، فقد تصور للشباب - الإعلانات التلفزيونية - أن الحياة تجري على أساس النمط الذي يشاهدونه في الأفلام والمسلسلات، وأنها دوما هادئة وملونة، وهذا في حقيقة الأمر عزل اصطناعي للشباب عن واقع الحياة كلها بكل ما فيها.

الهوامش

١- انظر دراسات جزائرية أنجزت في هذا الشأن، مثلا: دراسة، عبدالله بوجلال، (وآخرون): القنوات الفضائية وتأثيرها على القيم الاجتماعية والثقافية والسلوكية لدى الشباب الجزائري، ودراسة أخرى للباحث، محمد الفاتح حمدي: استخدامات الشباب الجزائري لتكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة وانعكاساتها على قيمهم.

٢- شدوان علي شيبة: الإعلان، المدخل والنظرية، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥)، ص: ٢٨ بتصرف.

٣- رجاء الغمراوي: الإعلان التلفزيوني وثقافة الاستهلاك، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط١، ٢٠١١)، ص: ١٤٨بتصرف.

٤- عزي عبد الرحمن: الثقافة وحتمية الاتصال، نظرة قيمية، مجلة المستقبل العربي، السنة٢٦، العدد(٢٩٥)، أوت/سبتمبر، ٢٠٠٣.

٥- محمد مصطفى زيدان: النمو النفسي للطفل والمراهق ونظريات الشخصية، (جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة،١٩٩٠)، ص:٥٣.

٦- مصطفى عبدالقادر: الشباب بين الطموح الإنتاجي والسلوك الاستهلاكي، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤)، ص:٨٤.

٧- محمد شطاح: التلفزيون والطفل، مجلة المعيار، قسنطينة: جامعة الأمير عبدالقادر، العدد (٠٧)، ديسمبر ٢٠٠٣، ص:٩١.

٨- مصطفى عبدالقادر: مرجع سابق، ص: ٨٢ بتصرف.

٩- محمود عودي: «أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، دراسة ميدانية في قرية مصرية»، (القاهرة: سلسلة علم الاجتماع المعاصر، ١٩٨٠)، ص: ١٧٩.

١٠-Berman.Ronald :« Advertising and social chang», sage publications. Beverly Hilles. ١٩٩٢. P ١٢٧.

العدد (٦٠١) رمضان ١٤٣٦ هـ - يوليو - يوليو ٢٠١٥ م

تأسست عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

شهر رمضان بين الواقع والمأمول

- هوى النفس وتحلل المجتمعات
- مقاصد القرآن الكريم وثمرتها
- مخاطر الإعلانات التلفزيونية على القيم
- احتفالية المخطوط العربي تدعو إلى نشر ثقافة التراث

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

هدية العدد: «بوستر الوقف»

info@alwaei.com | www.alwaei.gov.kw | مجلة الوعي الإسلامي

الإسلامُ وحُقوقُ الإنسانِ

أحمد مصطفى
باحث أكاديمي

منذ صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨ وإقراره قانونيا بالعهد الدولي ١٩٦٦م، والغرب يقرن التحضر بمدى التزام الدول بهذه الحقوق، بل ويجعل ترتيبه لرقيها مقرونا بمرتبة التنفيذ حسب أجيال حقوق الإنسان، والتي تبدأ بالحقوق المدنية والسياسية، كالحق في الحياة والجنسية والانتخاب، ثم جيل الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، كحق التعليم والصحة والعمل، حتى تبلور أخيرا ومنذ ١٩٩٢ الجيل الثالث لحقوق الإنسان، وتحديدا مع إعلان ريو للبيئة والتنمية المستدامة، والذي يتحدث عن حقوق الأجيال القادمة في البيئة وثرواتها وحمايتها، بحيث أصبح الحق الإنساني يمتد لمن لم يأتِ بعد (وهو أمر لطالما وجهنا إليه الرسول الكريم ﷺ كتوجيهه لنا بعدم تلويث البيئة وعدم الجور عليها، ولو كنا على نهر، وتنميتها، ولو بزراعة شجرة ونحن على مشارف القيامة)، كما تنامت في إطار هذا الجيل الثالث ما يعرف بحق الاتصال المعرفي، لما يلمس منه من تأثير تنموي سواء للشخصية أو لمقدرات الدول.

والحقيقة أن علاقة الإسلام بحقوق الإنسان ليست حديثة الصلة، أو مقرونة فقط بتوقيت ظهورها، وكما هو معروف فقد كان من المساهمين في صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الدكتور المصري محمود عزمي، والذي وضع أول مادة استنباطا من التعاليم الإسلامية التي ذكرها الفاروق عمر في سواسية الناس، ومنها جاءت المادة ١، التي تقول بنفس مضمون كلام الفاروق «يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلا وضميرا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء» (١).

فالإسلام وحضارته ومنذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، وهو يرتكز على الإنسان بصفته فردا يتمتع بمكانة خاصة عند الله، ولذلك اهتم الدستور الإسلامي عبر القرآن والحديث بالتركيز على حقوق الإنسان بمعناها الحديث، كما في إقراره لمبادئ الحرية والعدالة والتضامن في علاقة الفرد بالدولة والجماعة السياسية، مثلما تضمنته قيم حضارة الإسلام من وضع الفرد غير المسلم في الدولة الإسلامية، حيث كفلت لهم نفس الحقوق التي كفلتها للمسلمين (الحق في الحياة – الحق في مباشرة الشعائر الدينية بحرية – حق التملك – الحق في العمل) (٢).

لذا فليس من الغريب تخطئة الأكاديميين عندما يتم الحديث عن التراكم التاريخي لنضال الشعوب من أجل حقوق الإنسان والذي يجعلون بدايته مع «الماجنا كارتا» ١٢١٥م الموافق ٦١٢ هـ، ووثيقة إعلان الاستقلال الأميركي ١٧٧٦م، وإعلان حقوق الإنسان للثورة الفرنسية ١٧٨٩ – ١٧٩٩، ويغفلون تماما عن ذكر تراثنا الإسلامي في مجال حقوق الإنسان، برغم إقرار الإسلام لأول وثيقة حقوق إنسان عرفها التاريخ، والتي كان للعرب المساهمة في تأسيسها وهي «حلف الفضول» الذي أسس في أواخر القرن السادس الميلادي، في دار عبدالله بن جدعان أحد وجهاء مكة، عندما اجتمع عدد من فضلاء مكة وتعاهدوا

على ألا يتركوا في مكة مظلوما إلا وكانوا معه على ظالمه حتى ترد مظلمته، وحظي هذا الحلف بمباركة الرسول ﷺ الذي قال عنه: «لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت»، ويقول الدكتور قدري عبدالمجيد وهو باحث في مجال حقوق الإنسان: إن هذا الحلف هو أول جمعية لحقوق الإنسان عرفت على وجه الأرض، كما يشير إلى ما وضعته أمتنا الإسلامية عند تأسيسها أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة لوثيقة أخرى بالغة الأهمية تعد أول تشريع في حقوق الإنسان، فيما عرف باسم «صحيفة المدينة» التي أكدت حقوق غير المسلمين وحق المواطنة (٣).

فقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية – إلى جانب براءته من عصبية النسب والأسرة، وبلغ في ذلك مستوى لم تصل إليه «الحضارة» الغربية إلى يومنا هذا، وليس أبسط مثال من الحضارة التي تبيح للضمير الأميركي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء منظما تحت سمع الدول وبصرها، كما تبيح له تلك التفرقة النكدة بين البيض والسود، وتلك الوحشية البشعة التي كانت تبيح لحكومة جنوب إفريقيا العنصرية أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين، وتبيح لحكومات روسيا والصين والهند والحبشة ويوغوسلافيا وغيرها إفناء المسلمين بالجملة! (٤).

وأبسط توضيح لما سبق أن الإسلام سمح للمسلم أن يعطي صدقة الفطر والتطوع للفقير الذمي من أهل بلده، فللمسلم أو الذمي خمس الركاز الذي يعثر عليه في غير ملك لأحد، وللدولة أربعة أخماسه (٥).

بل ومن روح الإسلام أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، ليكون سكونك تفكيرا في الله، ونظرك عبرة وعظة (٦).

أول دستور لحقوق الإنسان

ومن حيث التشريع لحقوق الإنسان، فهنالك اتفاق بين العديد من الباحثين أن شريعة الإسلام هي أول دستور يقر الحقوق الإنسانية على وجه الأرض، وذلك فيما اشتملت عليه من قوانين ومحاسبة للإخلال بحقوق الآخرين عبر مساواة وعدم تمييز على أساس العرق أو اللون أو غير ذلك، فضلا عن إقرار الدستور الإسلامي للمعاملات العادلة وعلاقات الناس بعضهم ببعض، دون استغلال، كما في الربا «ربا المال» بل وما اشتمله أيضا الدستور الإسلامي من نظام الأسرة والمواريث والوصية، لذا فهو أسمى الشرائع جميعا بشهادة أساطين القانون من الأوروبيين، حتى إنه من المعروف أن المشرعين الفرنسيين حينما وضعوا القانون الفرنسي كانوا يستحضرون أمامهم كتب الشريعة الإسلامية؛ يأخذون منها بين الحين والحين ما يطيب لهم من نصوص أو يروق لهم من أحكام، حتى إن المنصفين منهم لا يفتأون يكررون في كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم أن الشريعة الإسلامية هي أم الشرائع وأسماها وأقومها (٧).

ولذلك فشريعة الإسلام هي أول دساتير الأرض التي تستخدم مفهوم حقوق الإنسان بمعناه المعاصر، وذلك قبل ظهوره بنحو ألف عام، ومن ذلك موقفه من حرية العقيدة في وقت لم يكن هنالك أي إمكانية للحديث عنها، وتتضح المعالم الحضارية لسماحة الإسلام في إنه لم يقف من الأديان السماوية السابقة له موقف تحد أو نكران أو جحود، لأنه يقر أنها في أصلها من عند الله الذي أرسل الرسل وأنزل الشرائع السابقة له، فعقيدة الإسلام شقيقة للعقائد السماوية السابقة، وكلها تدعو إلى الخير وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وبذلك جاء الإسلام فاستكمل ما يحتاجه تقدم الزمن من تطور في الفكرة الأزلية، ملائما للزمان الذي نزل فيه والأزمان اللاحقة له، وقد جمعت الآية الكريمة هذه المعاني في (٨) قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

كما يذكر هذا النص الحقوقي المتميز: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦). هذا من حيث الدعوة الموجهة إلى العامة، فإذا ما كان الأمر متعلقا بأهل الكتاب طلب الإسلام من المؤمنين زيادة من التلطف ومزيدا من إظهار المودة وحسن المجادلة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، بل وما شهده المجتمع الإسلامي من تطبيق لهذه الحقوق الإنسانية عبر رسول الإسلام ﷺ والذي وقف لجنازة اليهودي قائلا لصحابته عند تساؤلهم التعجبي «أو ليست نفسا؟!»، كما هي أفعاله صلوات الله وسلامه عليه مع جيرانه اليهود، وتعاليمه ودعواته التي نادى بها وطبقها في حياته، فهو الذي تسامح مع أهل مكة الذين عذبوه وقد دخل مكة فاتحا منتصرا قائلا: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، رغم أن هذا التاريخ وقوانينه كانت تبيح للمنتصر إعمال القتل في المهزوم، ولكن حينما دخل ﷺ مكة، وانتصر على الكفار من قريش عاملهم وفق أسمى مواثيق العالم الحديث في التعامل مع الأسرى، وفيما يسبق اتفاقيات جنيف وغيرها.. بل وتعدى ذلك الصفح عنهم إلى الدعاء لهم قائلا: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

الممارسة المسؤولة للحرية

أما قضية الحرية وهي واحدة من أهم حقوق الإنسان، فالإسلام جاء ليحدث العالم عن الممارسة المسؤولة للحرية وكيفية تحقيقها في وقت لم تكن البشرية قد عرفت قانونا للحرية بعد، ومن ذلك أنه جعل المرء على وعي بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم، لأن لهم نفس الحق الذي يطلبه الإنسان لنفسه، وهذا يعني أن العلاقات الإنسانية بين أفراد البشر هي علاقة موجودات حرة، حيث يتنازل كل منهم عن قدر من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع، وهذا يعني بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا

ساد التعايش السلمي والمحبة بين أفراده، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه (٩).

وقد ورد للدلالة على ما سبق عشرات الأحاديث والآيات القرآنية التي تؤكد ذلك، ومنها ما جاء في قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦). وسبب نزول هذه الآية يبين لنا إلى أي مدى وصل الإسلام في تقديس الحرية، وفي تكريم هذا المعنى، وتأكيد هذا المبدأ، فقد كان الأوس والخزرج في الجاهلية إذا امتنعت المرأة من الحمل فنذرت إذا ولدت ولدا هودته، أي جعلته من يهود، وهكذا نشأ بين الأوس والخزرج هاتين القبيلتين العربيتين بعض أبناء يهود، فلما جاء الإسلام وأكرمهم الله بهذا الدين وأتم عليهم نعمته، أراد بعض الآباء أن يعيدوا أبناءهم إلى الإسلام دينهم، ودين الأمة في ذلك الحين، وأن يخرجوهم من اليهودية، ورغم الظروف التي دخلوا فيها اليهودية، ورغم الحرب التي بين المسلمين وبين اليهود، لم يبح الإسلام إكراه أحد على الخروج من دينه وعلى الدخول في دين آخر، ولو كان هو الإسلام. فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦). في وقت كانت الدولة البيزنطية تقول: إما التنصير وإما القتل. وكان المصلحون الدينيون في فارس يتهمون بأشنع التهم (١٠).

حقوق الآخرين

لطالما أكد الإسلام في أكثر من موقع على حقوق الآخرين الإنسانية وسلامتهم، كما في قول الرسول ﷺ ملخصا معنى المسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (رواه مسلم)، ويدعو في ذلك القرآن الكريم المؤمنين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة: ٢٠٨)، وهذا الفهم الإنساني يأتي من منطلق أن الله خلق البشر من أب واحد، وأم واحدة، وجعلهم إخوة متساوين في الحقوق والواجبات (١١).

فيقول تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ويقول عزوجل: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩). وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ (الشورى: ٤٨)، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٢).

وقد خلق الله الناس مختلفين في عقائدهم وأهدافهم وقدراتهم العقلية، فالذي يريد الناس على الاتفاق في كل شيء مناهض لقضاء الخالق سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ (هود: ١١٨- ١١٩).

حقوق الإنسان

يذكر جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: «إن القوة لم تكن عاملا في نشر القرآن، لأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم، فإنما ذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان للإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى، وقد عامل العرب الفاتحون أهل سورية ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم»، وفي الختام قال جوستاف لوبون: «والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، وذلك بفضل اتباعهم وتمسكهم بتعاليم القرآن».

ويشاطره في ذلك ج.هـ. ويلز في كتابه «مختصر تاريخ الإنسان» مرجعا انتشار الإسلام إلى الإخاء الإنساني، فيعد تلك القيم التي جاء بها المسلمون فتحا جديدا في تاريخ العلاقات الإنسانية قائلا: وثمة عنصر مهم للقوة التي هيأت للإسلام سبل الانتشار، تتجلى في إصرار الإسلام على اعتبار أن المؤمنين إخوة متساوون تماما أمام الله، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم.

ربما نكون قد استعرضنا جوانب سريعة مما تضمنته الحقوق الإنسانية في الإسلام، وهذا ما يأتي على النقيض مما هو معتقد عن مجافاة الإسلام لحقوق الإنسان، جراء الفهم الخاطئ لدى الآخر من قراءة بعين واحدة لأحداث إرهابية لطالما استنكرها علماء الإسلام وأهل الدراية به، ولكن -كما هو معلوم- فإن الفعل أصدق كثيرا من القول، وهو ما يستوجب علينا كأمة إسلامية الكثير من الأمور في تأكيد علاقة القيم الإنسانية بالإسلام، عبر ممارسات مراكز الإسلام في الغرب ومشاركتها في دور الأيتام أو في دعم حقوق المهمشين والضعفاء والإعلان والإعلام عن ذلك ورابطه الإسلامي، فضلا عن ضرورة التوضيح عبر أفلام وثائقية ودرامية موجهة توضح هذه الحقوق الإنسانية الإسلامية، ونماذجها التاريخية المحققة، وهي كثيرة جدا، هذا بجانب ما هو مرجو من قادة الدول نحو تأكيد هذه القيم وإعلائها في المعاملات والمناسبات المختلفة الداعية إليها.

الهوامش

١- مادة ١، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، نيويورك: موقع منظمة الأمم المتحدة، http://www.un.org

٢- مجموعة باحثين «بدون أسماء»، حقوق الإنسان بمصر، دراسات وبحوث، القاهرة: موقع الهيئة العامة للاستعلامات، http://www.sis.gov.eg

٣- قدري علي عبدالمجيد، الإعلام وحقوق الإنسان، قضايا فكرية ودراسات تحليلية وميدانية، جامعة القاهرة، رسالة دكتوراه منشورة، القاهرة، دار الجامعة الجديدة للنشر، ٢٠٠٨م، ص ٦٣.

٤- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، ص ٤٥ – ٤٦.

٥- أحمد محمد الحوفي، سماحة الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص٧٤.

٦- محمد عطية الإبراشي، روح الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣م، ص٤١ –٤٢.

٧- مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ص ٤٥ – ٤٦.

٨- المرجع السابق، ص٤٥ – ٤٦.

٩- محمود حمدي زقزوق، التسامح في الحضارة الإسلامية، (نقل بتصرف)، القاهرة، وزارة الأوقاف، ٢٠٠٤م، ص ٥٠-٥١.

١٠- يوسف القرضاوي، الإسلام والحرية، «فتاوى وأحكام»، قطر، موقع القرضاوي: http://www.qaradawi.net

١١- عبدالله شحاته، النور الجديد، القاهرة، دار أخبار اليوم، ١٩٩٩م، ص٥٤.

ذوو اللسانين

د. أحمد حسين بكر
أستاذ اللغة الفارسية وآدابها

لم يكن انتشار اللغة العربية في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي من قبيل هيمنة لغة الفاتح المتغلب على أبناء الأمة المغلوبة، فقد أقبل الفرس على تعلم اللغة العربية بعد أن دخلوا في دين الله أفواجا، وذلك لإيمانهم بأن تلك اللغة ليست لغة قومية تخص العرب وحدهم، وإنما هي لغة المسلمين جميعا، فهي لغة القرآن الكريم، والإقبال على تعلمها من الدين، فهي أداة العلم ومفتاح التفقه فيه.

وقد عبر الثعالبي (٤٢٩هـ) عن هذه العاطفة في قوله: «من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا ﷺ. ومن أحب الرسول العربي أحب العرب. ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب. ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها» (١).

ولقد ساعد على انتشار اللغة العربية بين الفرس كونها لغة السياسة والإدارة والعلوم الدينية والأدبية والعقلية، وكان ينبغي على من يريد أن يبزغ نجمه في هذه المجالات أن يتعلم لغتها، ولهذا انطلق الفرس في تعلم اللغة العربية وخدمتها، فقد كان على الأديب أن يتعلم العربية وفنونها البلاغية، ويطلع على آثار مشاهيرها قبل أن يشرع في الإبداع بلغته الفارسية أو باللغة العربية.

أما خدمة الفرس للغة العربية فلا يمكن إنكارها، ويكفي أن أشهر الكتب الموضوعة في قواعد تلك اللغة هو كتاب سيبويه (١٨٠هـ).

وهكذا راجت اللغة العربية في بلاد فارس وانتشرت شيئا فشيئا، ولم يكد القرن الثاني الهجري ينتهي حتى كانت العربية هي اللغة الرسمية للبلاد.

وحافظت هذه اللغة على مكانتها الرفيعة حتى بعد انبعاث القومية الفارسية من جديد وعودة الفرس إلى لغتهم الأصلية، فقد ظلت لغة لأهل الفضل والعلم والأدب، يتسامرون بها في مجالسهم ويتبارون في إظهار تمكنهم منها، ومن هنا ظهرت ظاهرة ذوي اللسانين.

و«ذوو اللسانين» مصطلح يطلق في الأدبين العربي والفارسي على أولئك الأدباء الذين كانوا يكتبون باللغتين العربية والفارسية. وهناك مصطلحان آخران يطلقان على هؤلاء الأدباء، وهما: «ذوو البيانين» و«ذوو البلاغتين» (٢).

ويشترط البعض في من يطلق عليه هذا المصطلح أن يكون من أصحاب المقام الأدبي الرفيع في كلتا اللغتين.

ويمكن تقسيم ذوي اللسانين إلى مجموعتين: الشعراء والعلماء.

الشعراء

وتضم مجموعة الشعراء عددا كبيرا من أبرز شعراء إيران على مر العصور، مثل: أبي الفتح البستي (٤٠٠هـ)، ورابعة القزدارية (ق٤هـ)، والنطنزي (٤٩٧هـ)، ومسعود سعد سلمان (٥١٥هـ)، وعمر الخيام (٥١٧هـ)، وسعدي الشيرازي (٦٩١هـ)، وجلال الدين الرومي (٦٧٢هـ)، وركن الدين دعويدار (ق٧هـ)، وحافظ الشيرازي (٧٩١هـ)، ونور الدين الجامي (٨٩٨هـ)، وهاتف الأصفهاني (١١٩٨هـ)، وأديب البيشاوري (١٣٤٩هـ).

ومن هؤلاء الشعراء من يحتوي ديوانه على قسم كامل للأشعار العربية، مثل: سعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي وأديب البيشاوري وركن الدين دعويدار.

ومنهم من تناثرت أشعاره العربية في ثنايا ديوانه الفارسي، مثل: حافظ الشيرازي وهاتف الأصفهاني.

ومنهم من احتفظت لنا كتب الأدب والتراجم بنماذج من أشعاره العربية، مثل: عمر الخيام.

ومنهم من ذكرت كتب التاريخ والأدب أنه كان له ديوان بالعربية إلى جانب ديوانه الفارسي، مثل: أبي الفتح البستي، الذي ذكر عوفي في «لباب الألباب» أنه رأى له ديوانين أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية (٣).

ويعد سعدي الشيرازي واحدا من أشهر الشعراء ذوي اللسانين، فهو ذلك الحكيم الذي درس اللغة والأدب والبلاغة والفقه والحديث والتفسير في المدرسة النظامية في بغداد، وعاش في بلاد العرب سنوات طوالا قبل أن يرجع إلى شيراز.

وللسعدي أشعار عربية كثيرة، نشرت في قسم خاص من أعماله الكاملة. ولعل قصيدته في البكاء على بغداد بعد سقوطها في يد المغول سنة ٦٥٦هـ ومقتل الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ) من أهم أشعاره العربية وأطولها، وهي القصيدة التي يقول في مطلعها:

حبست بجفني المدامع لا تجري
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبري

أما عمر الخيام فهو الشاعر الذي عرفه العرب برباعياته الفارسية الشهيرة التي ترجمت إلى اللغة العربية ترجمات عديدة، ولم يعرفوه شاعرا عربيا على الرغم من أشعاره العربية التي تقبع في بطون الكتب مثل «خريدة القصر» للعماد الأصفهاني، و«تاريخ الحكماء» للقفطي، و«نزهة الأرواح» للشهرزوري، و«الإيضاح» للخطيب القزويني.

ولهذه الأشعار أهمية كبيرة؛ إذ يمكن إلقاء الضوء من خلالها على زوايا جديدة في حياة الخيام، كما أنه يمكن الاستفادة منها في الحكم على

شخصية الخيام التي ذهبت فيها الأقاويل كل مذهب بسبب الرباعيات التي تنسب إليه، إذ كيف يوصف بالإباحة والخلاعة والكفر والإلحاد والزندقة وهو القائل (٤):

أصوم عن الفحشاء جهرا وخفية
عفافا وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عصبة ضلت عن الحق فاهتدت
لطرق الهدى من فيضي المتقاطر
فإن صراطي المستقيم بصائر
نصبن على وادي العمى كالقناطر

لقد دفعت المقارنة بين الأشعار العربية، المقطوع بنسبتها إلى الخيام، مع الرباعيات، المشكوك في نسبة أغلبها إليه، أحد الباحثين إلى القول إن «الدارس لشعره العربي يجده أليق بسمعة الخيام الفيلسوف وشهرته كرياضي. وأحسب أن الخيام في شعره العربي يبدو مسلما شديد الاعتزاز بإسلامه. وأسلوبه في كتاباته العربية عموما يطبعه اللسان العربي، ويظهر به كمفكر إسلامي ملتزم» (٥).

ومن ذوي اللسانين شعراء كانوا ينظمون الشعر بإحدى اللغتين ثم يترجمونه إلى اللغة الأخرى، ومنهم الآغاجي (ق٤هـ) والجاجرمي (٦٩٠هـ).

ومن المؤسف أن نرى أغلب الأشعار العربية التي كتبها ذوو اللسانين يعاني الإهمال والتجاهل من الفرس والعرب على السواء، ولا يجد من يجتهد في جمعه وضبطه وتحقيقه ودراسته، وذلك على الرغم من أن هذه الأشعار تمثل إضافة نوعية مهمة لديوان الشعر العربي؛ لأنها تتميز بما تحتوي عليه من «المتع العقلية والطرف الفنية، التي ربما كانت في بعض النواحي غير مألوفة لدى العقول العربية الخالصة» (٨).

العلماء

أما العلماء من ذوي اللسانين فهم أولئك الذين صنفوا الكتب الأدبية والعلمية باللغتين العربية والفارسية. وتضم هذه المجموعة عددا كبيرا لا يمكن حصره من الأدباء والعلماء الذين كتبوا باللغتين في شتى العلوم الدينية والدنيوية، مثل: ابن سينا (٤٢٨هـ)، وأبي الريحان البيروني (٤٤٠هـ)، والغزالي (٥٠٥هـ)، وعين القضاة الهمذاني (٥٢٥هـ)، ورشيد الدين الوطواط (٥٧٣هـ)، والسهروردي (٥٨٧هـ)، وفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، والزمخشري (٥٣٨هـ)، ونصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ)، والبيضاوي (٦٨٥هـ)، ورشيد الدين فضل الله (ق٨هـ).

وقد أشار ابن خلدون إلى كثرة العلماء العجم الذين أثروا الحضارة الإسلامية بمؤلفاتهم في قوله: «إن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم» (٩).

ومن هؤلاء العلماء من كان يؤلف الكتاب الواحد على نسختين، إحداهما باللغة العربية والأخرى باللغة الفارسية، ومنهم أبوالريحان البيروني صاحب كتاب «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» الذي ألفه سنة ٤٢٠هـ باللغة العربية ثم أعاد كتابته باللغة الفارسية، وهو من أوائل الكتب وأهمها في علم الحساب والهندسة والهيئة والنجوم (١٠).

وسار رشيد الدين فضل الله على درب البيروني في تأليف كتاب «جامع التواريخ». وكذلك فعل شمس الدين بن قيس الرازي في كتابه «المعجم في معايير أشعار العجم» (١١).

كما لخص الإمام الغزالي كتاب إحياء علوم الدين في كتاب باللغة الفارسية أسماه: «كيمياء السعادة».

والحقيقة أن اللغة العربية حظيت بالقدر الأكبر من اهتمام هؤلاء العلماء، فجاء أكثر مؤلفاتهم وأهمها وأشهرها وأكثرها قيمة بهذه اللغة، فقد كانت لغة العلم في العالم الإسلامي كله، حتى إن البعض منهم كان يهتم بذكر الدافع إلى تأليفه بالفارسية، وكأنه يرفع عن نفسه الحرج لإقدامه على ترك العربية ويقطع الطريق على منتقديه، وكان البعض الآخر يعتذر صراحة في مقدمة كتبه الفارسية عن تأليفه الكتاب بهذه اللغة (١٢).

وفي النهاية، سيظل ديواننا العربي ناقصا، وسيحرم القارئ العربي من الاستمتاع بأشعار تتميز بنكهتها الخاصة ما لم نهب لإنقاذ تراثنا الشعري المتمثل في ما تبقى من أشعار نظمها أناس عشقوا العربية، وأبدعوا بها في بيئاتهم الأعجمية.

وسيظل جزء من تاريخنا العلمي، المتمثل في المؤلفات الفارسية للأدباء والعلماء ذوي اللسانين، الذين لا نعرف لهم في عالمنا العربي غير مؤلفاتهم العربية، مجهولا بالنسبة إلينا، وهو ما يدفعنا إلى المناداة بالاهتمام بترجمة هذه المؤلفات إلى لغتنا ودراستها.

الهوامش

(١) أبومنصور عبدالملك الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٢٩.

(٢) قاسم تويسركاني، تنى چند از سخنوران ذولسانين، مجلة الدراسات الأدبية، العدد ١، السنة الرابعة، ١٩٦٢م، ص٦٧.

(٣) محمد عوفي، لباب الألباب، ج١، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦م، ص٦٤.

(٤) محمد بن محمود الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، مركز التراث القومي والمخطوطات، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٥٣٦.

(٥) عبدالمنعم الحفني، عمر الخيام والرباعيات، القاهرة، دار الرشيد، ١٩٩٢م، ص١٧٦.

(٦) علي بن الحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج٢، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣م، ص١٣٢٥.

(٧) محمد عوفي، لباب الألباب، ج٢، ص١٧.

(٨) إبراهيم أمين الشواربي، العربية في إيران، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد الأول، مايو ١٩٥١م، ص٤٨.

(٩) عبدالرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٢، دمشق، دار يعرب، ٢٠٠٢م، ص٣٦١.

(١٠) ذبيح الله صفا، تاريخ أدبيات در ايران، ج١، تهران، انتشارات فردوس، ١٣٦٩هـ.ش، ص٦٢٩.

(١١) الشواربي، العربية في إيران، ص٤٦.

(١٢) قاسم تويسركاني، تنى چند از سخنوران ذولسانين، ص٦٥.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٤)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

تعد اللغة من الثغور الأساسية التي تسعى الأمم القوية إلى التسلل من خلالها خلسة للتأثير على الأمم المغلوبة، لذا فمن حرس هذا الثغر أمن المكائد كلها، ومن أهمله كانت عاقبة أمره مع توالي الأجدان خسرا؛ ذلك أن ألفاظ اللغة اليوم تشبه حركات الناس، فهي تتنقل وتسافر من البلدان المتقدمة الغالبة إلى بلدان الجنوب المتأخرة المغلوبة، وفي أثناء هجرتها، التي تكون من ورائها غايات خفية، تدخل في اقتتال وتزاحم وتصارع خفي، إلى أن تجعل الآذان تختلسها من غير إذن، والألسن تلهج بها راضية مرضية؛ لأن نار جدتها وسهولتها قد أضاءت واشتعلت مثل النهار إذا متع وارتفع، وعندما تتحقق من أن الحاجة إليها أصبحت من ضرورات الحياة؛ تشرع في مزاحمة كلمات اللغة المغلوبة شيئا فشيئا حتى تزويها في حدود جد ضيقة، تقتصر على العادات والتقاليد والعبادات، لتتولى اللغة الأجنبية العربدة في مجالات العلم والمعرفة والاقتصاد والتقنية. هذا هو واقع الصراع اللغوي بين الأمم الناهضة بلغتها، والأمم التي تقتعد الذيل في النهوض بشؤونها، فماذا أعددنا نحن - العرب - في هذا الشأن؟ وهل مكنتنا حصافتنا من جعل تجارب أسلافنا مرايا لنا نهتدي بها لاستيعاب محورية التعريب في النهوض ببلداننا العربية؟

ذلك أن الدواوين في العراق، إلى عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، كان يقوم عليها كتاب الفرس، وكانوا يكتبونها بالفارسية، وعندما ولي الحجاج العراق قال الكاتب صالح بن عبدالرحمن، الذي كان من سبي سجستان، لكاتب ديوان الحساب زاذان فروخ: «إن الأمير سيقدمني عليك، ولا أحب ذلك! فقال: إن الأمير لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري! فقال صالح: إن أمرني بنقل الديوان إلى العربية فعلت! فقال له: فانقل بين يدي شيئا منه! ففعل. فقال زاذان فروخ لكتاب الفرس: التمسوا مكسبا فقد ذهب مكسبكم. ثم نقل صالح الدواوين إلى العربية» (١). وبذلك بدأت حركة التعريب، وبدأ العرب يتحررون من الهيمنة الفارسية على الإدارة. أما طرق التعريب المعتمدة لحظتئذ، فيمكن إجمالها في ما يأتي:

١- إبدال أحرف الكلمة بعضها من بعض، مثل لفظة «كورب» الفارسية التي عربت هكذا: «جورب»، ولفظة «كومل» التي أصبحت: «جمل»، ولفظة «لشكر» التي عربت هكذا: «عسكر»، و«شراويل» التي عربت بتغيير حرف الشين هكذا: «سراويل».

٢- نقصان حرف أو أكثر من الكلمة الأجنبية مثل Kêtos التي عربت بلفظة: «حوت».

٣- تغيير حركة أحد الأحرف مثل: «دَستور» بفتح الدال التي عربت بضم الدال «دُستور».

٤- زيادة حرف على الكلمة الأعجمية مثل: «ديبا» الفارسية التي عربت بزيادة حرف الجيم: «ديباج».

٥- تغيير وزن الكلمة إلى وزن عربي مثل ألفاظ: «سندس» و«درهم» و«قسطاس» و«جهنم».

وعلى الجملة، فإن المعرب يعرف بعلامات مثل: البداية بحرفي: «نر»، مثل: نرجس. أو أن يكون بعد حرف الدال حرف الزاي، مثل:«مهندز» التي غير «زايها» بحرف السين: «مهندس»، أو خلو الكلمة الرباعية والخماسية من أحرف الذلاقة وهي: «الراء والميم والباء والنون والفاء واللام»، ومنها اجتماع «الجيم والراء» في الكلمة مثل: «آجر»، و«القاف والطاء» مثل: «قسطاس وقرطاس»، و«الصاد والجيم» مثل: «صولجان»، و«الكاف والجيم» مثل: «سكرجة»... وغيرها من الكلمات الطويلة الذيل. تلك هي السبيل اللاحبة التي سلكها الأوائل في تعريب دنيا العرب. وقد أبانت اللغة العربية عن طواعية نادرة في قبول كل ما يفد إليها من الثقافات الأخر، لم تعجز عن إدماج الكلمات الأعجمية وتطويعها حتى تنسجم مع أخواتها العروبيات؛ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا على شاكلة الكلمات اليونانية الأصل الآتية: «أسطول، دكان، إقليم، إسفنج، زبرجد، طاوس، فانوس، قصدير، قلم، نافورة، قانون، بقدونس، بطاقة، إبليس، أخطبوط...». ولئن نجحت جهود التعريب الآنفة حتى أصبحت العربية الفصحى لغة مانحة للعلم والمعرفة يوم جدتها في عهد العباسيين، فإن وضعية التعريب اليوم أصبح يلفها غموض كثيف، وتشتت مريب، وضياع للجهود مخيف، رغم أن المجمعات اللغوية المنتشرة في أرجاء الوطن العربي تجري خيولها المبرزة في ميدان التعريب بالبيان الوافي، إلا أن جهودها لا تبرح مقراتها التي تصدر

منها، ومن ثمة تصبح مسوداتها مجرد أوراق ملوثة بالحبر، وآية ذلك قائمة المعجمات الطويلة الذيل التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب بالرباط عن كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية والعلمية والتقنية والاقتصادية والسياحية والفلاحية والتواصلية، من دون أن يظهر في الأفق أن هناك اتجاها في هذه الدولة أو تلك لفرضها على مؤسساتها، انطلاقا من كونها ثمرة جهود النخبة المقتدرين المتخصصين في مجالات اللغة والعلم والمعرفة، وما ذلك إلا من عصا الفرقة التي ألقتها دول العولمة الماحقة بيننا لإبقائنا مغانم تطرد بواسطتها مغارمها الاقتصادية والاجتماعية. هذا هو السر في أننا لا نزال نبحث عن الإجابة الشافية الوافية لأسئلة النهضة التي سبق الحسم فيها منذ ستينيات القرن الماضي، على شاكلة سؤال: هل نعرب أو نترجم؟ الذي أشبعه الأوائل بحثا كما يثبت هذا الجواب الذي أدلى به العقاد عام ١٩٦٠م، حيث يقول: «نحسب أن بداهة اللغة العربية من قديمها إلى حديثها تملي علينا جواب هذا السؤال: هل نترجم أو نعرب أو نكتفي بما عندنا فلا ترجمة ولا تعريب؟ وجواب اللغة بلسان بداهتها الأصيلة أن المعاني تترجم، وأن الأعلام وما هو من قبيلها تعرب، وأن التعريب ضرورة ملازمة، قد لازمت اللغة العربية منذ نشأتها، ولا خوف عليها منه في حدوده الصالحة، لأن البنية الحية هي التي تستطيع أن تلحق بتركيبها المتين كل غذاء مفيد» (٢). لأن التعريب المفيد الشامل هو السراج الذي يطفئ عن بلداننا العربية ظلمة التأخر عن التحكم في العلم والمعرفة باللغة العربية لأجل تحقيق التنمية المرتجاة، ويمنح للثقافة العربية فرصة الذيوع والانتشار، من خلال انتشار بضائعها ومنتجاتها ومخترعاتها باللغة العربية، وعندئذ لا يمكن أن نقبل أن نستعمل لسانا غير لساننا العربي المبين، ولا أن تنوب عنا لغة أخرى في الإعلان والإشهار لبضاعة من منتجاتنا العربية. بمثل هذه الثورة الثقافية الشاملة يمكن أن يحدث التعريب ثورة في طرائق تفكيرنا، فيغدو المشروع العروبي مشروعا مجتمعيا يطيح بسياسة التوازنات اللغوية السائدة في بلدان المغرب العربي لأجل المحافظة على سراب السلم الاجتماعي بين العرب والأمازيغ، ومن ثمة إظهار النية الصادقة لتقوية أدوار العربية الفصحى في اصطناع المعارف العلمية الحقة، انطلاقا من اتباع خطة منهجية علمية في الصناعة الاصطلاحية «تقوم على مبادئ علمية موحدة، وترتكز على أسس موضوعية مشتركة؛ الدافع إليها الرغبة في التقليل من التباينات الملحوظة في الاصطلاحات بين البلدان العربية؛ ولاسيما بين البلدان التي تستعمل الفرنسية، والأخرى التي تستعمل الإنجليزية» (٣) لغة ثانية في أثناء اتصالها وتواصلها مع أبنائها في الداخل، ومع غيرها في الخارج. ولا سبيل إلى إدراك هذه البغية إلا باعتماد قرارات سياسية ملزمة تستنفر أصحاب التخصص لاقتحام دنيا المعرفة؛ لأجل الكشف والتشخيص والتصحيح برؤية علمية ثاقبة تمزج الأقوال بالأفعال، وتطرد عن ساحتنا العربية الاستعانة بالاصطلاحات الأجنبية التي نكتفي بإلباسها الأصوات العربية، سواء صادف ذلك مصلحة أو لم يصادفها؛ على شاكلة هذه الاصطلاحات التي عربناها بالمحافظة على أصواتها الأجنبية، اعتقادا منا أن مقابلها العربي معدوم، مثل:

- البيداغوجيا، والتي يعد اصطلاح: «اللقانة» أحسن منه أثاثا ورئيا.
- الأرشيف، مع العلم أن اصطلاح: «الربيدة» ألطف مرآة. - السيكولوجي، الذي يبدو اصطلاح: «النفسي» أتم منه وأحكم وأسهل في النطق.
- الديكور، بدل إشاعتنا للفظة القرآنية المشعة: «الزخرف».
- الروبرتاج، بدل اكتفائنا باللفظة العربية الأنيقة: «التحقيق» أو «الاستطلاع».

تأسيسا على ما سبق، يتضح بجلاء أن التعريب المأمول في الوطن العربي يجب ألا يترك فقط لجهود الآحاد، مهما بلغوا في العلم بأسرار العربية قرن الكلأ، ولكن يجب أن يتولى أمره هيئات علمية مكونة من مختلف التخصصات، ومخول لها، بقوة القانون، إصدار نشرات دورية إلى كافة البلدان العربية، تلزمها باستعمال تلك الاصطلاحات في المجالات التي تقتضيها، بدل ترك الألفاظ الأجنبية تعيث فسادا في لغتنا وفي طرائق تفكيرنا، التي لا يمكن لها أن تستقيم من دون التعلم باللغة العربية الفصحى، ولاسيما أن عربيتنا تبدي طواعية غير محدودة في اشتقاق اصطلاحات جديدة عربية المحتد؛ اعتمادا على نقل الدلالة من المجال الأصلي الذي استعملت فيه الكلمة، إلى مجال آخر كما هو الشأن بالنسبة إلى الاصطلاح الآتي: «المذمرة» بدل Echographie الذي نقلته من لفظة «التذمير»، التي تعني العملية التي يقوم بها «المذمر» لمعرفة جنس الجنين في رحم الناقة.

الهوامش

(١) البيان والتبيين. أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ. تحقيق وشرح: حسن السندوبي. الجزء ٣. هامش الصفحة ٣٤. ط٤. ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م. دار الفكر. لبنان.

(٢) نعرب أو نترجم؟. عباس محمود العقاد. مجلة القافلة. عدد ١٩٦٠م. وقد أعادت المجلة نفسها نشر هذا المقال في العدد الثالث. المجلد ٦٣. ص ٧٣. مايو/يونيو ٢٠١٤م. السعودية.

(٣) اللغة وبناء الذات. عبدالله أيت الأعشير وعبدالرحمن بودراع وأحمد شوقي الخطيب. كتاب الأمة عدد ١٠١. ص ١٦٨. جمادى الأولى١٤٢٥هـ / يونيو- يوليوز٢٠٠٤م. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر.

في دورته الحادية والثمانين بالقاهرة

عولمة اللغة العربية.. في مؤتمر الخالدين

القاهرة :
دار الإعلام العربية

هيمنت قضية الخروج باللغة العربية من مجرد لغة تواصل بين أبنائها إلى جعلها أداة لصناعة المعرفة، ليس على نطاق محلي فقط بل إلى أفق عالمي لا محدود، على فعاليات المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الحادية والثمانين، التي عقدت تحت عنوان «اللغة العربية وعالم المعرفة». وتباينت الطروحات في هذا الصدد بين المطالبة بالاستثمار البشري، من خلال إحياء اللغة العربية لدى أبنائها أولا، ومن ثم امتلاكهم القدرة على الإنتاج المعرفي، وكذا توظيف الموارد التي يمتلكها العرب كالنفط لتكون أداة لعولمة لغة الضاد، وفرض التعامل بها استثماريا وسياحيا، كما هي الحال في اللغة الإنجليزية.

«الوعي الإسلامي» شاركت في الحدث وجاءتكم بأبرز مناقشاته.

«التخطيط اللغوي والتنمية اللغوية – قضايا الترجمة والتعريب – اللغة العربية في وسائل الاتصال الإلكتروني – مقترحات عملية للتقريب بين المجامع العربية في موضوعات: المصطلح العلمي، الأرقام، كتابة الحروف، الرسم الإملائي، أسماء الشهور».. كانت هذه أبرز المحاور التي ناقشها المؤتمر على مدى أسبوعين واختتم في السادس من أبريل ٢٠١٥. ومن الملاحظ في غالبية الأبحاث أنها ركزت على تعزيز المعرفة، وجعل اللغة العربية قاسما أساسيا فيها، ومن ثم الانطلاق بها إلى آفاق المنافسة والندية عالميا من خلال اتخاذ خطوات عملية لبسط نفوذ لغة الضاد في كل شؤون الحياة بالمجتمعات العربية. ففي بحث «المجامع اللغوية العربية بين وسيطين: الورقي والرقمي»، للدكتور محمد حسين علي زعين، عضو المجمع، المراسل من العراق، قال إن الذي يؤرخ للحضارة الإنسانية يقف على ثلاث وسائط لنقل اللغة، كان الطين أول شاهد على أنه الوسيط الحاضن لشتى أنواع المعرفة، ثم كان

الورق شاهدا على مرحلة من مراحل الإنسانية يضم على أسطره ما شاء الإنسان أن يحفظه من علوم وفنون، حتى إذا كان عصرنا كانت الشاشة فيه شاهدة على تواصل إنساني كوني، إنه عصر الإلكترون، عصر بزغ فيه الحاسوب الآلي وسيطا يضم مجاميع بشرية مختلفة الحاجات والاتجاهات والخلفيات المعرفية واللغوية، وسرعان ما استثمر الإنسان هذه الطاقة حتى أصبح العالم قرية واحدة.

مجامع إلكترونية

وأضاف د. زعين: إننا نعيش في عصر ثورة المعلوماتية، تلك الثورة التي انضم إليها مختلف الأنشطة والفعاليات، لتوجد لنفسها في ذلك الفضاء موضع قدم يجعلها على مقربة من متناول اليد، ويجعلها جزءا من القرية العالمية.

ومن خلال بحثه خرج بنتائج ومقترحات، أهمها أن الوسيط الإلكتروني أو الرقمي لا يمثل اليوم ترفا فكريا أو علميا، بل حاجة ملحة تقتضيها متطلبات العصر الحديث وما وصلت إليه الثورة المعلوماتية في العالم، حيث إن العالم اليوم قائم على استثمار هذا الوسيط لإيصال نتاجاته ومعارفه إلى كل بقاع الكرة الأرضية. وفي مجال اللغة، نجد أن المحتوى الرقمي للغة العربية يكاد يكون ضئيلا، مقارنة باللغات الأجنبية التي استطاعت أن تحتل مساحة واسعة من هذا المحتوى. ومن ثم، شدد على ضرورة قيام المجامع والمؤسسات اللغوية العربية بتفعيل مواقعها الإلكترونية وتنشيطها على الشبكة العالمية، وزيادة الاهتمام بها، ورفدها بكل جديد في الدرس اللغوي، مع جعلها نافذة للباحثين يطلعون من خلالها على الأبحاث والدراسات والقرارات التي تصدر عنها.

وتطرق إلى نشأة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، حيث أوضح أنه يعد من المجامع اللغوية العربية التي أنشئت حديثا، إذ أسس في ٦ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، الموافق ٢٩ يناير ٢٠١٢م، في مدينة مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، ويعد أول مجمع تفاعلي على الشبكة العالمية. ويعلل القائمون عليه سبب إنشائه متخذين من الوسيط الرقمي منطلقا لعملهم، بأن الشبكة العالمية لما كانت اليوم هي الوسيلة الكبرى والدائرة الأوسع وكان الوصول إليها أيسر، عزم القائمون على هذا المجمع على تأسيسه ليكون مرقبا يجمع صفوة من العربية ونقبائها، ومرصدا لحراسها ورقبائها. وكذا، تصحيح الأخطاء الشائعة، وتيسير تعلم العربية وتعليمها وتقريبها، وتشجيع الدارسين، وإحياء التراث العلمي، والعناية باللهجات العامية في الجزيرة العربية، لاسيما في المملكة العربية السعودية.

حوسبة العربية

في الاتجاه ذاته، أعد الدكتور عبدالعزيز عبدالله تركي السبعي، رئيس مجلس أمناء المنظمة العالمية للنهوض باللغة العربية، عضو مجمع اللغة العربية، المراسل من الدوحة، بحثا بعنوان «اللغة العربية في وسائل الاتصال الإلكتروني»، أشار خلاله إلى أن مسيرة اللغة العربية في العصر الحديث تنبئ بأنها آخذة في الازدياد والتطور والانتشار، ولفت إلى أن معهد حوسبة اللغة العربية في دولة قطر يعد نموذجا متميزا، ويقوم على مهام ومسؤوليات جليلة في خدمة اللغة العربية، حيث أجرى العديد من الأبحاث والدراسات والتطبيقات في مجال حوسبة اللغة العربية، منها: تقسيم الكلام الآلي بإثبات جدوى استخدامات مقسم الكلام الصرفي لزيادة قدرة تكيف الاختلافات باللغة العربية، علاوة على استخدام خدمة «تويتر» لتأسيس مدونة عربية متعددة اللهجات، وإمكانية تحديد التعرف على لهجة الكلمات العربية المستخدمة على موقع التواصل الاجتماعي «تويتر» من خلال جدول كلمات معلومة من كل لهجة، واستخدام نماذج التوسيم لتحسين نتائج أجزاء الكلام للغة العربية، والتعرف على الأرقام والتذكير والتأنيث من خلال إجراء البحوث والدراسات لتقديم نظام آلي متكامل لمعالجة العربية.

كما تطرق إلى أهداف المنظمة العالمية للنهوض باللغة العربية، حيث تعمل على تأصيل عملية التعليم من خلال: أداء المعلم والطالب والمناهج، وضع التوجه الإعلامي بأشكاله كافة ليصبح أقرب ما يكون إلى اللغة العربية الفصيحة المعاصرة، القيام بالبحوث وتطويرها في مجال اللغة العربية واستخدام التقنيات الحديثة في ذلك، دعم جهود الترجمة من وإلى العربية وتعريب المصطلحات العلمية والتقنية.

بسط التعامل بها

وخلال بحثه، أوصى الدكتور عودة خليل أبوعودة، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، جامعة الدول العربية بأن تعمل من خلال الخطط، التي تقوم عليها برامج مؤسساتها التربوية والتعليمية، على الاهتمام باللغة العربية، وتعزيز الإيمان بأهمية التمسك بها، والسعي الجاد إلى بسط التعامل بها، قراءة وكتابة وتعبيرا، في مجالات الحياة كلها، إضافة إلى إنشاء وكالة أنباء عالمية كبرى تتبع جامعة الدول العربية، تتبنى نشر الأخبار وترجمتها من اللغة العربية وإليها، ضمن خطط منظمة تبين الاعتزاز باللغة وتمسك الأمة بها تمسكا عقديا غريزيا حتى يصبح كل فرد مدافعا عن اللغة حيثما كان.

صناعة المعرفة

وقال الدكتور عبدالفتاح الحجمري، مدير مكتب تنسيق التعريب في المغرب لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، في بحثه عن جدوى التخطيط اللغوي اليوم، إن اللغة

ليست أداة تواصل فقط، بل أيضا هي أداة قادرة على إنتاج المعرفة.

وأشار إلى أن الوضعية اللغوية في العالم العربي تتصف بجملة محددات تسمح بتواجد ازدواجية لغوية بين لغة عربية فصيحة رسمية بموجب اختيار حضاري موحد تبنته الأمة العربية منذ مجيء الإسلام وقيدته في دساتيرها، وأخرى عامية ينحصر استعمالها في الحياة العامة.

وأكد أن اللغة العربية توجد اليوم في صلب معركتنا الحضارية بكل أبعادها، الاجتماعية والثقافية والسياسية، لأنها من مقومات وجودنا وهويتنا وركيزة انتسابنا إلى العصر الحديث، وقد أضحى قرية واحدة وصغيرة تتداخل فيها اللغات والثقافات.

كما أشار إلى أن امتلاك رصيد لغوي موحد وتنسيق الجهود البحثية وتوفير شبكة عربية للمصطلحات وإنشاء مجمعية حاسوبية محيَّنة، هي اليوم إجراءات كفيلة لمواجهة صعوبات تدفق المعلومات، كما أنها تسمح للغة العربية بإقامة تفاعل نقدي مع المعرفة في مختلف مجالات البحث العلمي والاجتماعي والتقني.

وفي بحثه «السياسة اللغوية وتنمية اللغة العربية»، قال الدكتور علي القاسمي، إن السياسة اللغوية هي خطة علمية لتنظيم الشأن اللغوي، وتتولى الدولة عادة التخطيط اللغوي في البلاد لتحديد: وظائف اللغات الوطنية والأجنبية، مجالات استعمالها، العلاقات بينها، طرق تنميتها أو محاصرتها والقضاء عليها.

ومن الجائز أن تمارس التخطيط اللغوي السلطة المحلية في الولاية أو المقاطعة، كما يمكن أن تكون لكل منظمة دولية أو مؤسسة علمية سياستها اللغوية، مشيرا إلى أنها لا تتوقف عند وضعها والإعلان عنها، بل تحتاج إلى نقلها من مرحلة التفكير والتخطيط إلى مرحلة الفعل والتطبيق.

ولفت إلى أن السياسة اللغوية، كبقية السياسات، التعليمية والصحية والاقتصادية، تحتاج إلى إرادة مخلصة، وتخطيط علمي قويم، وتنفيذ حازم أمين، بل هي أهم السياسات جميعا؛ لأنها الأساس والمنطلق في التنمية البشرية بعد أساس العدالة الاجتماعية.

وأكد أن السياسة اللغوية الرشيدة تعمل على تنمية اللغة المشتركة وتعميمها في الحياة العامة، وفي التعليم في جميع مجالاته وتخصصاته، والإعلام، والمؤسسات الاقتصادية والمالية، وإنشاء المدونات النصية المختلفة دعما للبحث اللغوي، وتنمية وجودها، وتشجيع الترجمة من اللغات العالمية إليها وبالعكس، وتطوير طرق تدريسها، وتيسير نحوها وكتابتها.

فرض اللغة

في السياق ذاته، طالب محمود أحمد السيد، عضو المجمع، المراسل من سوريا، بفرض اللغة في مجالات التعامل والخدمات وتعريب العلوم، مؤكدا أن ذلك من شأنه أن يدفع بجهود نمو وتمكين اللغة لتخرج من إطار لغة التواصل فقط، إلى آفاق أوسع، كصناعة المعرفة وتداولها على نطاق عالمي، ويتطلب ذلك إرادة قوية من الدول العربية، خصوصا المصدرة للنفط، بأن تكون معاملاتها، داخليا وخارجيا، قائمة على اللغة العربية، ومن ثم دفع شتى دول العالم لإتقانها واعتمادها لغة رسمية، ليس على سبيل التخاطب فقط، بل في الاستثمار أيضا.

وذهب أيضا إلى إمكانية فرض اللغة شرطا أساسيا على العمالة الوافدة إلى الدول العربية، خصوصا من البلدان الإسلامية غير المتحدثة باللغة العربية، كذلك فرض تعريب الوثائق ومطبوعات السفر والخدمات البنكية والبريدية والمراسلات الإلكترونية على القادمين إلى البلاد العربية والخدمات في المواقع السياحية والفنادق. وطالب أيضا بضرورة دعم السياحة الثقافية بإبراز الآثار العربية، خصوصا المحلات منها، بالحرف العربي، وكذلك المخطوطات، واستثمار جمالية الخط وتوظيفها في الرسم والعمران والمنسوجات والنقش والمنحوتات، وفي القلب من ذلك كله الاستثمار البشري بإعداد جيل قوي منتج، يعتز بلغته، ويحرص على نقلها، بل وفرض التعامل بها، فكما أن المواطن العربي يتم إجباره على التعامل بلغة البلد الأجنبي الذي يذهب إليه حتى إن لم يكن يجيدها، ومن ثم يسعى إلى تعلمها، فبالمثل ينبغي إلزام الوافد الأجنبي إلى البلدان الناطقة بالعربية بأن يتعلم الحديث بلغة أهلها.

أرقامنا بين الهند والعرب

وفي سياق متصل، حظيت الأرقام العربية بنصيب كبير من الاهتمام أيضا، وقدمت الوفود العديد من البحوث، كان أبرزها «الأرقام الحسابية بين الهند والعرب»، والذي أعده الدكتور أحمد بن سعود السيابي، عضو المجمع، المراسل من سلطنة عمان. وعن سبب إثارة الموضوع في هذا العصر، أشار إلى أن الأقطار العربية والإسلامية شهدت في القرن التاسع عشر الميلادي زحفا أوروبيا متمثلا في المستعمرين الأوروبيين لبلادها، إما على شكل حكم مباشر، وإما على شكل حماية. وقد صحب الغزو العسكري في ذلك الاستعمار غزو ثقافي لا يقل خطورة عن الغزو العسكري، وربما أشد منه. ولفت إلى أن المعركة بين الأرقام الغربية والشرقية مستمرة، ولا أحد يدري إلى أي منها يكون الظفر ويتحقق النصر.

وتحت عنوان «استبدال الأرقام المغربية بالمشرقية»، قال: تعلو الصيحات وترتفع الدعوات إلى استعمال الأرقام المغربية بدلا من الأرقام المشرقية،

كبار النقاد والأدباء في المؤتمر

على اعتبار أن المغربية هي الأرقام العربية أما المشرقية فهي الهندية، وليس ذلك، حسب رأيي، من قبيل التعاطف مع المغرب العربي أو تقليده، وإنما ذلك من باب الرغبة في اتباع الغرب وتقليده، لتنطبق علينا النظرية الخلدونية حول ولع المغلوب باتباع الغالب وتقليده.

وأضاف: على أن استعمال الأرقام المشرقية كان هو السائد في المغرب العربي الإسلامي، لاسيما المغربين الأدنى والأوسط (ليبيا، تونس والجزائر)، ولعل استعمال الأرقام المغربية كان منحصرا في بعض أقاليم المغرب الأقصى المتمثلة في المملكة المغربية، وذلك قبل عصر الاستعمار الغربي على المغارب الثلاثة، بل كانت هنالك دعوة جيدة إلى استعمال الأرقام المشرقية في بعض الأقطار المغربية أو المغاربية بعد الاستقلال، فقد ذكر الدكتور أحمد مطلوب عددا من المؤلفات والمجلات والصحف التي أخذ أصحابها يؤرخونها بالأرقام المشرقية، حتى إن الجزائر كتبت على عملتها النقدية الأرقام المشرقية.

وفي خاتمة البحث، أوضح أن الدعوة إلى استبدال الأرقام المغربية عن الأرقام المشرقية فيها جناية على تراثنا العربي الإسلامي العظيم، هذا التراث الضخم الذي كتبت أعداده وتواريخه بالأرقام المشرقية، وفي ذلك إهمال للذاكرة العربية وتنكر لها.

وفي بحثه عن «أصالة الأرقام والشهور العربية»، قال الدكتور أحمد مطلوب، رئيس المجمع العلمي في بغداد، إنه لم تشهد لغة هدما كما شهدته اللغة العربية، حيث إنها منذ أن بسطت جناحيها على مشارق الأرض ومغاربها تتعرض للانتقاص، لاسيما في القرن العشرين، على الرغم من أن القرآن نزل بها، وألفت بها الكتب، ودرس بها ونظم بها أروع الشعر وأعذبه، واتسعت للتعبير عما في النفوس من رغبات.

وشدد على أن التمسك بصورة الأرقام «١، ٢، ٣...»، والأخذ بأسماء الشهور «كانون الثاني، شباط، ...» سبيل إلى ترسيخ هوية الأمة العربية التي تواجه التحديات، وما يحاك من دسائس وفتن، وما يبرم من أحابيل لتذوب في بحر العولمة، ومعلم من معالم وحدة العرب وهم يغذون الخطى نحو عالم جديد.

إحساس بالذنب!

وكان رئيس مجمع اللغة العربية، الدكتور حسن الشافعي، قال في كلمته الافتتاحية للمؤتمر: إن العلم والمعرفة يرتبطان، منذ البداية، بالحرف والكلمة والأسماء واللغة والإفصاح والبيان، ولم تكتمل دائرة الخلق ومناط الحكمة من الوجود إلا بخلق الإنسان، حيث يقول الله تعالى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن:١-٤). واستطرد أن رجال المجامع اللغوية يواجهون تحديات كبرى، ويتحملون مسؤوليات ثقال، مؤكدا: ومع ذلك، نحاول ألا نفقد صفاء العقل وثبات الروع في مواجهتها، وقد يلاحظ المتابع لأحوال الشعوب والأقطار العربية على ما تعانيه من شدائد وأخطار مصيرية أنها أدركت تقصيرها في حق لغتها الشريفة، وتركت العابثين يهينونها في عقر دارها، فبدأت حركة من الحنين والإحساس بالذنب في حق لغتنا وحضارتنا، بل قل: وجودنا وهويتنا وبقاؤنا ومصيرنا.

عثرات الأقلام (٣)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

من عثرات الأقلام قولهم: «قاطعه عدة أمرار» (جمع «مرة». ويقال في جمعها أيضا: «مرات»)، وصوابه: «عدة مرار» من دون همزة.

وقولهم: «رجوته أن يتوسط في مسألة الإصلاحات»، صوابه «رجوت منه»؛ لأن فعل «رجا» إذا تعدى بنفسه كان معناه الخوف تارة، والأمل تارة أخرى، فيقال: «ما له لا يرجو الله»، أي لا يخافه، و«إنا لنرجو شفاءه»، أي نأمله ونتوقعه. وأما إذا كان معناه الطلب من الشخص، فالواجب تعديته إليه بحرف الجر «من»، فيقال: «رجوت منه أن يتوسط في الإصلاحات»، لا «رجوته»، و«أرجو منك أن تزورني»، لا «أرجوك»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء:١٠٤). واستعماله من دون «من» غلط فاش جدا، فليتفطن له.

وقولهم: «إلا إذا اقتضت الحال للذهاب لبيروت»، وصوابه: «اقتضت الحال الذهاب» من دون حرف الجر، وكذلك فعل «الذهاب» يتعدى إلى مفعوله بحرف الجر «إلى» لا «اللام»، فيقال: «الذهاب إلى بيروت - لا لبيروت».

وقولهم: «وإذا كانت المحكمة كائنة في بلدة كذا»، صوابه: «وإذا كانت المحكمة في بلدة كذا»، بحذف كلمة «كائنة»؛ لعدم الحاجة إليها. والتصريح بكلمتي «كائن» و«كائنة»، اللتين تتعلق بهما «في» الظرفية، غلط فاش جدا، لاسيما في الصكوك والإعلانات.

وقولهم: «دع الارتكان إلى فلان»، أو «على فلان»، يريدون: دع الاعتماد عليه أو الأمل فيه، وهو خطأ، وصوابه: «دع الركون إليه».

وقولهم: «جماد الأول» و«جماد الثاني» غلط، وصوابه: «جمادى الأولى» و«جمادى الثانية»، بتأنيث الموصوف والصفة.

وقولهم: «كلفه دولة الحاكم بكذا»، صوابه: «كلفه كذا» من دون الباء؛ لأن فعل «كلف» يتعدى إلى مفعول بنفسه.

وقولهم: «حكمت عليه المحكمة بجزاء نقدي يتراوح بين خمسة إلى خمسين ليرة». يقال: «راوح بين العملين»، إذا فعل هذا مرة وهذا مرة، «وتراوح زيد وعمرو الأمر الفلاني»، فعلاه هذا مرة وهذا مرة. ففي العبارة المذكورة وأشباهها «لا معنى للتراوح»، فينبغي أن يقال: «حكمت عليه المحكمة بجزاء نقدي من خمسة إلى خمسين ليرة»، أو «أقله خمس ليرات وأكثره خمسون»، أو «يختلف بين خمس ليرات وخمسين ليرة».

وقولهم: «ذهب إلى المطبعة لأجل تصحيح البروفا». والأولى أن نستغني عنها بمثل كلمة «المثال» أو «النموذج» أو «الطبق» (من المطابقة).

وقولهم: «أظهر دولة الحاكم لهم حسياته الخفية أو حاسياته الخفية». أما «حاسيات» فأصلها «حاسات»، وهي الحواس الخمس الظاهرة، وهي لا توصف بكونها خفية. وأما «حسيات» فالأولى الاستعاضة عنها بـ«أحساس» بفتح الهمزة (جمع حس، الذي معناه رقة النفس وعطفها)، والأحسن من ذلك كله أن يقال: «عواطف» أو «أميال».

وقولهم: «قد بلغت كل دائرة ما يختصها»، صوابه: «ما يخصها أو يختص بها» (أ.هـ).

وأتيت يا رمضان

هند حامد النزاري
المملكة العربية السعودية- المدينة المنورة

وأتيت تهدي الفجر للفجر ... وتبث روح الخير في الخير
وأتيت والآفاق أفئدة ... مرهونة بمنازل البدر
فكأنها ورؤاك غايتها ... جمعت خيوط العام في شهر
وكأنها مذ ودعتك هنا ... قد أومأت للشمس بالأمر
فمحت حساب الوقت وامتثلت ... ترنو إلى أيامك الزهر
آنستنا يا واحة ورفت ... وجحيمنا في الأرض يستشري
وحرائق الأرزاء تكنفنا ... والموت عبر عروقنا يسري
تغفو الأماني في محاجرنا ... لتفيق من عسر على عسر
عام أضيف إلى هزائمنا ... أواه يا رمضان لو تدري
كم شُرِّبَتْ بالصبر ريشته ... كي تمزج الآلام بالحبر
لما رآنا نحتسي دمنا ... ونصد نار الغدر بالغدر
جسدا تنازع حارَ ساجدُنا ... يدعو لأيِّ يديه بالنصر
رمضان دع ما قلت إن يدي ... نزفت مداد الحزن من صدري
فاستقبلتك مواجعي هربا ... لحماك فاقبل سيدي عذري
واشفع لحرف ظامئ لهف ... في حالك الأيام للفجر
يا قادما ما زال مرتحلا ... شتان بين الوصل والهجر
هيا املأ الآفاق مرحمة ... وابسط يديك بوارف البشر
وابذل لنا الأطياب نرقبها ... إنا نروم مضاعف الأجر
إنا إلى رياك في شغف ... وإلى الندى والعتق والطهر
ولأنت والأرواح ملحمة ... أزلية كالأرض والقطر
رمضان شكرا أن رجعت على ... ما كان واستعصمت بالصبر
شكرا لأنك ما برمت بنا ... وجنوحنا في السر والجهر
شكرا لمن أهداك أمتنا ... وهو الحقيق بأعظم الشكر
بركريم البذل بلغنا ... شهرا يغير حسبة الدهر
رمضان يا زمنا يطير بنا ... للأفق من عشر إلى عشر
يزجي السلام إلى عوالمنا ... متهاديا في ليلة القدر
يا روضة القرآن كم أمل ... أحييته في خشعة الوتر
يا منبع الخيرات يا سكن ... الأرواح يا بوابة الذكر
عد ثم عد فالعمر يسرقنا ... وشموسنا لمغيبها تجري
واعبر بنا وارأف بغربتنا ... ثقلت علينا وطأة الوزر

إبراهيم عبدالقادر المازني

د. محمود خلف
باحث أكاديمي

من أعلام الشعر والفكر والأدب المعاصر، أديب مجدد، من كبار الكتاب. امتاز بأسلوب حلو الديباجة، تمضي فيه النكتة ضاحكة من نفسها، وتقسو فيه الجملة صاخبة عاتية.

في بيت عتيق على حدود الصحراء في القاهرة.. ولد إبراهيم عبد القادر المازني سنة ١٣٠٨هـ - «١٨٨٩م» في «كوم مازن» من المنوفية بمصر، نشأ في بيئة دينية متواضعة، إذ كان أبوه محاميا شرعيا، ولم يكن على شيء من الثراء. ولم يتمتع إبراهيم طويلا برعاية أبيه، فقد توفي وهو في سنيه الأولى، ولم تقعد بأمه فاقتها، فقد رعته وألحقته بالمدرسة الابتدائية، حتى إذا أتمها التحق بالمدرسة الثانوية، وعينها من ورائه.

وطمح بعد إكمال دراسته الثانوية إلى الالتحاق بمدرسة الطب، لكنه لم يكد يدخل غرفة التشريح، حتى أصابه غثيان شديد، فانصرف عن الطب، وفكر في الالتحاق بمدرسة الحقوق، إلا أن ضيق ذات يده رده عنها إلى مدرسة المعلمين. وفي هذه المدرسة أخذت ملكته الأدبية في الظهور، فعكف على قراءة الأدب القديم يقرأ في كتابات الجاحظ، وفي كتاب الأغاني وفي الكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي وغير ذلك من عيون النثر العربي القديم، كما أخذ يقرأ في الشريف الرضي ومهيار وابن الرومي والمتنبي، وأضرابهم من الشعراء البارعين.

بدأت كتاباته منذ اشتعال الثورة المصرية ١٣٣٨هـ - «١٩١٩م». وشارك الثائرين في كتابة المنشورات التي تؤجج أوارها، حتى هددته السلطات بالنفي والتشريد، ومع ذلك ظل مشتغلا بالسياسة والصحافة حتى آخر لحظات حياته.

وكان الكتاب يتخيرون لتعابيرهم ما يسمونه «أشرف الألفاظ»، فيسمون به عن مستوى فهم الأكثرين، فخالفهم إلى تخير الفصيح مما لاكته ألسنة العامة، فأتى بالبين المشرق من السهل الممتنع. وعمل في جريدة «الأخبار» مع أمين الرافعي، و«البلاغ» مع عبدالقادر حمزة، وكتب في صحف يومية أخرى، وأصدر مجلة «الأسبوع» مدة قصيرة، وملأ المجلات الشهرية والأسبوعية المصرية بفيض من مقالاته لا يغيض.

وعاش عيشة «الفيلسوف» مرحا، زاهدا بالمظاهر. وكان من أرق الناس عشرة، ومن أسلسهم في صداقته قيادا، يبدو متواضعا متضائلا - وفي جسمه شيء من هذا - وفي قرارة نفسه أشد الاعتزاز بها والعرفان لقدرها. يمزح ولا يمس كرامة جليسه، مخافة أن تمس كرامته.

ويتناول نقائص المجتمع بالنقد، فإذا أورد مثلا جعل نفسه ذلك المثل، فاستسيغ منه ما يستنكر من غيره.

وله كتب، منها: «حصاد الهشيم» مقالات، و«إبراهيم الكاتب» جزآن، قصة، و«قبض الريح» و«صندوق الدنيا» و«ديوان شعر» جزآن صغيران، و«رحلة الحجاز» و«بشار بن برد» و«ميدو وشركاه» قصة، و«ثلاثة رجال وامرأة» و«غريزة المرأة» و«ع الماشي» و«شعر حافظ» في نقده، و«الشعر، غاياته ووسائطه» رسالة، وترجم عن الإنجليزية «مختارات من القصص الإنجليزي» و«الكتاب الأبيض الإنجليزي».

وشعره في جزأين ليس فيه سياسة ولا وطنية ولا دعوات اجتماعية؛ وإنما هو تجربة نفسية تامة، وهي تجربة تفيض بالألم والكآبة إزاء الطبيعة والتفكير في النفس والحياة الإنسانية ومتاعس البشرية، ويأخذ ذلك شكل انفجارات وجدانية. وربما كان مرجع ذلك عنده إلى أنه كان صاحب نفس حساسة وشعور مرهف إلى أبعد ما يكون الإرهاف الدقيق. ولم يكن شيء في حياته مفرحا، فقد ذاق ألم اليتم صغيرا، وكان قصيرا تقتحمه العين، وأحس ذلك في نفسه، فضاق بحياته وتبرم بها غاية التبرم، وزاد تبرمه حدة أن أصيب ساقه في حادثة سببت فيه عرجا، لازمه إلى مماته.

وهو لا يبارى في مقالاته التي يصف فيها مشاعره وخوالجه؛ إذ كان مرهف الإحساس، وكان إذا تعمق التأثر نفسه فاضت عليه خواطره، وكأنها تفيض من نبع لا ينضب. ومن خير ما دبجته براعته من ذلك ما جاء بكتابه «في الطريق» من حديثه عن ابنته الصغيرة التي اختطفها القدر من بين يديه،

وهي في غرارة الطفولة، فقد صور ذكرياته معها وما كانت تأتيه من لعب وعبث تصويرا باكيا رائعا.

• أسلوب المازني

تكشف آثار المازني عن أسلوب مشرق فكه ساحر وساخر، محبب إلى النفس، نابع من ثقافة عريضة، وموهبة قادرة على إذابة العامية في الفصحى، وينفرد بسخرية ناعمة، تجلوها روح الفكاهة المصرية العذبة الخالصة، وأهم ما يميز أسلوبه ما يلي:

١- البساطة في التعبير، واستخدام المألوف من الألفاظ، والمشهور من العبارات، وإظهار الألفاظ الدارجة في ثوب فصيح.

٢- العناية بالأمثال الشعبية، ورسم صورة للبيئة المصرية عامة، والقاهرية بصورة خاصة، وإيثار الدعابة الساخرة التي تمثل روحه.

٣- جمله قصيرة متلاحقة، وعباراته سلسة شائقة.

٤- إيثار الألفاظ الغريبة في معارض السخرية، أو إظهار المفارقة، أو الإضحاك، فنراه يخاطب المتعالي قائلا: «أيها الفطحل»، ويتحدث عن المتحذلق فيقول: إنه من «الجهابذة»، وعند امتلاء البطن يقول: «إنه شعر الكظة».

٥- تشبيهاته جديدة دقيقة وطريفة، فتراه يقول: «أقدم من هرم خوفو»، و«معدتي طاعنة في السن كمخلاة قديمة»، و«الزواج يشبه لبس الحذاء»، و«الأعزب كالذي اعتاد الحفا»، و«كانت لا تريد أن تتزوج، وصدقت فما تزوجت لأنها ماتت» و«كان شديد السكر حتى إنه كان يمشي متزنا»، وغيرها كثيرة وعديدة.

٦- المحافظة على الإطار اللغوي في قواعده وتراكيبه ومفرداته.

وبذا وغيره كان المازني في فكاهاته وسخرياته فنانا رائدا مبدعا، عميق الغور، واسع الأفق، انطبعت مختلف

مظاهر الحياة المصرية في نفسه، فعبر عن صورها في قوة ووضوح.

• الصورة الأدبية عند المازني

وأما إبراهيم عبدالقادر المازني: فيرى أن الصورة الأدبية غير فن التصوير والرسم، فهي غنية بالحركة والحيوية، وتعاقب الزمن وقتا بعد وقت، حتى يأتي الشاعر على الحركة المقصودة من الصورة، بينما فن الرسم جامد ليس له إلا لحظة واحدة من الزمن، وهي تلك اللقطة التي يختارها الرسام من الزمن، ليودعها فنه وريشته، كما أن الصورة الأدبية تنفرد أيضا بخاصة لا توجد في فن التصوير، وهي أن الشاعر ينقل للقارئ المنظر المراد تصويره، من خلال مشاعره، وخواطره، ويلونها من داخل نفسه، فتؤدي عند القارئ إلى إثارة مثل هذه الأحاسيس والمعاني والآمال والخوالج.

والمازني يرى أن الصورة ليست هي مجرد الشكل الذي يقابل المضمون، ولكنها تصدر عن الوسائل الفنية للشكل، وهو ما يفيده النظم عند الإمام عبدالقاهر، إلا أنه تناولها في عمق وجدة تبدو في أمور:

أ- وضح مفهوم الصورة على وجه التقريب، وتكون في تناول المنظر المراد تصويره من خلال خواطر الشاعر وأحاسيسه وتلوينها بذات نفسه وعاطفته.

ب- أن الصورة ليست خطبة بنص الشاعر فيها على المراد، وما يقصده صراحة، ولكن على الشاعر بموهبته الفنية أن يدع الصور تتحدث بذلك، وتكشف عن الأثر الكامن فيها لا الشاعر.

ج- أن الصورة الأدبية لها لحظات في الزمن تتعاقب وتحدث ما فيها من حركة حيوية، وهما لب الصورة وعصبها، وهذا هو الفارق المميز بينها وبين الرسم.

د- أن المازني جعل الخيال هو الأساس في الصورة، وبه يتفوق صاحبه على غيره، ويقسم الخيال قسمين: أحدهما الخيال الحسي، وهو ما يستمد فيه الشاعر البواعث على الابتكار من ظواهر الطبيعة، وهو في نفس الوقت تصوير الشيء على حقيقته، كما يقع تحت الحس في الواقع، من غير إعمال ولا تحوير، وهذا ضرب نادر في الصورة؛ لأن وجود الخيال فيها لابد أن يأخذ مجراه، ويعمق أجزاءها. ثانيهما: تخييلي، وهو ما يستمد الشاعر فيه البواعث على الابتكار من نفسه وخواطره وعواطفه؛ لأن الأصل في الشعر سعة النظر، وعمق المعاني، فقد يتناول الشاعر منظرا محدودا في نظر الرائي، ولكنه يراه بالمعنى الأوسع والأعمق مما يراه الآخر.

وتقديرا له ولمكانته الأدبية وما بذل من جهود قيمة في أدبنا المعاصر اختير عضوا بمجمع اللغة العربية.

مكبا على التحرير في الصحف وإخراج القصص والأعمال الأدبية المختلفة حتى انطفأت شعلة حياته في سنة ١٣٦٨هـ - «١٩٤٩م».

رحلة في «زاد المعاد»

عبدالله محمد الدرويش
باحث دراسات إسلامية

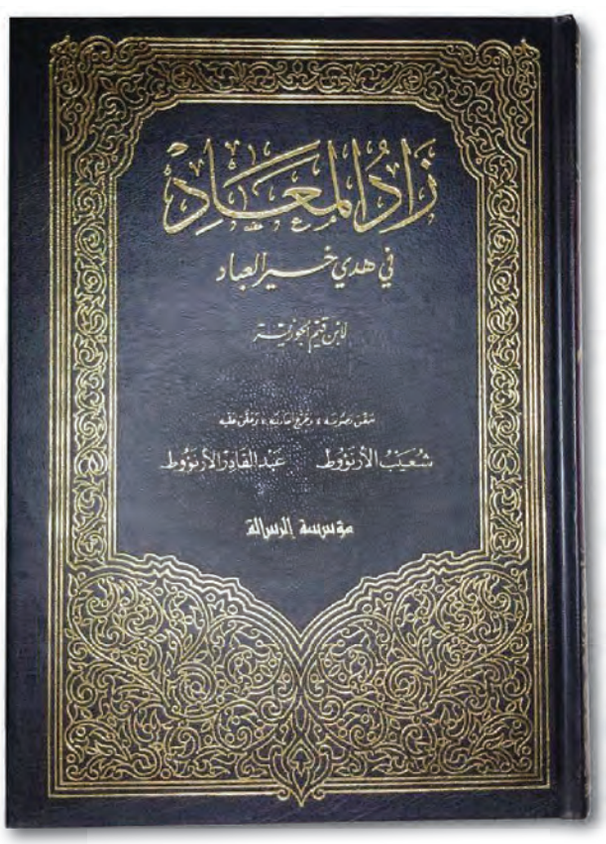

فخرت أمتنا بعلمائها، وازدهت على الدنيا بكريم خصالها، فلا يمضي زمن إلا ويبرز للكون آثار نهضتها.. والكتاب الذي بين أيدينا ألفه عظيم من عظماء هذه الأمة، حق لنا أن نفخر به وبأمثاله، وأن ننادي في الخافقين أين لكم من أمثاله؟!.

إنهم علماء أفذاذ بذلوا مهجهم في سبيل رسم الطريق لكل السالكين إلى الله، فيما يصلح دنياهم وأخراهم، فلم يبخلوا بجهد من جهودهم، أو علم من علومهم، إلا وقدموه طيبة به نفوسهم، يبتغون بذلك الأجر والمثوبة من الله عزوجل، وهم مع ذلك استفادوا من جميع أوقاتهم فلم يضيعوا شيئا هباء، ولم يسمحوا لسيف الزمن أن يقطعهم.

فهذا الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه ألف كتابه في حال سفر، وتشتت قلب، وتفرق همة، كما حدث عن ذلك في أثناء كتابه.

وهذا من أكبر دواعي معرفة مقدرة هذا الإمام على الاستفادة من المخزون المعرفي والثقافي الذي كان نبعا دفاقا ظهرت معالمه في هذا السفر العظيم الذي توضحت فيه آثار من سبقه، وألقت أنوارا وضاءة أنارت سبيل من لحقه.

فتلحظ عميق فقهه وفهمه في دراسته للموضوعات المطروحة ومناقشته لكل قضية فيها إشكال.. وليس هذا محصورا في مناقشته الفقهاء بل تعداه إلى اللغويين والنحاة، فلا يأخذ قولا على عواهنه، وإنما يدقق ويمحص بعد ذكر أقوال السابقين واللاحقين، فإذا كانت مسألة تتعلق بالنحو ذكر مدارس البصريين والكوفيين، وكشف النقاب عن الخطأ في المسألة.

وهو واثق مما يقول، لأن ما عنده غير موجود عند الآخرين، وتعبيره عن ذلك: وهي مسألة شريفة لعلك لا تراها في مصنف.

وتتبع ثقته من عدم تعلقه بالأشخاص، وجنوحه إلى التمسك بالصحيح دون الوقوف عند الرجال.. ولذلك مال إلى مخالفة شيخه وصرح بذلك. على الرغم من محبته البارزة لشيخه، إذ لا يخلو بحث من نقل عنه من رسائله أو أجوبته، وحتى ما يشاهده من أفعاله وتصرفاته.

حتى أننا عرفنا أنه ألف هذا الكتاب بعد وفاة شيخه، وكأنه بذلك يؤرخ لنضج فكره، وعميق فقهه، إذ إنه كتب كتابه بعدما عركته الحياة، وكشفت له الحقائق، وأنارت له السبل.

ونستطيع القول: إنه يؤرخ لعصره وما فيه من محاسن ومساوئ.

ولهذا: نكشف متابعته لحوادث عصره وما كان فيه من فتن ومؤامرات، وما كان للمؤلف من منزلة في قلوب الخلق، مع تبيان منزلته عند أولياء الأمر، حيث كانوا يستفتونه في الوقائع الجارية. وتآمر بعضهم على المسلمين.

وبذكره للوقائع نتعرف على بعض مظاهر العداوة لأهل دمشق ومقاومتهم للغزاة.

كما أنه يؤرخ لحياته وحياة من يعرفه ويحبه، ولذلك: يذكر حواره مع أهل الكتاب.

ويمر عرضا على ما يجري معه من أمراض وعلل في رحلته، حيث تحدث عن مرضه في مكة واستشفائه بالفاتحة وماء زمزم. وإصابته بالحمى.

ويرشدنا خلال ذلك إلى كتبه وما يؤمل في كتابته.. حيث يبين أن بعض الأبحاث مستوفى في كتاب له هو:

. التخيير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير.

وينبه على مواطن تحتاج إلى إطالة فيقول: وعسى أن نفرد فيه مصنفا شافيا إن شاء الله تعالى.

. تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.

. جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.

. مفتاح دار السعادة.

. مدارج السالكين.

ولا نعدم منه إيضاحا وبيانا لفائدة بعض هذه الكتب حيث يقول عن جلاء الأفهام: وهو كتاب فرد في معناه، لم يسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها... .

وإذا أراد من القارئ أن يوسع مداركه في التعرف على معلومات أكثر ذكر له أنه أشبع الكلام في هذه المسألة في كتاب كذا.

أو يحيل على مكان غير معين فيقول: وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها قد ذكرت في غير هذا الموضع.

وهو في منهجه يعتمد:

١. التجربة في كثير من الأمور الطبية. والشرعية.

٢. المشاهدات الحسية التي يلحظها وله أثر فيها.

٣. الرؤى المنامية، وقد أخذ ذلك عن شيخه الشهاب العابر.

٤. النقول من الكتب الأصلية للمذاهب وغيرها، فينقل فصولا كاملة من المازري وابن قدامة في المغني، وابن حزم في المحلى بالآثار، ويسميه منجنيق الغرب.

ومن كتب الرجال: ككتب شيخه المزي... .

وينقل نصوصا بأسانيدها من كتب بعضها مفقود، مما يعطي كتابه أهمية أصالة النصوص.

٥. الشيوخ: كان المصنف كالنحلة يأخذ الرحيق من كل الزهر.

والمتتبع لكتابه يلحظ استفادته من كثير من علماء عصره في كل الفنون،

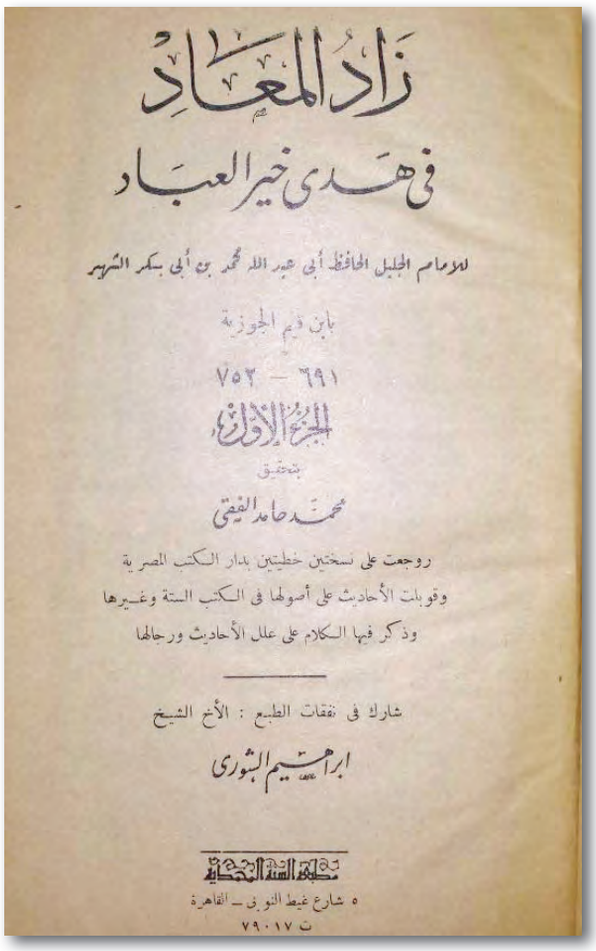

وإن كان أخذه عن بعضهم أكثر من بعض، فهو شديد الصلة بشيخ الإسلام يرقبه في كل حركاته وسكناته، وينقل عنه كل صغيرة وكبيرة، ويستذكره في كل مناسبة تعرض، وينقل بعض رسائله بنصها وفصها. كما ينقل عنه أصالة مشافهة أو بالواسطة فيقول: بلغنا عن شيخنا أبي العباس.

وكانت صلته بالعلماء منذ صغره ونعومة أظفاره، فظهرت مقدرته على تمييز الجيد من الرديء، وأسفه أن لا يكون قد قرأ علوما على بعضهم لانخرام منيتهم، من أمثال شيخه أحمد بن عبد الرحمن المعروف بالشهاب العابر حيث قال: وهذه حال شيخنا هذا، ورسوخه في علم التعبير، وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه، لصغر السن، واحترام المنية له رحمه الله تعالى.

ويصرح بسماعه وقراءته على أمثال الحافظ أبي الحجاج المزي في كتبه: كالتهذيب.

وهو لا يقف عند شيخ لا يتعداه، بل يقتنص الفوائد من كل الناس، ولذلك يقول: سمعت أحمد بن المعدل ينشد.

وله استفادة من أصحابه حيث يقول: وحدثني صاحبنا أبوعبدالله محمد بن عثمان الخليل المحدث ببيت المقدس.

ويعزو الكلام لصاحبه منوها بفضله وفضل أهله، كقوله: أخبرني بذلك عنه ولده الإمام عز الدين عبدالعزيز أبوعمرو أعزه الله بطاعته.

وعندما كان يتحدث عن طب النبي ﷺ استفاد من حذاق عصره في الطب وإن لم يذكر أسماءهم فيقول: أخبرني بعض حذاق الطب. وقال لي بعض فضلاء الأطباء.

وهو إمام في كل الفنون التي تطرق إليها؛ يحسبه من لم يتابعه في أبحاثه أنه لا يعرف غير ذاك العلم. وكأنه أراد من ذلك الوصول إلى حقيقة عقد الإخاء بين الحكمة والشريعة وعدم مناقضة أحدهما للآخر.

فإذا كشف عن علل الأحاديث رأيت ناقدا متقنا من أهل الفن يميز الطيب من الخبيث، ويكشف العلل، ويعرف الدقائق، مع تمييزه لطريقة العلماء المحققين من أمثال الإمام مسلم.

وإذا أورد أمثلة من اللغة أطنب حتى تظنه قد استوعب ما في كتب اللغة وكأنه متخصص في ذاك الفن.

ومن يستعرض كتابه من أوله إلى آخره، يجد فيه العالم المتقن، والفقيه المتمكن، والمؤرخ المدقق، والمحدث النقاد، الذي حاز قصب السبق في كل فن من فنون علم الشريعة، فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع نفسه، وربه، ومجتمعه.

فكان طبيب الأجساد، والأرواح، يعطي من هدي المصطفى ﷺ الأدوية الناجعة، والبلسم الشافي.

تهذيب الكمال للحافظ المزي

التحرير

حينما ألفت الكتب الستة في الحديث؛ عدها جهابذة المحدثين دواوين الإسلام؛ فعنوا بها وبروايتها وتدقيقها، فاشتهرت في بلاد الإسلام، وذاع صيتها بين الناس، ونتيجة لذلك ألفوا الكتب المعنية بتناول الرجال الواردين في أسانيدها منذ القرن الرابع الهجري.

لكن أحدا لم يجمع شيوخ أصحاب الستة قبل الحافظ أبي القاسم بن عساكر، رحمه الله، في كتابه «المعجم المشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة النبل»، ثم جاء الحافظ الكبير عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي، رحمه الله؛ فألف كتابه «الكمال في أسماء الرجال»، وتناول فيه رجال الكتب الستة، وهو أول من ألف في رواة الكتب الستة؛ حيث لم يقتصر على شيوخهم، بل تناول جميع الرواة المذكورين في هذه الكتب من الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى شيوخ أصحاب الكتب الستة، لكنه لم يستقص الأسماء التي اشتملت عليها استقصاء تاما، ولا تتبع جميع تراجم الأسماء التي ذكرها في كتابه تتبعا شافيا؛ فحصل في كتابه بسبب ذلك إغفال وإخلال، وهذا ما دفع الحافظ المزي، رحمه الله، لاستدراك هذا النقص في كتابه «تهذيب الكمال» (١).

وقد كتب المزي لكتابه مقدمة ممتعة طويلة اشتملت على مفاتيح كتابه، ومنهجه في استدراكه وجمعه وتحريره، وها نحن ذاكرون منها قطوفا متنوعة، لندل القارئ على فضلها وفضل الكتاب الذي دلت عليه.

قال، رحمه الله، بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيه:

«أما بعد، فإن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحجة، وداع إليه على بصيرة، لكي لا تبطل حجج الله وبيناته، فهم، كما وصفهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: «أولئك هم الأقلون عددا، الأعظمون عند الله قدرا، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان قلوبها معلقة بالمحل الأعلى شوقا إلى لقائهم، وإذا كان الأمر كما ذكرنا، والحال على ما وصفنا، فواجب إذن على كل مكلف ذي عقل سليم مطلق من إسار الشهوات الحيوانية والشبهات الشيطانية أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تحصيل الفوز بالنعيم الأبدي، والنجاة من العذاب السرمدي».

ثم بين أن تلك النجاة مرتبطة بمدى التمسك بالكتاب والسنة، وأن الكتاب محفوظ بحفظ الله له قدرا وشرعا، فقال:

«وأما السنة، فإن الله تعالى وفق لها حفاظا عارفين، وجهابذة عالمين، وصيارفة ناقدين، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فتنوعوا في تصنيفها، وتفننوا في تدوينها على أنحاء كثيرة وضروب عديدة، حرصا على حفظها، وخوفا من إضاعتها، وكان من أحسنها تصنيفا، وأجودها تأليفا، وأكثرها صوابا، وأقلها خطأ، وأعمها نفعا، وأعودها فائدة، وأعظمها بركة، وأيسرها مؤونة، وأحسنها قبولا عند الموافق والمخالف، وأجلها موقعا عند الخاصة والعامة: صحيح البخاري، ثم صحيح مسلم، ثم بعدهما كتاب السنن لأبي داود، ثم كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي، ثم كتاب

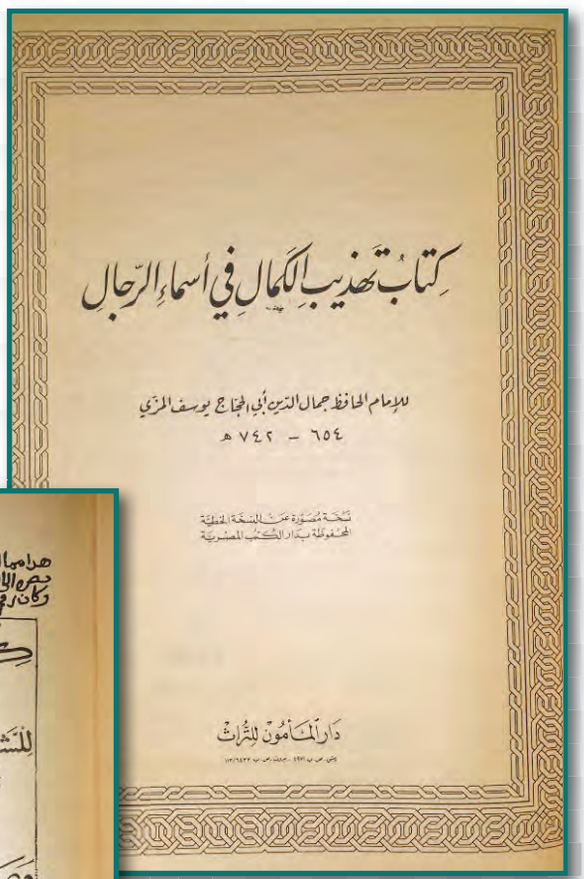

السنن لأبي عبدالرحمن النسائي، ثم كتاب السنن لأبي عبدالله ابن ماجه القزويني، وإن لم يبلغ درجتهم.

ولكل واحد من هذه الكتب الستة مزية يعرفها أهل هذا الشأن، فاشتهرت هذه الكتب بين الأنام، وانتشرت في بلاد الإسلام، وعظم الانتفاع بها، وحرص طلاب العلم على تحصيلها، وصنفت فيها تصانيف، وعلقت عليها تعاليق، بعضها في معرفة ما اشتملت عليه من المتون، وبعضها في معرفة ما احتوت عليه من الأسانيد، وبعضها في مجموع ذلك.

وكان من جملة ذلك كتاب «الكمال»، الذي صنفه الحافظ عبدالغني المقدسي في معرفة أحوال الرواة الذين اشتملت عليهم هذه الكتب الستة، وهو كتاب نفيس كثير الفائدة، لكن لم يصرف مصنفه، رحمه الله، عنايته إليه حق صرفها، ولا استقصى الأسماء التي اشتملت عليها هذه الكتب استقصاء تاما، ولا تتبع جميع تراجم الأسماء التي ذكرها في كتابه تتبعا شافيا، فحصل في كتابه بسبب ذلك إغفال وإخلال».

ثم قال يبين الداعي الذي دفعه للاستدراك على الكتاب الأصل:

«فلما وقفت على ذلك، أردت تهذيب الكتاب، وإصلاح ما وقع فيه من الوهم والإغفال، واستدراك ما حصل فيه من النقص والإخلال، فتتبعت الأسماء التي حصل إغفالها منهما جميعا، فإذا هي أسماء كثيرة تزيد على مئات عديدة من أسماء الرجال والنساء. ثم وقفت على عدة مصنفات لهؤلاء الأئمة الستة غير هذه الكتب الستة؛ فإذا هي تشتمل على أسماء كثيرة ليس لها ذكر في الكتب الستة، ولا في شيء منها، فتتبعتها تتبعا تاما، وأضفتها إلى ما قبلها، فكان مجموع ذلك زيادة على ألف وسبع مئة اسم من الرجال والنساء؛ فترددت بين كتابتها مفردة عن كتاب الأصل، وجعلها كتابا مستقلا بنفسه، وبين إضافتها إلى كتاب الأصل، ونظمها في سلكه، فوقعت الخيرة على إضافتها إلى كتاب الأصل، ونظمها في سلكه، وتمييزها بعلامة تفوزها عنه، وهو أن أكتب الاسم، واسم الأب أو ما يجري مجراه بالحمرة، وأقتصر في الأصل على كتابة الاسم خاصة بالحمرة».

وأما عن رموز كتابه ومصطلحات مصنفه؛ فقد قال عنها:

«وجعلت لكل مصنف علامة، فإن تكرر الاسم في أكثر من مصنف واحد؛ اقتصرت على عزوه إلى بعضها في الغالب؛ فعلامة ما اتفق عليه الجماعة الستة في الكتب الستة: (ع)، وعلامة ما اتفق عليه أصحاب السنن الأربعة في سننهم

الأربعة: (٤)، وعلامة ما أخرجه البخاري في الصحيح: (خ)، وعلامة ما استشهد به في الصحيح تعليقا: (خت)، وعلامة ما أخرجه في كتاب القراءة خلف الإمام: (ز)، وعلامة ما أخرجه في كتاب رفع اليدين في الصلاة: (ي)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الأدب: (بخ)، وعلامة ما أخرجه في كتاب أفعال العباد: (عخ) (٢)، وعلامة ما أخرجه مسلم في الصحيح: (م)، وعلامة ما أخرجه في مقدمة كتابه: (مق) (٣)، وعلامة ما أخرجه أبو داود في كتاب السنن: (د)، وعلامة ما أخرجه في كتاب المراسيل: (مد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الرد على أهل القدر: (قد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الناسخ والمنسوخ: (خد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب التفرد، وهو ما تفرد به أهل الأمصار من السنن: (ف)، وعلامة ما أخرجه في فضائل الأنصار: (صد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب المسائل التي سأل عنها أبا عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل: (ل)، وعلامة ما أخرجه في مسند حديث مالك بن أنس: (كد)، وعلامة ما أخرجه الترمذي في الجامع: (ت)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الشمائل: (تم)، وعلامة ما أخرجه النسائي في كتاب السنن: (س)، وعلامة ما أخرجه في كتاب عمل يوم وليلة: (سي)، وعلامة ما أخرجه في كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ص)، وعلامة ما أخرجه في مسند علي رضي الله عنه: (عس)، وعلامة ما أخرجه في مسند حديث مالك بن أنس: (كن)، وعلامة ما أخرجه ابن ماجة القزويني في كتاب السنن (ق)، وعلامة ما أخرجه في كتاب التفسير: (فق)».

ثم أوضح رمزه للأسماء الواردة في كتابه وطريقة تمييزه لهم؛ فقال:

«وقد جعلت على كل اسم كتبته بالحمرة رقما من الرقوم المذكورة أو أكثر بالسواد، ليعرف الناظر إليه عند وقوع نظره عليه من أخرج له من هؤلاء الأئمة وفي أي كتاب من هذه الكتب أخرجوا له، ثم أنص على ذلك نصا صريحا عند انقضاء الترجمة، أو قبل ذلك على حسب ما تقتضيه الحال. وذكرت أسماء من روى عنه كل واحد منهم، وأسماء من روى عن كل واحد منهم في هذه الكتب أو في غيرها على ترتيب حروف المعجم أيضا على نحو ترتيب الأسماء في الأصل، ورقمت عليها أو على بعضها رقوما بالحمرة يعرف بها في أي كتاب من هذه الكتب وقعت روايته عن ذلك الاسم المرقوم عليه، ورواية ذلك الاسم المرقوم عليه عنه. ثم ذكرت في تراجمهم روايتهم عنه، أو روايته عنهم كذلك، لتكون كل ترجمة شاهدة للأخرى بالصحة والأخرى شاهدة لها بذلك».

ثم بين أصول منقولاته في كل فن؛ ليكون القارئ على بينة من أمر ما يقرأ؛ فقال:

«واعلم: أن ما كان في هذا الكتاب من أقوال أئمة الجرح والتعديل ونحو ذلك، فعامته منقول من كتاب «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي الحافظ بن الحافظ، ومن كتاب «الكامل» لابن عدي الجرجاني الحافظ، ومن كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي الحافظ، ومن كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر الدمشقي الحافظ، وما كان فيه من ذلك منقولا من غير هذه الكتب الأربعة، فهو أقل مما كان فيه من ذلك منقولا منها، أو من بعضها».

ثم عرج على منهجه في الإحالة بالإسناد ومن دونها، فقال:

«ولم نذكر إسناد كل قول من ذلك فيما بيننا وبين قائله خوف التطويل. وقد ذكرنا من ذلك الشيء بعد الشيء لئلا يخلو الكتاب من الإسناد على عادة من تقدمنا من الأئمة في

ذلك، وما لم نذكر إسناده فيما بيننا وبين قائله: فما كان من ذلك بصيغة الجزم، فهو مما لا نعلم بإسناده عن قائله المحكي ذلك عنه بأسا، وما كان منه بصيغة التمريض، فربما كان في إسناده إلى قائله ذلك نظر، فمن أراد مراجعة شيء من ذلك أو زيادة اطلاع على حال بعض الرواة المذكورين في هذا الكتاب، فعليه بهذه الأمهات الأربعة؛ فإنا قد وضعنا كتابنا هذا متوسطا بين التطويل الممل، والاختصار المخل».

ولقد دل طالب العلم على مشمولات كتابه، وأنها محيطة بقدر كبير من رجال العلم فقال:

«وقد اشتمل هذا الكتاب على ذكر عامة رواة العلم، وحملة الآثار، وأئمة الدين، وأهل الفتوى، والزهد والورع والنسك، وعامة المشهورين من كل طائفة من طوائف أهل العلم المشار إليهم من أهل هذه الطبقات، ولم يخرج عنه منهم إلا القليل».

وفي نصيحته لمن أراد الاستقصاء وزيادة البحث والاطلاع، قال رحمه الله:

«فمن أراد زيادة اطلاع على ذلك، فعليه بعد هذه الكتب الأربعة بكتاب «الطبقات الكبير» لمحمد بن سعد كاتب الواقدي، وكتاب «التاريخ» لأبي بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب، وكتاب «الثقات» لأبي حاتم البستي، وكتاب «تاريخ مصر» لأبي سعيد عبدالرحمن بن أحمد الصدفي، وكتاب «تاريخ نيسابور» للحاكم النيسابوري الحافظ، وكتاب «تاريخ أصبهان» لأبي نعيم الأصبهاني الحافظ، فهذه الكتب العشرة أمهات الكتب المصنفة في هذا الفن».

وأما طريقة ترتيب الأسماء الواردة في «التهذيب»، وهي مهمة جدا، فقال رحمه الله:

«وقد رتبنا أسماء الرواة من الرجال في كتابنا هذا على ترتيب حروف المعجم في هذه البلاد، مبتدئين بالأول فالأول منها، ثم رتبنا أسماء آبائهم وأجدادهم على نحو ذلك؛ إلا أننا ابتدأنا في حرف الألف بمن اسمه أحمد، وفي حرف الميم بمن اسمه محمد لشرف هذا الاسم على غيره، ثم ذكرنا باقي الأسماء على الترتيب المذكور؛ فإذا انقضت الأسماء ذكرنا المشهورين بالكنى على نحو ذلك، فإن كان في أصحاب الكنى من اسمه معروف من غير اختلاف فيه؛ ذكرناه في الأسماء، ثم نبهنا عليه في الكنى، وإن كان فيهم من لا يعرف اسمه، أو من اختلف في اسمه؛ ذكرناه في الكنى خاصة، ونبهنا على ما في اسمه من الاختلاف في ترجمته، ثم ذكرنا أسماء النساء على نحو ذلك، وربما كان بعض الأسماء يدخل في ترجمتين أو أكثر، فنذكره في أولى التراجم به، ثم ننبه عليه في الترجمة الأخرى».

وفي آخر مقدمته النفيسة بين زياداته على صاحب الأصل، فقال:

«وقد ذكرنا في أواخر الكتاب فصولا أربعة مهمة لم يذكر صاحب الكتاب شيئا منها، وهي: فصل فيمن اشتهر في النسبة إلى أبيه، أو جده، أو أمه، أو عمه، أو نحو ذلك، مثل: ابن أبجر، وابن الأجلح، وابن أشوع، وابن جريج، وابن علية، وغيرهم. وفصل فيمن اشتهر بالنسبة إلى قبيلة، أو بلدة، أو صناعة، أو نحو ذلك مثل: الأنباري، والأنصاري، والأوزاعي، والزهري، والشافعي، والعدني، والمقابري، والصيرفي، والفلاس، وغيرهم. وفصل فيمن اشتهر بلقب أو نحوه، مثل: الأعرج، والأعمش، وبندار، وغندر، وغيرهم. ونذكر فيهم وفيمن قبلهم نحو ما ذكرنا في الكنى. وفصل في المبهمات، مثل: فلان عن أبيه، أو عن جده، أو عن أمه، أو عن عمه، أو عن خاله، أو عن رجل، أو عن امرأة، ونحو ذلك. وننبه على اسم من عرفنا اسمه منهم».

وقد نص، رحمه الله، على أن الفائدة من كتابه إنما يحصلها من شاد في العلم طرفا جيدا منه، وأما المبتدئون فإن استفادتهم ربما كانت دون المرجو، قال رحمه الله:

«وينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حصل طرفا صالحا من علم العربية: نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث، والتواريخ، وأيام الناس، فإنه إذا كان كذلك؛ كثر انتفاعه به، وتمكن من معرفة صحيح الحديث وضعيفه، وذلك خصوصية المحدث التي من نالها، وقام بشرائطها؛ ساد أهل زمانه في هذا العلم، وحشر يوم القيامة تحت اللواء المحمدي إن شاء الله تعالى».

هامش:

١- مستفاد من مقدمة تحقيق الكتاب، للدكتور بشار عواد معروف.

العلامة محمد التاويل في ذمة الله

د. عبدالغني يحياوي
كاتب مغربي

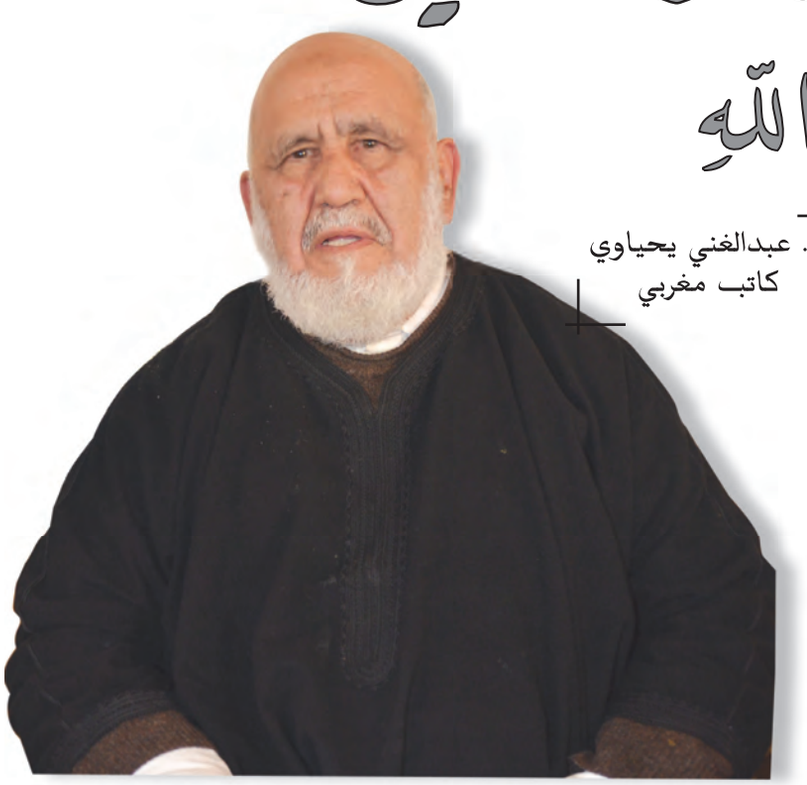

فقدت الأمة الإسلامية عصر يوم الاثنين ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، الموافق ٦ أبريل ٢٠١٥، العلامة الكبير والشيخ الجليل الدكتور محمد التاويل عن عمر ناهز الثمانين عاما. كان رحمه الله رجل العلم والعطاء، شيخ المالكية من دون منازع، وحافظ أصول المذهب وفروعه، فقيها وأصوليا محنكا، ويعد من أبرز علماء القرويين، وهو رجل المبادئ والمواقف الصلبة رحمه الله برحمته الواسعة، وهذه نبذة مختصرة عن سيرته ومساره العلمي.

نسبه وولادته

هو أبوحميد محمد بن محمد قاسم بن حساين التاويل، ولد سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، بمنطقة عين باردة، عمالة تاونات قرب مدينة فاس.

نشأته وتعلمه

ينتمي الشيخ محمد التاويل إلى منطقة عرفت أغلب مداشرها بتحفيظ القرآن الكريم، ودراسة بعض العلوم الشرعية. وإضافة إلى هذا فشيخنا نما وترعرع في وسط علمي بامتياز، وهو ابن أسرة علمية، أبوه كان حافظا للقرآن الكريم، وشيخا للقراءات السبع.

حفظ محمد التاويل القرآن الكريم وبعض المتون في قريته، وبعدها التحق رحمه الله بجامع القرويين، فقضى فيه سنوات تميزت بالجد والاجتهاد والتحصيل العلمي المتواصل. ومن بركات الله عليه أن رزقه بذاكرة قوية، وفهم ثاقب، وذكاء منقطع النظير، مما أهله أن يكون من المبرزين بين أقرانه طيلة مدة دراسته، وكان دائما في المراكز الأولى بين الطلاب، كل هذا أكسبه عطف أساتذته واعتناءهم به، وتفرسوا فيه أنه سيكون عالما عاملا، وأنه سيكون خلفا لخير سلف.

وأما محفوظاته فكثيرة منها: التلخيص للإمام القزويني، وجمع الجوامع لابن السبكي، وتحفة ابن عاصم، وألفية ابن مالك التي حفظها في عشرة أيام بمعدل ١٠٠ بيت في اليوم.

ولقد تعلم على يد علماء أجلاء مبرزين كانوا يحبونه ويجلونه، نذكر من بينهم: العربي الشامي ومحمد بن عبدالقادر الصقلي ومحمد بن الحسن الزرهوني وعبدالكريم الداودي وأحمد الحبابي وعبدالهادي التازي وعبدالعزيز بلخياط وأبوبكر جسوس وأحمد يزيد البدراوي وأحمد الوردي الجاي والعباس بناني وغيرهم كثير.

عطاؤه العلمي

يعتبر الفقيه الأصولي الشيخ محمد التاويل من العلماء الأفذاذ الذين أجادوا وأفادوا في مختلف العلوم الشرعية، وحق له أن يكون كذلك لأنه نشأ في بيت علمي، وتلقى تعليمه على يد أبرز علماء فاس كما ذكرنا سابقا، مما جعل عطاءاته العلمية بمختلف أنواعها متميزة، فلقد تعلم على يديه طلبة كثر لا نستطيع إحصاءهم، نظرا لطول مدة تدريسه التي وصلت إلى ٥٤ سنة، وتقلد مناصب ومهمات غاية في الأهمية، وقد ألف مؤلفات عدة، تختلف مواضيعها، حاول جاهدا فيها إيصال الحق إلى الناس وتنقيته من

الباطل، وقد ذكر لي أن ما ألفه وكتبه ليس بدافع الكتابة وإنما بدافع الرد على العلمانيين ودفاعا عن الشريعة، ودحضا لأقوال من أراد إدخال أمور في الدين ليست منه..

كتبه ومؤلفاته

١- الوصايا والتنزيل في الفقه الإسلامي.
٢- موقف الشريعة من اعتماد الخبرة الطبية والبصمة الوراثية في إثبات النسب ونفيه.
٣- اللباب في شرح تحفة الطلاب.
٤- وأخيرا وقعت الواقعة وأبيح الربا: الفوائد البنكية.
٥- مشكلة الفقر: الوقاية والعلاج في المنظور الإسلامي.
٦- إشكالية الأموال المكتسبة مدة الزوجية: رؤية إسلامية.
٧- الوصية الواجبة في الفقه الإسلامي.
٨- شذرات الذهب فيما جد في قضايا النكاح والطلاق والنسب.
٩- الشركات وأحكامها في الفقه الإسلامي.
١٠- لا ذكورية في الفقه.
١١- زكاة العين ومستجداتها.
١٢- منهجية عمر بن الخطاب في الاجتهاد مع النص.
١٣- خصائص المذهب المالكي.
١٤- زراعة الأعضاء في الفقه الإسلامي.
١٥- مع عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: في حياتها الأسرية ومسيرتها العلمية.
١٦- العذب الزلال في فقه الأموال.

وله كتب أخرى لم تطبع بعد، وله أيضا عدة مقالات في عدة مجلات وجرائد، وشارك كذلك في ندوات وطنية ودولية، وألقى محاضرات متعددة في مواضيع مختلفة.

المهام والوظائف

- أستاذ بجامع القرويين بعد حصوله على شهادة العالمية بسنة، وكان ذلك ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ومنذ ذلك الوقت وهو يدرس إلى أن تقاعد سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- أستاذ للتعليم العتيق بجامع القرويين منذ ١٩٨٨م إلى ٢٠١٢م.
- المرشد والمسؤول عن صياغة أسئلة امتحانات البكالوريا واختبارها بالتعليم الأصيل سابقا.
- عضو اللجنة الملكية الاستشارية لمراجعة مدونة الأسرة.
- عضو في صياغة مشروع مدونة الوقف بتكليف من وزارة الأوقاف.
- عضو في خلية تأليف الكتاب المدرسي للتعليم الأصيل (أربعة كتب: ثلاثة في الفقه وواحد في الأصول).
- عضو لجنة التحكيم في جائزة محمد السادس للفكر والدراسات الإسلامية.
- عضو المجلس العلمي المحلي بفاس.
- عضو المجلس العلمي الأعلى بالرباط.
- مزاول للوعظ والإرشاد والإفتاء بمدينة فاس.

الشهادات التي حصل عليها

- شهادة العالمية سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- شهادة الدكتوراه سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

تلامذته

لا نستطيع حصر ولا عد تلامذته، لأنهم يعدون بالآلاف، والشيخ لا يتذكر إلا القليل ممن درسوا عليه، لكن الذين تميزوا في المجال العلمي، والذين ظل على صلة وثيقة بهم فقد ذكر لي بعضهم وهم كالتالي: محمد أبياط ورضوان بنشقرون والشاهد البوشيخي وأحمد البوشيخي وحسن الزين الفلالي وعبدالله الهيلالي وعبدالله غازيوي ومحمد العمراوي وفريد الأنصاري (رحمه الله) ومحمد العمراوي وغيرهم كثير.

وفاته

توفي رحمه الله بمدينة فاس عصر يوم الاثنين ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ/الموافق ٦ أبريل ٢٠١٥، وصلي عليه صلاة الجنازة عصر يوم الثلاثاء بجامع القرويين، ووري جثمانه الثرى في موكب جنائزي مهيب بمقبرة باب الفتوح بفاس.

رحم الله الفقيد، ورزق أهله وذويه وطلبته والمحبين له الصبر والسلوان، ونسأل الله العظيم أن يعوض الأمة عنه بعلماء أفذاذ ينافحون عن شريعته.

السحر الحلال

إيمان القدوسي
باحثة تربوية

وضعك وجاذبيتك عند زوجك مدى الحياة يتطلبان سحرا من نوع خاص، إلا أنه حلال، بل هو عين الحلال.

لو أردنا تلخيص الأمر في كلمة واحدة يمكننا القول امنحيه حبك الخالص فقط.

ربما هذه هي مهمتك الأبرز، ووظيفتك الأساسية كزوجة منح الحب ونثر السعادة.

حددت الآية الكريمة هذا الدور في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم:٢١). يمتن الله على عبده بتلك الزوجة المحبة الودود التي تمنحه مودتها ويسكن إليها قلبه ويتبادلان التراحم والمساندة، فليست هناك نعمة في حياة الرجل أعظم من الزوجة الصالحة.

المودة التي ذكرت في الآية هي أعلى درجات الحب، فهي أكثر خصوصية، وأثبت جذورا، وأعمق تلازما للقلب.

لكن كثيرا من الزوجات تشكو من أنهن أحببن وأعطين وتفانين ولم يجدن ما يأملن من صدى لمشاعرهن، وهناك من تزداد آلامهن حين يعلمن أن أزواجهن لا يبادلهن المشاعر فقط، بل يبحثون دائما عن غيرهن، وكلما زاد عطاؤهن زاد نفورهم فما السبب؟

يبحث الرجل في الزواج، بشكل أساسي، عن الحب والاحتواء، وتلك المشاعر التي تلفه وتريحه وتملأ حياته بهجة وهدوءا. يبحث أيضا عمن تفهمه، وتلهمه، وتعكس له صورة إيجابية عن ذاته. وتلك المشاعر أهم عنده من الجنس ومن الخدمات المنزلية التي تقدمها له الزوجة ومن الإنجاب نفسه، فهو يبحث أولا عن راحته، ثم تأتي مزايا الزواج الباقية في ترتيب تال، وذلك لأنه يتعب ويشقى في الحياة وصراعات العمل، ويريد العودة إلى بيت يجد فيه واحته الظليلة من هجير الحياة.

فإذا عاد ليجد زوجته تمتلئ نفسها منه استياء وغضبا، ويعكس وجهها عدم الرضا، ثم سارعت بانتقاده وتقييمه في كل كلمة أو تصرف، ثم أشعرته أنه أقل شأنا من غيره من الرجال، لأنه لا يلبي طموحاتها، ثم لجأت إلى معاملته بأسلوب الوعظ والإرشاد وكأنه طفل لا يحسن أمرا،

ثم أرادت أن تخفف وقع ذلك في النهاية فارتدت ثوبا جديدا وتجملت بشكل فج وابتسمت لتمثل عليه دور الزوجة الكاملة وسألته كيف تراني؟ وما رأيك في الطعام الذي أعددته؟ فلا عجب لو انتهز الفرصة ورد لها كل إهاناتها السابقة، فتتعجب، وربما بكت وهي تتساءل: بعد كل ما أفعله؟

ما فعلتيه يا سيدتي، هو أنك أخفقت في توصيل رسائل الحب له، وبدلا منها وصلته رسائل سلبية تقول: «لا أحبك كما أنت؛ ولذلك أريد تعديلك وتحسينك. كما أنني تورطت في زواجي منك؛ ولذلك أحاول، عبر الانتقاد والوعظ، أن أغيرك. ما تقدمه لي لا يرضيني، ولكنني أحاول تمثيل دور الزوجة المحبة وأنت لا يعجبك؛ فأعاقبك بالنكد والحزن والبكاء، وبدلا من أداء وظيفتي في منح المحبة ونشر السعادة فإنني أتفنن في جلب التعاسة».

ما فعلتيه أنك لم تستطيعي الوصول إلى حب الرجل، وحب الرجل جوهرة ثمينة تكمن داخل صدفة قلبه، فإذا عرفت كيف تفتحين قلبه وتصلين إلى الجوهرة فستملكينها وتستمتعين بأحلى المشاعر التي ترفعك محلقة فوق السحاب، وسوف تجربين بنفسك معاني الحب الحقيقي التي تغنى بها الشعراء وتفنن في وصفها المحبون.

كيف يحدث سحر الحب؟ وهل يهبط على ذوي الحظ الحسن أم إنه عمل وأسلوب؟

في الحقيقة، هو عمل وأسلوب، ويمكن اختصاره بالحب الصادق، فالحب الصادق هو نفسه الحب الساحر.

أما التفاصيل فكثيرة.. الحب الصادق لا يرى العيوب، لكل إنسان عيوبه ونقائصه، ولكن الحب ينظر بعين الرضا، وعين الرضا عن كل عيب كليلة لا تراها، أو على الأقل تقبل وجودها ضمن الباقة كلها، فأنت تختار شخصا غير قابل للتجزئة، لن تأخذ منه ما يروقك فقط. والحب الصادق لا يسعى إلى تغيير صفات المحبوب قسرا وقصدا، لأن ما نسعى إلى تغييره معناه أننا نرفضه، ولكننا حين نتقبل الشخص بكل ما فيه فإن حبه لنا وتقديره سيستخرجان منه أفضل ما فيه، وسيتغير حتما للأفضل، ولكنه سيتغير بطريقته هو وبإرادته وليس عن طريق تدخلنا وتسلطنا عليه.

الحب الصادق الباطن فيه أقوى من الظاهر. لا حب مع امتلاء النفس بالاستياء والغضب، فأنت تشعين ما في نفسك؛ ولذلك تخلصي فورا من تلك المشاعر السلبية، واملئي نفسك بخيال الحب وأحلامه، ثم ارسلي طاقة الحب وعبيره الفواح الذي يفصح عن نفسه بشكل لا يخفى على أحد.

ودائما، عزيزتي الزوجة، تخلصي من تراكم المشاعر السلبية بداخلك، واملئي قلبك حبا ليشع هالة نور من حولك.

الحب الصادق لا يعبر عنه بالكلمات فقط، بل بجميع الحواس: اللمس والشم والنظر والذوق والحاسة السادسة أيضا، ولغة الجسد، وبريق العيون، وبسمة الشفاه الحانية النابعة من القلب، والخجل الفطري الذي يأبى انتهاك حلاوة الإحساس بكثرة الكلام وصراحته وفجاجته.

حين أسمع من تقول أجلس مع زوجي وأقول حدد ماذا تريد مني ونتناقش.. هذا تفاوض شركاء في عمل أو تجارة وليس مناجاة عاشقين تكفيهما نظرة أو كلمة واحدة. ولست مع كثرة ترديد الكلام العاطفي ما لم يكن نابعا من القلب، فالكلام دوره في سحر الحب مثل رشة الفلفل على الطبخة المتقنة.

الحب الصادق معناه صورة حلوة تعكسها عيناك لزوجك، وفي الوقت نفسه ليست مزيفة، ولكنها أجمل لقطة من أفضل زاوية مع ضبط الظل والنور سوف يتعلق زوجك بانعكاس صورته الجميلة في عينيك، فيستغني بك عن كل النساء، ويراك هو أيضا أكثرهن جمالا وسحرا.

الحب الصادق فيه دعم ومساندة وتشجيع، ورضا بالعطاء، وتحفيز للوصول إلى مراتب أعلى في كل المجالات. الحب الصادق هو حب الثقة، وليس حب الرعاية، حب الرعاية نمنحه لأطفالنا القصر، فنقدم الخدمات ونربي ونوجه ونعلم ونحذر و.. و.. و.. أما مع الزوج فحب الثقة فقط، الثقة في رجولته وضميره وكفاءته وقدراته والتعزيز الدائم لثقته هو بنفسه، وليس فيه تشكك، أو ترصد، أو تصيد للخطأ، أو تجسس. الحب الصادق فيه استقلالية وليس تبعية، فعلى الرغم من اعترافك بقوامة زوجك فإن ذلك لا يعني أنك مجرد تابع عديم الشخصية، بل معناه ترتيب الأدوار، فأنت تؤدين أعمالك وتطورين نفسك وتضيفين إلى حياته الكثير وتتحملين معه المسؤولية.

الحب الصادق انفتاح روحين، يرى كل منهما الجمال الداخلي في الآخر، والبصمة المميزة التي خصه الله بها وحده، وبالتالي يكتفي به ويرتبط ولا مجال لمقارنته بغيره.

الحب الصادق كائن حي ينمو ويتطور ويتغير بمرور الوقت ليتناسب مع كل مرحلة عمرية وحياتية، فيتجذر وجوده، ويشتد عوده بمرور الزمن، ويمتد ظله على من حوله من أبناء وأحباب.

الحب الصادق هو السحر الحلال الذي لا يملك الرجل الفكاك من أسره، ويستمتع بوجوده في روعته وجماله.

تأملات في كلمة «الأرحام»

عبدالباقي يوسف
باحث سوري

نقف بشيء من التحليل مع كلمة «الأرحام» الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾(آل عمران:٦) يفصلكم، ويشكل تكوينكم ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ التي هي موضع تصويري لكم، رحم المرأة، من هذا الموضع تبدأ رحلة رحمة الأم بوليدها، إنها تربيه في رحمها، وهو يدغدغ رحمها، وكلما تنظر إليه نظرة، تذكر بأنه نبت في رحمها، وهذا يزيدها رحمة وشفقة به، مهما بلغ من الخشونة فيما بعد، ولذلك فإنها تكون أكثر رحمة به من أبيه.

والرحم، من مشتقات الرحمة، والله رحمن رحيم، يقول في الحديث القدسي: «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» (١).

إن تكوين الإنسان في الرحم، يجعله مائلا إلى التراحم، وكذلك إلى صلة الرحم، وصلة الرحم تعني أن تتواصل مع من جمع بينكم الرحم الواحد، والذي تتفرع منه فروع، وهذا ما نعبر عنه بـ «الأقارب»، فيحضك الإسلام على أن تكون على صلة بأقربائك.

يقول النبي ﷺ: «إن الله تعالى يخلق عظام الجنين وغضاريفه من مني الرجل، وشحمه ولحمه من مني المرأة». ومما ورد من حديث ثوبان في صحيح مسلم: «أن اليهودي قال للنبي ﷺ: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض، إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: (ينفعك إن حدثتك)؟. قال: أسمع بأذني، قال: جئتك أسألك عن الولد. فقال النبي ﷺ: (ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله».

وثمة أحاديث عديدة تبين كيفية تأسيس الإنسان في الرحم، وكذلك تبين المسار الذي سوف ينتهجه هذا الجنين في حياته، مما يبين علم الله بالغيب.

يقول النبي ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك»، أو قال: «يبعث إليه الملك بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أو سعيد»، قال: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (٢).

تبين هذه الأحاديث بأن تكوين الإنسان الأولي يكون في رحم المرأة، والإنسان يأخذ من أمه أكثر مما يأخذ من أبيه، وتبذل أمه جهدا به أكثر مما يبذل أبوه، ولذلك لايكون للرجل أن يحرم الأبناء من أمهم، أو يحرم الأم من أبنائها، وهو يقرر الانفصال عنها، أو طلاقها، وهذه المسألة عليها أن توقفه كثيرا قبل أن يتخذ قرارا مصيريا كهذا، وألا يرجح كف أنانيته، أو مصلحته الشخصية، أو راحة باله على أساس هذا الحرمان الذي هو ظلم كبير بالأولاد، وبالأم أيضا، إلا في حالات استثنائية، وهي أن الأم يمكن لها أن تفسد الأبناء، وهذا ما لا يحدث إلا في حالات شديدة الاستثنائية، لكن على الأغلب فإن الأب يقرر هذا الحرمان، كي يحقق لنفسه راحة من المرأة التي اكتشف بأنه غير سعيد معها، بعد أن أنجب منها، أو أنه يريد أن يتزوج بأخرى، ولذلك ترى بأن الطلاق هو ليس بغيضا فحسب عند الله، بل هو أبغض حلاله عنده، وكذلك فهو أبغض حلال الله عند الناس، بسبب ما تترتب على هذا الطلاق من سلبيات بحق الأبناء.

فإذا نظرنا إلى عملية ضرب الأبناء، نرى بأن الابن لا يشعر بأن أمه ضربته وهي تضربه بالفعل، لأن التي تضربه، إنما هي التي نبت في رحمها، وهي تضربه برحمة ما نبت في رحمها، بيد أن الابن يشعر بأنه ضرب بالفعل عندما يضربه أبوه.

من هنا، فإن الانتكاسات الأولية تتشكل في بنية الطفل على قدر ما يتلقى الضرب، أو الإهانة، أو التوبيخ، من أبيه، وليس من أمه، وهو من شأنه أن ينمي لدى الطفل شعور النقص، أو عقدة الدونية.

وإذا كان ضرب الأب للابن يأتي بنتائج سلبية في مراحل تربيته، فإن ضربه للابنة يكون أكثر سلبية، ذلك أنها تمتلك رحما خرج من رحم، وهذا ما يجعلها أكثر رقة وشفافية من أخيها، لأنها تعد لتكون أما، في حين يعد أخوها ليكون أبا، وهي عندما تكبر تبقى محافظة على مساحة الرحمة في قلبها، كي ترحم به جنينها، وهو في رحمها، ثم كي ترحمه به وهو يكبر يوما بيوم على صدرها، في حين أن الابن الذي يغدو رجلا يملك أن ينزع الرحمة من قلبه، وأن يقسو، بل حتى يمارس القتل بأقسى ألوانه، لكن المرأة

وهي تشاجر امرأة، قد يبلغ بها الأمر أن تشد شعرها، أو تعضها، وينتهي الأمر عند هذا الحد، لأن ذلك جل ما يسمح به رحم المرأة لها، لكن الرجل عندما ينقض على رجل، قد يفتك به، ويبلغ به مرحلة القتل، لهذا نرى بأن أول جريمة في التاريخ الإنساني لم ترتكبها المرأة، بل ارتكبها الرجل بحق الرجل، وإذا صدف وأخطأت الابنة خطأ فادحا، فإنها تخبر أمها، أو أختها، أو حتى خالتها، أو عمتها، وهي تأمن رحمها، ولا تخبر الأب، أو الأخ، أو أي رجل في العائلة، لأنها لا تأمن رعونته، ورد فعله، وحتى في جرائم الشرف، فإن الرجل يقوم بها، حتى

لو كان صغيرا، وقتل أخته التي نبتت معه في ذات الرحم، ولا تقدم عليها المرأة مهما كانت كبيرة، رغم أن المرأة هي الأكثر ضررا نتيجة خطيئة الابنة، والرجل هو الأقل ضررا نتيجة ذلك، فأول ما يصيب الأذى، أمها، ثم أخواتها، ثم من هن على صلات رحم بها، حيث قد يطال الأذى مستقبلهن ويعيقهن في الزواج، لكن ذلك لا يطال مستقبل الرجل، ولا إعاقته في الزواج مهما كان مقربا منها، ولذلك فإن الجرائم الكبرى والصغرى، على الأغلب يرتكبها الرجال. وما يلحقه الرجال من أهوال وكوارث بالإنسان والطبيعة، لهو أكثر مما تفعل النساء، والرجال عادة هم الذين يقررون الحروب الكبرى، في حين أن النساء يبكين فلذة أكبادهن الذين تودي تلك الحروب بهم. ثم عقب ذلك قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ معنى ذلك أن له المشيئة في خلق هذا الإنسان، سواء أجعله أبيض، أو أسود، قصيرا، أم طويلا، ذكرا، أم أنثى. ثمة حديث نبوي بهذا الصدد يقول: «إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوما، ثم تكون علقة أربعين يوما، ثم تكون مضغة أربعين يوما، فإذا بلغ أن يخلق، بعث الله ملكا يصو ر ها . فيأتي الملك بتراب بين إ صبعيه ، فيخلطه في المضغة، ثم يعجنه بها، ثم يصورها كما يؤمر، فيقول: أذكر أو أنثى؟ أشقي أو سعيد، وما رزقه؟ وما عمره؟ وما أثره؟ وما مصائبه؟ فيقول الله، ويكتب الملك. فإذا مات ذلك الجسد، دفن حيث أخذ ذلك التراب».

﴿لَآ﴾
نفي مطلق
﴿إِلَٰهَ﴾
رب
﴿إِلَّا﴾
دون
﴿هُوَ﴾ الله الواحد الأحد الذي لا شريك له، المتفرد بأنه إله الخلق جميعا، وقد ورد في هذا المقام اسم الله الحسن.
﴿ٱلْعَزِيزُ﴾
الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير، وهذا تذكير للناس بأنه قادر أن يعز من يشاء، وقادر أن يذل من يشاء، وقد قال قبل ذلك في ذات الآية: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، ثم جاء اسم الله تعالى الحسن.
﴿ٱلْحَكِيمُ﴾
وفق حكمة إلهية خالصة في الخلق لا يعلمها إلا الله، وهي آيات لأولي الألباب ليتفكروا بها، ويأخذوا منها العبر، كونها تبين للناس بأن مشيئته جل وعلا لا تأتي عبثا، بل هي لحكمة إلهية خالصة، تسري في خلقه، وهم وفق هذه الحكمة يخرجون من ظلمة الرحم وسكونه، إلى ضوء الحياة وضوضائها، والسعي في مناكب الأرض.

يبين ذلك بأن كل مخلوق إنما هو حكمة من حكم الله تعالى، ولا شيء لا لزوم له في الحياة، فإن مات جنين في رحم أمه، فهي حكمة مقدرة من الله تحمل رسالة لأولي الألباب في زمانها ومكانها وأشخاصها، وإن عمر هذا الرجل ماشاء الله، فهي حكمة مقدرة من الله، تحمل رسالة لأولي الألباب في زمانها ومكانها وأشخاصها.

الهوامش

١- أخرجه الترمذي، وصححه، عن عبدالرحمن بن عوف.
٢- رواه البغوي في تفسيره.
٣- أورد الطبري هذا الحديث في تفسيره، وأخرجه الترمذي، وصححه، عن عبدالرحمن بن عوف.
٤- رواه البغوي.

في رثاء الشيخ الدكتور عبدالهادي مسوتي

د. حسان الطيان
أستاذ اللغة العربية في الجامعة العربية المفتوحة

اليوم مات معلمي، مات التقي والنقي، منه تعلمت طلب العلم، وأنا طفل ريض غض لا أتجاوز السابعة، وفي صحبته عرفت الكثير من رجالاته، وفي غرفته كانت أولى دراساتي، وفي مكتبته كانت أولى مطالعاتي، ثم حين شببت عن الطوق تعاهدت معه على حفظ القرآن، فتابع وقصرت.. وأكمل وما نصفت..

وكان أعظم درس تعلمته منه، جلوسه بين يديَّ طالبا في معهد الفتح، وهو الصيدلي المتقن، والحافظ القارئ المقرئ، والعالم العامل المعلم، ليحصل على الإجازة في العربية من الأزهر، بعد أن حصل على إجازة الصيدلة من جامعة دمشق، وإجازة العلم الشرعي من أكابر شيوخ دمشق، وعلى رأسهم شيخ الشام وريحانتها سيدي العلامة الشيخ عبدالرزاق الحلبي رحمه الله وأعلى في الجنان مقامه.

على أن أعظم عطاء حصله، وأجل منحة منحها، كانت كتاب الله عزوعلا، حفظا وتجويدا.. ورعاية وتعهدا وتعليما.

فمضى لغايته ولسان الحال يردد عرفت فالزم، يقطع الليل آيات وقرآنا، فرقى لعمري فوق كل رقى، وسما بدنياه إلى أهل السما.

فهنيئا لك أيها الخال الحبيب ما نلت وما حزت، وليهنك العلم الذي حصلت، وليهنك الذكر الذي حفظت، وليهنك الصبر الذي صبرت، أعلى الله في الجنان مقامك، وبلغك سؤلك ومرادك، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

... وتعود بي خيوط الذاكرة إلى أكثر من نصف قرن مضى، فيتراءى لي فتى يافع لا يتجاوز العاشرة من عمره، يتأبط كتاب الهدية العلائية في الفقه الحنفي، ليتوسط حلقة من حلقات العلم في مسجد السادات بدمشق الشام، ويكتنفه طفلان غريران، يلوذان به، ويحتميان بظله، عله يشفع لهما جلوسهما في مجلس لا يجلس فيه إلا الكبار عادة.

أما شيخ المجلس فهو شيخنا الشيخ عبداللطيف الفرفور، وأما الطفلان فأنا وأخي رضوان.. وأما الغلام اليافع الناشئ في رحاب العلم فهو خالي عبدالهادي مسوتي رحمه الله وبرد مضجعه.

كان ذلك أول العهد بطلب العلم، ومجالسة العلماء، والمزاحمة بالركب.. وأحسبه كان عام ١٩٦٤.

وتمضي الأيام.. تتبعها الشهور والسنون، فما تزيده إلا حرصا على طلب العلم، وحبا برجالاته، وتشبثا بحباله، واحتفاء بأهله، واقتناء لكتبه.

أذكر أن والدتي - أطال الله في النعمة بقاءها - كانت تستعير منه كتب الطنطاوي، وما إن تنتهي من كتاب حتى تشرع بالآخر، وانتقلت إلينا عدوى الشغف بالمطالعة، وأكرم بها من عدوى، فبتنا عاشقين للكتب، نترقب فراغ الوالدة من أحدها لنعكف عليه قارئين مستمتعين ومفيدين.

وكان الخال الحبيب عبدالهادي مع أخويه هشام وفريد أترابا لنا وأقرانا، لا نجد دنيانا إلا بهم، ولا يروق لنا العيش إلا معهم، ولا تحلو لنا الحياة إلا في كنفهم..غادين رائحين، وعابثين لاعبين.. لا يخشى علينا الأهل شيئا من غوائل الطفولة وطيشها مادام معنا عبدالهادي مرشدا وموجها وصمام أمان من كل منزلق، إذ كان الأكبر فينا.

وكم أسس لنا من مشاريع يختلط فيها اللعب بالجد، والأنس بالفائدة، والمتعة بالتعليم والعلم..

حتى إذا شب عن الطوق أخذ نفسه أخذا حازما بالجد والاجتهاد والعلم والعمل، فكان القدوة الصالحة لنا، وكم كنت أغبط أخي رضوان على صحبته له في صف واحد، ودراسة مشتركة، ونجاح مطَّرد.

وخار له المولى سبحانه أن يدرس الصيدلة فكان المبرز فيها، ولم يصرفه ذلك عن طريق العلم الشرعي، بل كان ينهل من مجالسه ويتفنن في حضور حلقاته، بدءا من حلقات الشيخ عبداللطيف صالح الفرفور، وبعض حلقات والده الشيخ صالح، ومرورا بحلقات تلامذته وعلى رأسهم شيخنا العلامة الشيخ عبدالرزاق الحلبي، وانتهاء بدروس الشيخ لطفي الفيومي، والشيخ أحمد نصيب المحاميد، والشيخ حسين الخطاب، والشيخ كريم راجح، والشيخ هشام البرهاني والشيخ محمد سكر.. وغيرهم كثير، عليهم رحمات المولى سبحانه.

رحمك الله يا أبا نزار بكل حرف قرأته أو أقرأته.. وجودته أو صححته.. في كتاب الله جل وعلا، ورحمك الله بكل صبر صبرته، وكل كأس تجرعته، وكل هم حملته.. وجعل مقامك في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وجزاك عنا وعن أهلك وتلامذتك وأمتك خير ما جزى راعيا عن أهله، ومقرئا عن صحبه وتلامذته، وعالما عن قومه وأمته.

المَدحُ والقَدحُ

الضوابط والآداب

كمال عبدالمنعم
باحث مصري

المدح والثناء والإطراء، يكون بذكر جميل الفعال والخصال، والذم والقدح يكون بذكر القبيح من القول والفعل، وكلاهما ذكرا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد مدح الله تعالى أقواما وذم آخرين، وكذا الرسول الكريم ﷺ، ومن مدحه الله ورسوله فلا يستطيع أحد ولا ينبغي له أن يذمه، أما من ذمه الله ورسوله فلا مادح له، ولا رافع لشأنه وقدره، إذ لا معقب على قول الله ورسوله، أما المدح والقدح الذي يصدر من البشر تجاه بعضهم البعض، فهذا مما ينبغي التوقف عنده طويلا، لأن ذلك قد يكون في جانب العدل أو في جانب الزيغ أو الشطط، والمعيار لضبط ما يصدر عن الناس من مدح وقدح هو المنهج الإلهي، والميراث النبوي في الحكم على الناس وعلى أقوالهم وأفعالهم.

لقد مدح الله تعالى نفسه، لا لأنه يحتاج إلى مدح، ولكن ليعلمنا نحن بكمال قدرته، وليبصرنا بعظم تدبيره في خلقه، لنزداد إيمانا على إيماننا، وأجل وأعظم ما وصف الله نفسه به، ومدحها به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾، ذاك لأنه المتفرد بالألوهية، والمستحق للعبودية، فلا إله ينازعه، ولا رب يشاركه، وهو المنزه عن الشبيه والنظير والزوجة والولد، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص ١-٤)، وورد مدح الله تعالى لنفسه في آيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨)، أي أنه نعم المعين والناصر والسيد والسند، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ (الذاريات:٤٨)، أي أن الله تعالى فرش الأرض ومهدها للعيش فوقها بطمأنينة وسكينة، فلا تميد أو تميل بما عليها ومن عليها، وذلك من إعجاز خلقه في كونه سبحانه وتعالى.

ومدح الله تعالى الجنة دار المتقين، ووصفها بأجمل الأوصاف ليرغبنا فيها، ولنجد السير، ونشمر عن ساعد الجد، لنفوز بها في الآخرة، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد:١٥).

أما رسول الله ﷺ فقد مدح أشخاصا بعينهم وبشرهم بالجنة، روى الترمذي وأبوداود وصححه الألباني عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة»، ومدح المؤمن القوي وفضله على المؤمن الضعيف، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

أما الذم من الله فكان أيضا لأصناف من البشر ممن أشرك به وعبد غيره، وحرف كتبه، وأساء إلى رسله، وطغى وبغى، وأكل أموال الناس بغير حق، وأكل الربا، وارتكب الفواحش والموبقات، وأفسد في الأرض، كذلك ذم بعض أفعال العباد التي يرتكبونها، وهي لاشك معصية له عزوجل، مثال ذلك قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (الحجرات:١١)، وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (المائدة:٨٠)، وقوله عزوجل: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:٦٣).

إن الإنسان ليعجب أشد العجب من هذه الجارحة، أقصد: اللسان التي اجتمعت فيها كل فعال الخير والشر، فبه يتلو الإنسان القرآن، ويذكر الرحمن، ويصلي على الحبيب المصطفى، ويصلح بين المتخاصمين، ويشهد الحق، وينطق بالصدق، ويثني ويمدح، وبجارحة اللسان أيضا، يسب ويلعن، ويهجو ويقدح، ويشهد الزور، وينطق بالفجور، ويغتاب وينم، لأجل هذا ذكرنا ربنا سبحانه وتعالى بخطورة ما نتكلم به، وأننا سنحاسب على كل ما يصدر منا، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، وروى الترمذي وأحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان (تذل له وتخضع، وقيل: تذكر) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

لقد كره الإسلام المدح المبالغ فيه، لأنه يؤدي بصاحبه إلى العجب، وقد يصل به إلى القعود عن العمل الصالح، وقد يجره إلى الكبر والخيلاء، مدح رجل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فقال له: يا خير الناس، وابن خير الناس، فقال له: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله على غزارة علمه، ورفعة قدره ومكانته، كان يكره المدح، ويكثر التوبيخ لنفسه، قائلا: والله منذ أن أسلمت وأنا أجدد إيماني، ما بي شيء، ولا مني شيء، أنا المكدي (أي: شديد الفقر والحاجة إلى الله تعالى)، وابن المكدي، وهكذا كان أبي وجدي، ثم أنشد قائلا:

أنا الفقير إلى رب البريات
أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي
والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة

ولا عن النفس لي دفع المضرات

أما الذم الذي يصدر من العباد فقد تنوع وتشكل إلى حد التطاول على الذات العلية، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم:٨٨-٩٢)، وروى البخاري في صحيحه والنسائي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله عزوجل: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفوا أحد».

ووصل الذم من البشر إلى الرسل والأنبياء، فاستهزأوا بنوح عليه السلام، وعذبوا إبراهيم عليه السلام، وسجنوا يوسف عليه السلام، وآذوا موسى عليه السلام، وقتلوا زكريا عليه السلام، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، أما محمد ﷺ فقد نال منهم الكثير، فوصفوه بالشاعر، والكاهن، والساحر، والمجنون، وحاولوا بكل ما أوتوا من أساليب الذم والتوبيخ والأذى أن يثنوه عن تلك الدعوة التي بعثه الله بها.

ولم يسلم الوحي المنزل من قبل الله تعالى على رسولنا ﷺ من هذا القدح، فقال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان:٥)، وقال سبحانه مخبرا عن أحد عتاة الشرك، وهو الوليد بن المغيرة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم:١٥).

إن المسلم المتزن لابد أن يقيم ما يصدر عنه من مدح وقدح، فلا يمدح بغير حق فيكون منافقا، ولا يقدح بغير حق فيكون مغتابا، وسواء كان هذا أو ذاك فهو فعل مذموم يجلب على صاحبه الإثم والعقاب من الله تعالى، وأقول نصيحة لنفسي أولا، و للقارئ الكريم: نزه لسانك عن كل ما يؤدي إلى عقاب الله وغضبه، سواء كان مدحا بغير حق، أو قدحا بغير حق، ونزه جوارحك أن ترتكب الإثم والسوء، فيا سعادة من سار على الوسطية التي أمر بها ديننا الحنيف، فلا إفراط ولا تفريط، عندها يكون من الفائزين الناجين، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

مَدْرَسَةُ «وَالِدَةِ عَتِيق».. كلية إيمانية جامعة

اسطنبول : تركي محمد النصر

زارت مجلة «الوعي الإسلامي» مدرسة والدة عتيق في مدينة إسطنبول العريقة، والتقى رئيس تحريرها فيصل يوسف العلي بمدير شعبة العربية ب(إيثار) د. أحمد صنوبر، حيث تم اللقاء في إحدى المراكز العريقة التابعة للكلية، وهو مركز البحوث التركية (ISM) هذا المركز الشامخ الذي أسس بدعم من رئاسة الشؤون الدينية التركية، بهدف نشر العلوم والثقافة الإسلامية بشكل علمي منهجي.

وتحدث صنوبر عن هذه الكلية الجامعة العريقة، وعن أقسامها ومراكزها، وأهم مراحل تطورها قائلا:

أنشأ هذه المدرسة العريقة السلطان مراد الثالث بين عامي (١٥٧٠-١٥٧٩م) ملحقة بمسجد الوالدة عتيق، (أي: والدة السلطان مراد الثالث السيدة «نور بانو»).

وتولى بناء هذا المسجد الشامخ مع ملحقاته ومدرسته العريقة المعمار الشهير «سنان» باني «جامع السليمانية» في الطرف الأوروبي، وكانت هذه المدرسة هي آخر بناء له قبل وفاته رحمه الله تعالى.

ملحقاتها ومحتوياتها

يتبع هذه الكلية الجامعة: (جامع كبير، ومدرسة تعليمية، وتكية، ودار للحديث، ودار للقراء، ومستشفى، وحمام، ودار للضيافة، وفندق ضخم، ومطبخ ومطعم).

وتحتوي هذه المدرسة على (١٨) غرفة، إضافة إلى قاعة الدرس، وكانت المدرسة في العصر العثماني مدرسة عالية، متخصصة قوية، لا يلتحق بها إلا أقوياء الطلبة، ولذلك كانوا يختارون منهم (١٨) طالبا فقط، يعيشون في غرف المدرسة ويدرسون مع علمائها.

وتعد هذه المدرسة أهم مدرسة عثمانية في القسم الآسيوي من إسطنبول، وهي مدرسة ستينية، أي: في أعلى مستويات المدارس العثمانية، حيث كان تصنيف المدارس في الدولة العثمانية بحسب الكتاب المدرس، أو بحسب رواتب الأساتذة، وكانت (ستين فضية) أعلى رواتب للمدرسين في ذلك الوقت.

وجاء الثناء على هذه المدرسة في أكثر من موضع في كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبي، حيث كان يذكر بعض العلماء الذين درسوا فيها، ويذكر أنه ترقى حتى وصل إلى التدريس في هذه المدرسة مثل:

١- فيض الله طورسون، ثم ترقى في المدارس إلى أن وصل إلى مدرسة «والدة السلطان بأسكدار».

٢- والعلامة ابن المهمندار الحلبي الحنفي، الذي رحل إلى إسطنبول «ثم درس بمدارس دار الخلافة إلى أن وصل إلى مدرسة والدة السلطان مراد».

كما ذكر المحبي، وغيرهم من كبار العلماء.

أهم مراكز المدرسة

يُعتبر مركز العلوم والفنون (ISM) من أهم مراكز هذه المدرسة العريقة، هذا المركز الشامخ الذي أُسس بدعم من رئاسة الشؤون الدينية التركية، بهدف نشر العلوم والثقافة الإسلامية بشكل علمي منهجي عام (٢٠٠٧م) بعد أن رمّمت من الخراب الذي أصابها في العهد الجمهوري للدولة التركية.

استقطبت المدرسة أذكياء طلاب كلية الإلهيات من جامعة مرمرة، حيث تستقبل - بعد امتحانات عديدة للمتقدمين - أعلى الطلاب والطالبات درجة لتوفر لهم:

١. برنامجا تعليميا قويا لمدة ٤ سنوات، يدرس فيه الطالب علوم اللغة العربية بشكل مكثف، وعلوم الآلة: (المنطق، والبلاغة، والعقائد، والفقه الحنفي، والفلسفة، وعلوم الحديث، والقرآن، والتفسير) وغيرها من العلوم. فضلا عن مجالس التزكية والتربية والتهذيب، ويُعطى الطالب بعد انتهاء الدراسة إجازة بالعلوم التي درسها.

٢. برنامجا للانغماس اللغوي في بلد عربي، وعادة ما يكون أحد بلدان الشام.

وبين المركز ومعهد «قاصد» لتعليم اللغات في الأردن الآن اتفاقية تعاون مشترك في تبادل المدرسين واستقطاب الطلاب.

٣. السكن والطعام المجاني، حتى يتفرغ هؤلاء الطلاب الأذكياء للدراسة والتعلم.

٤. مكافأة شهرية للطلاب.

٥. رحلات سياحية وترفيهية داخلية وخارجية.

هذا، ويحصل الطالب الدارس في هذه المدرسة العريقة بعد قضاء خمس سنوات في الطلب العلمي المنهجي على إجازة في العلوم التي درسها، وهي عشرون مادة علمية وثقافية وإيمانية.

وبهذا تكون مدرسة والدة عتيق مركزا إشعاعيا لنشر الدعوة الإسلامية ولغة القرآن الكريم بطريقة علمية منهجية وسطية راقية.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

دولة الكويت
مكتبة مجلة

حول النقد

بقلم عباس محمود العقاد

من المعروف عن الناس جميعا انهم يميلون الى الثناء والتقريظ ، وينفرون من الذم والانتقاد

وحب الثناء فى جملته خصلة حسنة محمودة العاقبة لأنه يدعو الى طلب الكمال . وما لم يكن نزوة من نزوات « الانانية » العمياء فهو سبيل الى العمل الذى يستحق الثناء

ولكن كراهة النقد ليست بصفة محمودة فى جميع الاحوال لأنها تنطوى على اخطاء كثيرة تدل على ضيق العقل . كما تدل على ضيق الخلق وضيق المجال

أول هذه الاخطاء ، اعتقاد المرء ان الناقد افضل دائما من المنقود فهو اذا سمع النقد ظن ان الذى يوجهه اليه يستعلى عليه ويدعى انه مبرء من العيب الذى يسنده اليه ولولا ذلك لهان وقع النقد فى نفسه لأنه يشعر انه ومن ينقده سواء

وقد يكون المنقود أفضل من الناقد فيما يتعلق بذلك العيب وفيما يتعلق بسواه . والحقيقة المشاهدة ان الناقد لايكون افضل من المنقود فى عيوبه ولا اقدر منه على عمله المنتقد ولا على سائر اعماله . كل منا يستطيع أن ينظر الى بيت من البيوت فيرى انه سخيف البناء غير صالح للسكن . ولكننا لا ندعى لهذا اننا اقدر على البناء والهندسة من بانيه ومهندسه ، وقد يعيى الكثيرين منا أن يقيموا حجرا على حجر فى جدار صغير . وكل منا يذوق الطعام فيستعذبه او يعافه . وليس كل آكل بقادر على اعداد صفحة من الطعام خير من التى يعافها ، ولو كان عليما بكل عيب من عيوبها فى صناعتها وفى مذاقها. وكل منا يستطيع ان يقرأ كتابا فيشعر بنقصه فى جانب من جوانبه لأنه كان ينتظر المزيد من البيان فى ذلك الجانب ولكن لا يفهم من ذلك ان القارىء المنتقد اعرف بصناعة التأليف من صاحب الكتاب . وقصة المصور الصينى معروفة ، تصلح للذكر فى هذا المقام : كانت له صورة يعرضها ويتوارى خلف ستار المصنع ليستمع الى أقوال الناظرين اليها . وكان منهم اسكاف عاب شكل الحذاء لأنه لا يطابق القالب المخصص لصنعه فأخذ المصور بملاحظته واصلح عيبه كما اقترح الاسكاف . وعاد هذا فى اليوم التالى فأطمعه التفات المصور الى رأيه واكثر من الملاحظة على اجزاء الصورة من الرأس الى القدم . فبرز له المصور من وراء الستار وأملى عليه درسه فى هذه المرة : انك احسنت فيما عرفت . فلا تسىء فيما تجهل . وقف بقدميك على حذائك ولا تزد عليه . ومهما يكن من احسان هذا الناقد فى ملاحظته فهو احسان كلام لا احسان عمل . لأنه لو سئل أن يصلح الخطأ فى حذاء الصورة لما استطاع أن يزيل عيب الصناعة فيها . ولا يزال المصور أقدر منه على اصلاح عيوب الصورة حتى فى شكل الحذاء

فالناقد يبدى ما يشاء من العيوب ولا يجعله ذلك افضل ولا اقدر على اصلاح العيوب من صاحب العمل . اذا كره الاستماع اليه انفة من التسليم له بالتفوق عليه . حتى لو اعتقد صاحب العمل أن التفوق عليه ممتنع او مستحيل ، ولا امتناع ولا استحالة فيه . ويحسن بالناقدين والمنقودين جميعا أن يذكروا ان القدرة على اظهار العيوب أسهل جدا من القدرة على اظهار الحسنات . فان الطفل الصغير قد ينظر الى أعظم العظماء ، فيضحك منه ويلمح عيوبه الظاهرة من لمحة خاطفة وقد يستطيع أن يحكيه فى عيوبه سخرية وعبثا فيجيد محاكاته كل الاجادة ولكنه يقضى عشرات السنين قبل ان يعرف حسناته وفضائله . وقد يقضى العمر كله ولا يقدر على محاكاته فى حسنة من حسناته او فضيلة من فضائله . كما استطاع فى طفولته أن يحاكى ذلك العظيم فى مشيته او لهجة كلامه او جملة حركاته

وما برحت معرفة العيوب قريبة الى أصحاب العيوب ومعرفة الحسنات عسيرة على غير أصحاب الحسنات

ومن أخطاء الكارهين للنقد ان كراهيتهم لم تنم على ضعف الثقة بالنفس ، كما تنم على ضعف الثقة بالناس وضعف الثقة بالقيم الادبية وكل قيمة من قيم التقدير والكرامة

فالرجل الذى يعرف عمله لا يضيره أن يجهله غيره . والرجل الذى يملك ثروته ويأمن عليها لا يضيره ان يحسبه هذا او ذاك فى عداد الفقراء. ومن كان واثقا من قوته فهى بين يديه يجدها

مجلة «الشهر»: مجلة أدبية فنية نقدية كانت خلال المدة (١٩٥٨ - ١٩٦٢م) وتعتني بالفكر والثقافة، ومن أبرز كتابها المشاهير عباس العقاد، وعائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ). رأس تحريرها سعدالدين وهبة، وكانت تصدر من القاهرة.

حاضرة عنده كلما احتاج اليها . وانما يضطرب الضعيف الذى تشاع عنه القوة كذبا اذا شاع عنه الضعف بدلا من القوة لأن ما تخلقه الاشاعة تقضى عليه اشاعة مثلها . وما يثبت على الحق لا تمحوه الاباطيل

فليس ادل على ضعف الثقة بالنفس من خوف النقد واتقاء المزاعم ، كذلك يدل على ضعف الثقة بالناس ان يحسبهم انكارهون للنقد الوبة يلعب بها كل ناقد ، وارجوحة تميل بها الاهواء مع كل جاحد وحاقد . وما كان فى وسع احد قط ان يلعب بآراء الناس كافة وان وسعه ان يلعب بآراء القليلين منهم الى حين ، وقديما قيل ما قيل عن نوابغ الدنيا وعباقرة الازمان فذهب القيل والقال وبقيت مآثر النبوغ والعبقرية ساطعة سطوع الشمس راسخة رسوخ الجبال

واشد من ضعف الثقة بالنفس ضعف الثقة بالناس . بل هذا هو سبب ضعف الثقة بكل شىء وبكل انسان . فان الذى يشك فى وجود القيم الصحيحة فى العالم يخشى الخطر على كل قيمة ويحسب المجد كالهوان . وان الجواهر كالحجارة وان العملة المشروعة كالزيوف الممنوعة . ليس بين شرعها ومنعها الا صيحة تعلو هنا او ضجة تخفت هناك

ولسائل ان يسأل : لماذا يحرص الانسان على سمعة لا قيمة لها ..؟ وما قيمة السمعة التى لا تحفظ نفسها بنفسها ؟ وما معنى الخوف على قيمة محفوظة يراها العارفون فلا يخلطون بينها وبين الاعراض والقشور ؟

ان كان للعمل الادبى او العمل الاجتماعى قيمة مقدورة يعرفها الناس فلا خوف عليها من النقد والناقدين ولا حذر عليها من كيد الكائدين وحقد الحاقدين . وان لم تكن للأعمال المأثورة قيمة دائمة فلماذا نحرص عليها ونشفق من زوالها . ونطلب لها الدوام وليس لها حظ من الدوام

ان خوف النقد عادة غير محمودة العاقبة فى جملتها ، عادة لا يؤمن صاحبها بحقه على نفسه . ولا يؤمن بحق مرعى لغيره . ولا يطمئن الى قيمة تحميه من عوارض القلق وبوادر الشكوك . فالكاره للنقد يخطىء فى خوفه من النقد الصواب لان النقد الصواب ينفعه وينفع الناس ولا يصغره فى نظر نفسه ولا يفهم منه حتما انه اقل قدرا واضعف قدرة من ناقديه

وهو يخطىء فى خوفه من النقد الخطأ لانه يحجر على آراء غيره ولا يرى لهم حق المخالفة له ولو خالفوه مخطئين . ولعله يخطىء سبيل العزاء فى الحالتين . فحسبه من عزاء لو شاء ان يتعزى ان ينظر الى ناقديه هل سلموا من النقد وهل وافقهم الناس على كل ما قالوه؟ وهل يرى بين الناس احدا يرضى عنه جميع الناس كائنا ما كان شأنه وبالغا ما بلغ من العلم والرفعة ومحاسن الاخلاق؟

قال الحكيم الاندلسى ابن حزم الملقب بامام النقاد : « من قدر انه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . ومن حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمتها فى أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس اياه اشد واكثر من اغتباطه بمدحهم اياه »

ثم مضى يفسر ذلك برايه فقال : ان مدحهم اياه ان كان بحق وبلغه مدحهم له اسرى ذلك فيه العجب فافسد فضائله . وان كان بباطل فبلغه فسر به فقد صار مسرورا بالكذب . وهذا نقص شديد

واما ذم الناس اياه فان كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سببا الى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم . وان كان بباطل فصبر اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر

واحسن الحكيم فيما قال وفيما عالل . ولو شاء لزاد عليه ان الاغتباط بالذم كثيرا ما يكون من قبيل الثناء المعكوس . وانه لثناء معكوس لا رياء فيه اذا صدر عن حسد ورغبة فى انكار الفضل الذى يشعر به الحساد فيحاولون اخفاءه بالذم والانكار . وربما كان انكار اللئيم ابلغ فى الشهادة لصاحب الفضل من ثناء الكريم . ولقد كان ابن حزم مبتلى فى زمانه بحسد الحساد فاثاروا عليه الخاصة والعامة واحرقوا كتبه وحرموا قراءته فقال :

لئن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
ملأت به القرطاس بل هو فى صدرى

ثم بقى ابن حزم فى كتبه المأثورة وزال حاسدوه فلا يذكرهم الناس الا اذا ذكروه ليصغروهم ويكبروه

ومنذ خمسين سنة كانت كلمة ابن حزم هذه شعار الجريدة التى تولى تحريرها استاذ الجيل احمد لطفى السيد وكان يجعلها شعارا له وجوابا على نقد الناقدين وخلاف المخالفين ، وهم كثيرون فانتهى النقد والخلاف الى تقدير واعتراف ، ولم يبق من جيل الحكيم المصرى — خليفة ابن حزم فى نظرته الى الثناء والذم — الا من يدين له بالاستاذية والسبق الى سواء السبيل فى فهم الوطن والوطنية

وقد نسيت اعمال لم ينقدها احد وبقيت اعمال لم تسلم من النقد فى زمانها ولا بعد زمانها وعمل العاملون وكتب الكاتبون فلم يستحقوا البقاء بما سمعوه من ثناء ، ولم ينقطع غيرهم عن عمل او كتابة خوفا من نقد مضى او نقد يجىء

واشفق بعضهم من التأليف لأنه يجر الى القدح والتعنيف . لا بل جاء فى الامثال ان من اراد بعدو سوءا فليزين له تأليف كتاب او تحبير مقال

فان صح هذا المثل فهو صحيح على شريعة السيد المسيح « احبوا اعداءكم وباركوا لاعنيكم فمن تمنى لعدوه ان يؤلف فتلك امنية صديق لصديق . او امنية عدو لعدو محبوب

نعم : وكالتأليف فى امر النقد كل عمل باق .. تبنيه الهمم والعقول وتقول فيه الالسنة ما تقول»

عباس محمود العقاد

٧

عباس محمود العقاد

(ولد في أسوان سنة ١٨٨٩م) أديب ومفكر وصحفي وشاعر مصري. اشتهر بمعاركه الأدبية والفكرية مع الشاعر أحمد شوقي والدكتور طه حسين والدكتور زكي مبارك والأديب مصطفى صادق الرافعي والدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، وغيرهم، وقد ساهم في إثراء الحياة الأدبية في مصر والعالم العربي عموما، توفي في ١٢ مارس ١٩٦٤م، وكان عمره يوم مات ٧٤ سنة.

إعداد : خالد خلاوي

حوارات

طالب بكلية الهندسة: ابتكرت جهازا لتحويل النفايات إلى غاز وورق فاخر

لم يتعد العشرين عاما، من مواليد محافظة بني سويف المصرية، طالب بكلية الهندسة جامعة ٦ أكتوبر، دفعه رؤية تلال القمامة إلى البحث عن كيفية تحويلها إلى مواد تنفع مجتمعه، وهذا ما نجح فيه «المخترع الصغير» «فادي أشرف مختار» بابتكار وحدة آلية لإعادة تدوير المهملات بالطاقة الشمسية لإنتاج وقود وألومنيوم وورق فاخر، حصل بموجبها على المركز الأول على الوطن العربي من جامعة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في الابتكار، وإلى نص الحوار:

حدثنا أولا عن فكرة مشروعك وهل هي مرتبطة بطبيعة دراستك؟

– الفكرة هي عبارة عن وحدة آلية لإعادة تدوير المهملات بالطاقة الشمسية، وتنقسم لجزأين: الأول، خاص بإعادة تدوير الورق، والآخر، خاص بإعادة تدوير المواد العضوية، فتخرج في صورة ورق فاخر، أو خشب كونتر، وعلب المشروبات الغازية يتم معالجتها وتخرج في شكل «لوح ألومنيوم» بسمك (٢ مللي).

كما أن بواقي الطعام تدخل وتحدث لها عملية تخمر خلال ٧ أيام لتخرج غاز البيوجاز أو الميثان، ويدخل في العديد من الاستخدامات. وحدات البيوجاز مطبقة في العالم منذ أعوام، مثل البرازيل، حيث إنتاجها الرئيسي للوقود يكون عن طريق القمامة. لكن الجديد في الوحدة أنها صغيرة الحجم متر/ متر ونص، وارتفاع متر، تعطي ٤ أضعاف الإنتاجية المتعارف عليها للوحدات الأخرى.

حدثنا عن مراحل عمل الجهاز ومدى أهميته؟

– الجزء الأول خاص بإعادة تدوير الورق والألومنيوم، فالورق يتم فرمه ثم إضافة مواد كيميائية، ثم يتم تعقيمه حراريا، ثم ضغطه في صورة لوح خشبي جاهز قبل أن تستخدمه المصانع، أو يتم تغيير خزانات المواد الكيميائية وإضافة خزانات أخرى لنشارة الخشب وغراء وبعض المواد الكيميائية، ويخرج في صورة خشب، وأما علب المشروبات الغازية بمختلف أنواعها فتدخل ويتم عملية تغطية عليها، ثم تليين بالحرارة، ثم إضافة مواد كيميائية.

من وجهة نظرك، ما أهمية الجهاز؟

– سيحل مشكلتين من أكبر المشاكل الموجودة في مصر حاليا: أولها، نقص مصادر الطاقة، والثانية تكمن في التخلص من القمامة. فمصر تدفع بشكل سنوي ١٥ مليار جنيه للتخلص من القمامة، ويمكن أن نستخدم ربع هذا المبلغ ليساعد على إنتاج خطوط إنتاج للوحدة، للحصول على إنتاجية عالية.

هل جربت الجهاز عمليا؟

– جربته، وحصل على براءة اختراع محلية، وأخرى دولية من جامعة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في المملكة العربية السعودية. فالجهاز خرج من نطاق الحبر على ورق إلى حيز التنفيذ، وموجود في وزارة البحث العلمي المصرية.

طور نفسك

١٠ طرق لتكون صاحب شخصية جذابة

١- اعرف نفسك: فهمك لنفسك وقدرتك على فهم تصرفاتك يعطيك قوة وقدرة على التعامل مع نفسك بذكاء ووعي، يجب أن تعرف تلك الصورة التي سيراك عليها الآخرون قبل أن تفكر في التأثير عليهم.

٢- ارفع معنوياتك: ولتؤثر في الآخرين إيجابيا يجب أن تكون في حالة معنوية مرتفعة، وأسهل الطرق لرفع معنوياتك ممارسة الرياضة، فالرياضة تحسن الحالة المزاجية وتخفف التوتر وتحافظ على الصحة.

٣- أشعرهم بأهميتهم: إذا أردت أن تجذب إليك شخصا فاستمع إلى ما يقوله وتعرف عليه وافهمه أكثر واجعله يشعر أنه أهم شخص في المكان.

٤- طور معلوماتك وثقافتك: تحدث مع الآخرين عن الأشياء التي تهتم بها وتؤثر فيك وترفع معنوياتك وتؤثر في نظرتك للحياة.

٥- اهتم بمظهرك: مظهرك يشير إلى مدى اهتمامك بنفسك واعتدادك بها ورضاك عنها، ولذا ارتدِ أفضل ما تسمح به ميزانيتك.

٦- تعاطف معهم.. الاستماع باهتمام والتعاطف الصادق هما أقصر الطرق لتكون شخصية جذابة، إذ كيف ستؤثر في الناس إذا كنت لا تستطيع أن تفهمهم.

٧- اجعلهم يتذكرون كلامك: في حديثك استخدم دائما الأمثلة التشبيهية والقصص لأنها من أكثر الأدوات التي تجعل حديثك ممتعا مؤثرا.

٨- اهتم بأسمائهم: كل شخص يحب أن يسمع اسمه، لذلك عندما تتحدث إلى شخص احرص على أن تذكر اسمه أثناء حديثك.

٩- كن راضيا: أن تكون راضيا عن نفسك وعما لديك هو مفتاح السعادة الشخصية، والناس ينجذبون إلى الشخص السعيد الراضي المبتهج.

١٠ - كن خفيف الظل: حاول أن يتضمن حديثك بعض الدعابات.

شباب الجامعة

جامعة الكويت تفوز بجائزة رواد المناظرة

حصدت جامعة الكويت يوم ٢٠١٥/٥/٧ جائزة رواد المناظرة في البطولة الدولية الثالثة للمناظرات التي نظمها مركز مناظرات قطر بمشاركة ٦٧ فريقا من ٣٣ دولة عربية وأجنبية.

وأعربت رئيسة وفد جامعة الكويت الدكتورة سهام القبندي عن سعادتها البالغة بهذه الجائزة وسط هذا الحشد للشباب العربي والآسيوي والأوروبي والأميركي.

ومثل دولة الكويت في هذه البطولة خمس جامعات، هي: جامعة الكويت بفريقين من الطلبة وفريق طالبات، والجامعة العربية المفتوحة، وجامعة الخليج للعلوم والتكنولوجيا، والجامعة الأميركية، وكلية القانون الكويتية الدولية، بفريق لكل منها يضم أربعة طلبة ومدربا لكل جامعة.

واستطاعت الفرق الكويتية تحقيق نتائج جيدة في المناظرات لكونها أول مشاركة للطلبة على الصعيد الشخصي، حيث وصل فريق جامعة الكويت (طلاب) إلى دور الثمانية، فيما استطاع فريق كلية القانون الكويتية الدولية الوصول للدور نصف النهائي.

ناجحون

الزكارنة.. مؤسس مشروع القاموس الإسلامي للصم

عمل كبير قام به المشرفون على مشروع القاموس الإسلامي للصم والذي يتاح من خلاله للشريحة المصابة بالصمم التعرف على تعاليم الدين الإسلامي بواسطة شرح سور القرآن الكريم بقصد تدبر وفهم تعاليم الإسلام، لئلا تحرم هذه الفئة الكريمة من فيض هذا الدين وتعلم أحكامه، وهذا ما قام به الأستاذ ناجي محمد زكارنة، مذيع لغة الإشارة للصم ومؤسس مشروع القاموس الإسلامي الإشاري في تفسير القرآن الكريم ومفردات وتعاليم الدين الإسلامي للصم.

يقول الأستاذ الزكارنة عن فكرة المشروع: بدأت فكرة تأسيس هذا القاموس منذ عشرين عاما عندما كنت أترجم الحضارات الدينية للصم في نادي سمو الأمير علي للصم في محافظة الزرقاء في المملكة الأردنية الهاشمية،

ويومها كنت أواجه صعوبة كبيرة في ترجمة الكلمات الدينية، وهي أمانة كبيرة يجب توصيلها للصم بدقة متناهية، والحمد لله، بعد سفري إلى قطر تهيأت لي الأمور المادية من خلال دعم وزارة الأوقاف القطرية، ومن هنا بدأت بجمع الكلمات الخاصة بالمصطلحات الإشارية، وقد استخرجت هذه الكلمات من أمهات بطون الكتب الفقهية، واستعنت بها بعد الله تعالى، وقمت بفهرستها حسب ما يتطلب كل باب، وبعد الجمع والتنقيح قمت بعرض ما عملته على المركز الثقافي للصم، وبفضل من الله تعالى تمت الموافقة على تبني هذا المشروع (القاموس الإشاري الإسلامي)، وساعد على إنجاز المشروع لجان من خبراء عرب ومترجمين في مجال الصم والبكم، حيث تم توزيع الكلمات التي قمت بجمعها على هؤلاء الخبراء في بلدانهم، وتم عمل ورشة عمل في الدوحة للتصويت على الكلمات وتوثيق الصورة التي تعتمد من قبل الصم، ثم بعد تلك الجهود الشاقة تم الاحتفال بتدشين هذا القاموس الذي يحتوي على ١٢٠٠ كلمة من المصطلحات الدينية، وبداية العمل بهذا المشروع كانت عام ٢٠١٠.

إعداد : د. عمرو عبد الكريم

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال الهوية

سؤال على مدار أكثر من قرنين من الزمان والأمة الإسلامية من طنجة إلى جاكرتا تعيش أزمة هوية حادة ضربت في أطنابها، وتعددت مستوياتها وتجلت في كثير من مشكلاتها الاجتماعية والسياسية.

ولقد تعددت تعريفات مفهوم الهوية إلا إنه يدور في جوهره بصفة عامة حول ذلك الإحساس بين أفراد مجتمع معين بأن هناك أسسا أو خصائص تربط فيما بينهم وتميزهم عن غيرهم.. كما يرى كثير من علماء العلوم السياسية أن مفهوم الهوية يشير إلى الأساس الذاتي – وليس بالضرورة العاطفي – للعضوية في مجتمع سياسي معين.

ومن الناحية الفلسفية فالهوية هي ما يكون به الشيء هو. وهي مأخوذة من «هو» بمعنى جوهر الشيء وحقيقته، ومن ثم يتم تعريف الهوية بأنها «مركب» من العناصر المرجعية والمادية والذاتية، حيث تجسد الهوية الضمير الجمعي لأي تكوين بشري، أو تكتل إنساني، بما هو نظام قيمي وثقافي واجتماعي، إذ يشكل وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة، ومن ثم فالهوية تشير إلى الكيان والذاكرة الجماعية، وهي مرتبطة ارتباطا وجوديا بالمعتقدات الدينية والأبعاد الإنسانية والتشكلات الثقافية التي تطبع أي كيان حضاري بسمات معينة.

لذا فإن كثيرا من الباحثين يؤكدون على أن الهوية هي مجمل الثوابت التي لا تتوقف على غيرها، وتبلور مجمل السمات والخصائص المميزة لمجتمع بعينه.

وبالتالي تصبح «الهوية» محددا لوجود المجتمع وعاملا لاستمراريته، وإذا لم تحفظ ويتم الذود عن حياضها يؤدي ذلك إلى قصورها وعجزها عن مواكبة التطور الحضاري، ويكون ذلك سببا في الانهيار أو التدهور الذي يغشى مجتمعا بعينه.

ومن ثم فسؤال الهوية مرتبط بسؤال الذات الحضارية وسؤال الوجود الذاتي، الذي هو في جوهره وجود مستقر، وراسخ لإنسان تلك الهوية.

وجوهر الهوية هو البحث عن الجماعة أو الكيان الذي يتجه إليه ولاء الأفراد في هذه الجماعة أو هذا الكيان، وعندما تلاشى الانتماء الكبير للأمة اشتعلت الانتماءات الصغرى اشتعال النار في الهشيم، فظهرت الانتماءات الجهوية والعرقية واللغوية والثقافية، وكان الانتماء للكيانات الأصغر كالانتماء للأسرة أو للقبيلة أو للإقليم أو للدولة أو حتى في الانتماء لكيان أكبر من الدولة كالأيديولوجيات العابرة للثقافات، وعادة ما تتعدد درجات الولاء، لكن صلب الهوية يتمثل في الولاء الأسمى للأفراد، فعندئذ يستطيع الفرد أن يجد الإجابة على تساؤلات مثل: من أنا؟ ومن نحن؟ وفي أي وعاء حضاري يتشكل وجودنا الذاتي؟

وجوهر أزمة الهوية الحضارية التي تعيشها الأمة الإسلامية تشير إلى أن ما قبلته تلك المجتمعات ذات يوم (وعلى مدار عقود متواصلة) كتعريفات مادية ونفسية للذاتية الجماعية لم يعد مقبولا، أو طرأت عليه من العوامل ما جعلته محل شك في مجتمعات، ومحل إنكار في مجتمعات أخرى، ومحل محاربة في مجتمعات ثالثة.

وعلى مدار الرقعة الواسعة التي تظلل محور طنجة – جاكرتا أثار سؤال الهوية قضيتين مختلفتين:

القضية الأولى: وهي قضية تعدد الهويات وتصارعها، بما يعنيه ذلك من وجود كيانات أخرى خلاف الأمة؛ يتجه إليها ولاء الفرد، وهنا تثار العديد من الأسباب حول تعدد الهويات وتصارعها في بلدان عالم المسلمين، وكان من نتيجة ذلك أن عانت كثير مما يسمى بالدول الإسلامية من مشكلات عدم التكامل الوطني أولا، ثم عدم التكامل الإقليمي، ثم ثالثا: مشكلات عدم التكامل القيمي.

القضية الثانية: وهي وجود فجوة

واسعة بين النخب على مستوى دول العالم الإسلامي والشعوب، إذ في الوقت الذي تولى فيه زمام الأمور نخب ما بعد الاستعمار تشعبت الهويات الوطنية بدول العالم الإسلامي واتسعت فيه الفجوة بين الشعوب والقيادات السياسية والفكرية التي مكن لها الاستعمار من بعد.

وترجع جذور أزمة الهوية في أغلب بلدان العالم الإسلامي إلى الدور الكبير الذي ساهمت به دول الاحتلال الغربي في سحق جذور الهوية الإسلامية، فكانت أزمة اللغة العربية في أغلب بلدان المسلمين مما نتج عنه تشوه المجال الثقافي واللغوي، إذ إن الاحتلال اللغوي - إذا جاز التعبير - في بعض البلدان الإسلامية وسيادة اللغة الأجنبية على المجال العام والتعليمي والتربوي، ولعقود طويلة أدى إلى تفجر أزمة الهوية في دولة ما بعد الاحتلال.

لقد عمل الاحتلال في أغلب بلدان المسلمين على تحطيم الأسس والمقومات الذاتية التي قامت عليها المجتمعات الإسلامية، وعلى التوازي ما قامت به قوات الاحتلال الثقافي في زرع بذور ثقافته ونظمه السياسية والاجتماعية، حتى ضاعت خصوصياتها الحضارية، وذابت معالم هويتها الوطنية والدينية، وتكرست التبعية وضمن الغازي استمرارها.

وكان من تداعيات استمرار أنماط ما قبل الاحتلال أن تشوهت البنية الثقافية لأغلب دولنا الإسلامية، ورغم أن كثيرا من تلك الدول نصت في دساتيرها على أن دينها الإسلام فإن النظم الحاكمة لم تعط هذا الشعار أي محتوى حضاري أو ثقافي أو اقتصادي، وهذا أول ما يعني أن الاحتلال ذهب لكن نهجه بقي متجذرا في البنية السياسية لدولة الاستقلال.

ولقد ساعد على استحكام أزمة الهوية في معظم بلدان العالم الإسلامي عدة عوامل، أهمها: أن الانفتاح على العالم الغربي فرض لغته في المعاملات الاقتصادية، فكانت اللغة الأجنبية هي لغة المسيطر والمهيمن في لعبة غير متوازنة، استمر فيها قانون ابن خلدون: إن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

وربما يكشف سؤال الهوية أهم إشكالات قضايا الوعي الحضاري، إذ إن جوهر سؤال الهوية هو علاقة الذات الحضارية بالآخر المختلف، وعلى مدار قرون كانت العلاقة بالآخرين سواء في بعدها الصراعي أو التعاوني أهم مظاهر اكتشاف الذات.

ولقد تجلى سؤال الهوية في مراحل الانتقال التي عاشتها الشعوب الإسلامية من الأمة - الدولة إلى بدايات تشكل الدولة القطرية، وانغماسها في أزمات ما بعد الاستقلال، ومحاولات بناء دول تملك مقدراتها الذاتية، وتملك قدرات تفعيل مواردها على مواجهة تحدياتها.

وعلى مدار عقود الاستقلال الطويلة عاشت أغلب شعوب العالم الإسلامي أزمة الصراع بين الهوية القطرية أو الهوية السياسية التي تمثل الدولة القومية الحديثة باعتبارها الممثل للعقد الاجتماعي بين السلطة والمواطنين، وبين الهوية الحضارية التي تقوم على أسس: الدين واللغة والثقافة التي تحياها تلك الشعوب والتي تدور في فلكها تلك الدولة.

سؤال الهوية يطرح من الإشكالات أكثر مما يقدم من الأجوبة، وأجوبته مفتوحة لا تحتكر الحقيقة ولا تقصرها على تصور بعينه، بأسئلة الوعي بقدر ما تبعد عن التنميط بقدر ما تفلح في إثارة الذات على واقع أكثر تنوعا وتعددا، وهو ما حفظ الذات الحضارية على مدار قرون طويلة فاستوعبت الحضارة الإسلامية على مدار المساحة الشاسعة التي تظلل محور طنجة - جاكرتا التنوع العرقي والديني والثقافي واللغوي، وحافظت على قدر من التجانس في إطار ثقافة استيعابية تؤكد قيم التعايش السلمي، وثقافة الحوار بالتي هي أحسن، وقبول الآخر المختلف: دينا وعرقا ولغة ومذهبا، وسيادة قيم العدل والقسط والمساواة بين الناس.

ملاحظة منهجية

«الهوية الكونية» التي يروج لها البعض من مفكري عالمنا العربي والإسلامي لا يمكن أن تكون بديلا للهوية الحضارية لشعوب أمتنا لكثير من الاعتبارات الفكرية والعملية والواقعية، وكما حاولت «العولمة» تنميط العالم في الإطار الحضاري الغربي، إلا إن الانفجار التكنولوجي الرهيب في وسائل التواصل الاجتماعي فجر كل الهويات الكامنة على مدار شعوب الكرة الأرضية، وأحيا ما كان قد اندثر من هويات ذاتية لشعوب صغيرة، فما بالنا بعالم إسلامي يتمحور العالم حول حركته وإن كان في مرحلة خفوت حضاري واضح.

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

مفهوم الحضارة عند الفيلسوف طه عبدالرحمن

الحضارة إنتاج خطابي وسلوكي يستند إلى قيم إنسانية حية.

مفهوم الحضارة عند صامويل هانتغتون

«فما الذي نعنيه عندما نتحدث عن حضارة ما؟ إن الحضارة هي كيان ثقافي. فالقرى والأقاليم والمجموعات الاثنية والقوميات والمجموعات الدينية لها جميعها ثقافات متميزة... وهكذا فإن الحضارات هي أعلى تجمع ثقافي للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب، ولا يسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى. وهي تحدد في آن معا بالعناصر الموضوعية المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات، وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب نفسه».

مقولات في الوعي الحضاري

«**مشكلة اليقظة الدينية**» التي دخل فيها العالم الإسلامي تفتقر إلى:
سند فكري محرر على شروط المناهج العقلية والمعايير العلمية المستجدة، فلا نكاد نظفر عند أهلها لا بتأطير منهجي محكم، ولا بتنظير علمي منتج، ولا بتبصير فلسفي مؤسس.
وتراجع اليقظة بأسرع مما استغرق ظهورها من الوقت من نتائج ظاهرتين هما:
١- الغلو في الاختلاف المذهبي.
٢- الخلو من السند الفكري.

الفيلسوف طه عبدالرحمن

«النكتة باعتبارها جزءا من الثقافة الشفهية يمكن أن تكون قناة يعبر من خلالها الرأي الشعبي عن رأيه ورؤيته وغضبه بعيدا عن رقابة سلطة الدولة المركزية، وبالتالي يمكن للنكات أن تكون مؤشرا على تصاعد الوعي الشعبي ودعوة لقوى المعارضة وأعضاء المجتمع المدني للتحرك، تساندهم قاعدة شعبية عريضة».

الدكتور عبد الوهاب المسيري

«إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية ينبتون ويحصدون ويعجنون ويخبزون ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها».

مصطفى صادق الرافعي

عرض كتاب

نقد العقل المسلم: الأزمة والمخرج، تقديم الدكتور محمد عمارة

عبدالحليم أبوشقة

الكويت: دار القلم، ط ٢، ٢٠٠٥، ٢٢١ صفحة.

كتاب أستاذنا الكبير الراحل عبدالحليم أبوشقة «نقد العقل المسلم»، كتاب مركزي في باب الوعي الحضاري، وإذا كان كتابه «تحرير المرأة في عصر الرسالة» هو أهم أعماله الفكرية، فإن كتاب نقد العقل المسلم هو أهم الوصفات الشاملة لأزمة هذا العقل.

يقول مقدم الكتاب الدكتور محمد عمارة: «هذا الكتاب صفحات من الإبداع الفكري الخالص، لأنه لم يكتب في صورة كتاب يتوجه به صاحبه إلى الحياة الثقافية والفكرية، فيراعي ملابساتها وضغوطاتها ومقتضيات مجاملاتها أو توقى محاذيرها وإنما كتب في صورة:

ومضات فكرية، وإلهامات إبداعية خالصة في الصدق والتجرد والعمق والنقاء، فهو زفرات عقل، تصاعدت في لحظات خلوة مع نفس كبيرة تحمل هموم الأمة الإسلامية، بل والإنسانية وتتعبد الله، سبحانه وتعالى، في محراب التفكر والتدبر والتعقل فيما آلت إليه أحوال المسلمين، كأمة والإسلاميين، كطليعة تعلق عليها الأمة أغلب الآمال في النهوض المنشود.

وهو أطواق نجاة للعقل المسلم المعاصر من حالة التردي والتخبط والإحباط، التي تمثل المخاض الذي طال انتظار الخروج من أوحاله».

يقع الكتاب في ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: أزمة العقل المسلم المعاصر.

وبدأ فيه المؤلف بتبيان حجم العقل كنعمة خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات، وربط الكاتب العقل بالإيمان ربطا يجعل أحدهما بدون الآخر خللا في النفس، فكيف يكون الإيمان بلا عقل إلا عبودية لبشر؟ فنحن لم نر الله تعالى، ولم نتوصل إليه إلا بعقولنا، وما كان الهدي النبوي عبر الأزمنة إلا مكملا للطريق الذي ابتدأه العقل نحو الإيمان.

وما العقل دون إيمان يهديه ويرفع من إنسانيته وروحه؟ ودون قيم عليا يهتدي بها تحميه من تدمير نفسه والعالم؟

وفي هذا الفصل يستعرض المؤلف أهم أعراض انحراف العقل المسلم المعاصر وهي:

١- الغفلة عن القواعد الأصولية والقواعد الفقهية.

٢- الوقوع في بعض المزالق الفكرية.

٣- سيطرة الأعراض النفسية السلبية.

وربما كانت أهم ملامح عبقرية المؤلف هي قدرته على ضرب الأمثلة والتمثيل لكل العناصر التي يوردها، وهو الأمر الذي يجعل من عرض أو اختصار مثل تلك النوعية من الكتب أمرا شاقا وعسيرا، ولا يغني بحال من الأحوال عن قراءته قراءة واعية متبصرة، وهو الأمر الذي أشار إليه مقدم الكتاب الدكتور محمد عمارة.

أما الفصل الثاني: حول منهج التفكير الإسلامي.

فيؤكد المؤلف فيه على أن أهم نقطة في صناعة الحضارات، هي صناعة الإنسان، فكلما ارتقى الإنسان وبلغ درجة عالية من التحضر أدرك أهمية صناعة الإنسان، وأولاها عناية خاصة تفوق عنايته بصناعة الآلات، ورسم الخطط وبذل المال لإعداد صانعي الإنسان وصانعي الأجيال.

ثم يحدد المؤلف مصادر المعرفة الإسلامية:

١- الوحي كمصدر لبعض المعلومات عن الكون، بعضها وصلنا إليها بالعلم التجريبي وبعضها ما وراء العقل.

٢- الكون، ووسائل تحصيل المعرفة فيه هي الحس والعقل.

وفي الفصل الثالث: حول الخلاف والحوار.

يتحدث المؤلف عن الخلاف والحوار، وعن أهمية كل منهما، فالخلاف ضرورة من ضرورات الخلق، ولن يتفق الناس جميعا على شيء واحد ولو أردنا ذلك.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل الفن: التمثيل والأناشيد وأعمال الفن المختلفة

عنوان النازلة: حكم تمثيل وتصوير الأنبياء والصحابة.

- الخلاصة الحكمية:

١- لا يجوز تمثيل النبي ﷺ، وخلفائه الأربعة، وأمهات المؤمنين، وبناته، ويستعاض عن ذلك بأن تحكي بعض الشخصيات الأخرى أقوالهم.

٢- يجب على ولاة الأمور، والمسؤولين، ووزارات الإعلام، وأصحاب وسائل النشر، منع تصوير النبي ﷺ، صورا مجسمة، وغير مجسمة: في القصص والروايات، والمسرحيات، وكتب الأطفال، والأفلام، والتلفاز، والسينما، وغير ذلك من وسائل النشر، ويجب إنكاره، وإتلاف ما يوجد من ذلك، وكذلك يمنع ذلك في حق الصحابة رضي الله عنهم.

٣- قرارات المجامع الفقهية، وهيئة كبار العلماء، ورابطة العالم الإسلامي، وغيرهم: تحريم تمثيل النبي ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم.

٤- متى ما تقيد العاملون بالضوابط الشرعية - الآتي ذكرها - في أي مسلسل أو تمثيلية؛ فإنه يكون صالحا للعرض، وإلا فلا.

* القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:

● **أولا: فتوى لجنة الفتوى بدولة الكويت رقم (٧٢٣٦) في المجلد (٢٢/ص٤١٤)؛ حول «العمل في المسرحيات، وتمثيل النبي وأزواجه وأصحابه»، وفيه:**

عرض على اللجنة استفتاء حول عرض مسلسل تاريخي بعنوان «خالد بن الوليد»؛ فأجابت بما يلي:

١) الأصل أن التمثيليات والمسرحيات مباح إنتاجها، والعمل فيها من تمثيل، وإخراج، وعرض، وغير ذلك إذا روعي فيها الأمور المعتبرة شرعا، وذلك لأن التمثيل من أحسن الوسائل التثقيفية، وأن تأثيره في النفوس أقوى من كثير من الوسائل التقليدية.

٢) لابد في التمثيليات التاريخية الإسلامية من أن تكون صادقة تاريخيا بأن تتقيد في إيراد الوقائع والظروف المحيطة بها بتمثيل ما كان واقعا قدر الإمكان، وذلك بأن تكون موافقة للروايات الصحيحة الواردة في المصادر الإسلامية الموثوقة، وخاصة في التمثيليات التي تتعرض لحياة النبي ﷺ وأصحابه وأبطال الإسلام.

٣) لا يجوز تمثيل النبي ﷺ، وخلفائه الأربعة، وأمهات المؤمنين، وبناته، ويستعاض عن ذلك بأن تحكي بعض الشخصيات الأخرى أقوالهم.

٤) أن يكون الهدف من تمثيل الصحابة إبراز دورهم في فهم وتطبيق ما ورد في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الكريم ﷺ من أحكام، ودورهم القيادي في مسيرة الأمة الإسلامية، وامتثالهم لأوامر الله تعالى ونواهيه، وتمسكهم بأحكام الشريعة الإسلامية عقيدة، وخلقا وعملا، ومنهجا وسلوكا.

٥) أن يكون ما ينسب للصحابي من قول أو فعل ثابت الرواية عنه.

٦) أن يكون الممثلون له، من المسلمين المتمسكين بدينهم والمشهود لهم بالصلاح والتقوى.

٧) يراعى في أهداف المسرحيات والتمثيليات أن تكون مقررة لمحاسن الأخلاق والآداب، ومنفرة عن مساوئها، ومرغبة في أن تكون الحياة ملتزمة بالإسلام بعيدة عن الإثارة الجنسية، والإسفاف الخلقي.

٨) أن تعرض هذه التمثيليات قبل عرضها على الجمهور على لجنة علمية دينية متخصصة لإقرارها أو اقتراح إدخال التعديلات الضرورية عليها.

- فإذا تحققت هذه الضوابط في هذا المسلسل فإنه يكون صالحا للعرض، وإلا فلا. والله أعلم.

انتهت الفتوى.

● **ثانيا: ثم صدر قرار مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة في ذي القعدة عام ١٣٩٧هـ، ومن توصياته:**

يؤيد المؤتمر الإمام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الإسلامية في بيانه المؤسس على قرار المجمع بأنه لا يقر إنتاج فيلم «محمد رسول الله» بهذا الاسم، أو باسم «الرسالة»، أو أي فيلم آخر يتناول بالتمثيل صاحب الرسالة، أو أحد أصحابه الكرام.

ولا يجوز السماح بعرضه صيانة لشخصية الرسول الكريم، وأصحابه الأجلاء من التعرض لما لا يليق بمنزلتهم المصونة.

ويطالب المؤتمر بمراقبة الأفلام السينمائية والتمثيليات قبل عرضها، ومنع ما يتعارض منها مع تعاليم الدين الحنيف، ويطالب باختيار رؤساء تحرير الصحف والمجلات على مستوى المسؤولية، وأن تمنع المجلات والكتب المستهترة بالقيم الدينية والخلقية.

انتهى القرار.

● **ثالثا: ثم صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي؛ التابع لرابطة العالم الإسلامي؛ مستنكرا**

إخراج فيلم «محمد رسول الله ﷺ»، ونصه:

«وقد عرض هذا الموضوع على المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، فقرر: تحريم إخراج فيلم عن النبي، وتحريم تمثيل الصحابة، وذلك في المادة السادسة من قراره المتخذ في دورته الثالثة عشرة، المنعقدة خلال المدة من ١ شعبان ١٣٩١ إلى ١٣ شعبان ١٣٩١هـ، وهذا نص المادة المذكورة:

١- يقرر المجلس التأسيسي بالإجماع تحريم إخراج فيلم محمد رسول الله؛ لما فيه من تمثيله بآلة التصوير الكاميرا، مشيرة إليه، وإلى موضعه، وحركاته، وسائر شؤونه بالتحديد، وتمثيل بعض الصحابة في مواقف عديدة، ومشاهد مختلفة، وهو محرم بالإجماع.

٢- يوصي المجلس الأمانة العامة للرابطة بإبلاغ هذا القرار لجميع الدول الإسلامية، والمنظمات الإسلامية، والجمعيات الدينية في البلاد العربية والإسلامية، ووزارات الإعلام، ومشيخة الأزهر، ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، والصحف، والإذاعات في البلاد الإسلامية كافة.

٣- يوصي المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، بإخطار مخرج هذا الفيلم بهذا القرار جوابا على طلبه الأخير بإخراج الفيلم، وإنذاره بأن الأمانة العامة للرابطة ستتخذ الإجراءات القانونية ضد كل من يحاول الاعتداء على قدسية، وحرمة صاحب الرسالة العظمى، وحرمة أصحابه الأكرمين في أية جهة من العالم.

٤- يوصي المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بوضع رسالة في حرمة إخراج فيلم عن النبي، وعن أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، تضم ما أجرته الأمانة العامة للرابطة بشأنه في جميع مراحله، وما صدر فيه من قرارات في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمنظمات الإسلامية الأخرى، وما صدر بشأنه من القرارات والفتاوى في البلاد الإسلامية عامة، ونشر ذلك في البلاد الإسلامية تبصرة، وتنويرا وإرشادا، وتحذيرا.

٥- يشكر المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي على ما قامت به من جهود موفقة في هذا الموضوع الخطير».

انتهى القرار.

● رابعا: ثم صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الاسلامي في دورة مؤتمره الثامنة، والمنعقد في مكة: ٢٧ ربيع الآخر، و٨ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ؛ بشأن موضوع استنكار المجلس تصوير النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومما ورد فيه باختصار:

«أن مقام النبي ﷺ مقام عظيم عند الله تعالى، وعند المسلمين، وأن مكانته السامية، ومنزلته الرفيعة، معلومة من الدين بالضرورة...

وأن الواجب على المسلمين: احترامه، وتقديره، وتعظيمه التعظيم اللائق بمقامه ومنزلته عليه الصلاة والسلام...

فإن أي امتهان له، أو تنقص من قدره، يعتبر كفرا، وردة عن الإسلام، والعياذ بالله تعالى.

وأن تخييل شخصه الشريف بالصور، سواء كانت مرسومة متحركة، أو ثابتة، وسواء كانت ذات جرم وظل، أو ليس لها ظل وجرم، كل ذلك حرام، لا يحل، ولا يجوز شرعا...

وكذلك يمنع ذلك في حق الصحابة - رضي الله عنهم - فإن لهم من شرف الصحبة...

ومثل النبي ﷺ سائر الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فيحرم في حقهم ما يحرم في حق النبي ﷺ...

لذا؛ فإن المجلس يقرر: بأن تصوير أي واحد من هؤلاء حرام، ولا يجوز شرعا، ويجب منعه.

انتهى القرار باختصار.

● التعليق:

- كذلك قررت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية منع تمثيل الصحابة رضي الله عنهم: والنبي ﷺ من باب أولى، وذلك بقرارها رقم ١٣ وتاريخ ١٦/ ٤/ ١٣٩٣هـ، وهو من أهم القرارات عمقا، وإقناعا، وتفنيدا لحجة المجيزين.

- وبمثل ذلك قرر مجلس هيئة كبار العلماء في دورته العشرين المنعقدة بمدينة الطائف من ١٤٠٢/١٠/٢٥حتى ١٤٠٢/١١/٦هـ اطلع المجلس على الأمر السامي رقم (١٢٤٤) وتاريخ ١٤٠٢/٧/٢٦هـ المتضمن الرغبة الكريمة في قيام مجلس هيئة كبار العلماء بالنظر في موضوع تمثيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتمثيل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وحكم تمثيل الأنبياء وأتباعهم من جانب، والكفار من جانب آخر. بعد صدور الفتوى رقم (٤٧٢٣) وتاريخ ١٤٠٢/٧/١١هـ من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بتحريم ذلك.

- وفي الدورة الثانية والعشرين لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة بمدينة الطائف من العشرين من شهر شوال حتى الثاني من شهر ذي القعدة عام ١٤٠٣هـ؛ أعاد المجلس النظر في الموضوع، ورجع إلى قراره السابق رقم (١٣) وتاريخ ١٣٩٣/٤/١٦هـ، وإلى الكتاب المرفوع من المجلس بتوقيع رئيس الدورة الخامسة إلى جلالة الملك فيصل رحمه الله برقم (١/١٨٧٥)، وتاريخ ١٣٩٤/٨/٢٧هـ؛ المتضمن تأييد مجلس هيئة كبار العلماء لما قرره مؤتمر المنظمات الإسلامية من تحريم إظهار فيلم «محمد رسول الله»، وإخراجه، ونشره، سواء فيما يتعلق بالرسول ﷺ، أو بأصحابه الكرام رضي الله عنهم.

- ومن جميل ما عللت به لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف الكويتية عدم جواز تمثيل الأنبياء قولها: «لأن ذلك يعني الكذب عليهم، والكذب عليهم محرم شرعا، لقول النبي ﷺ: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (متفق عليه)، (٢٥٥٦/٣١/٩).

حلاوة العبادة

قال الإمام أحمد بن حرب رحمه الله: «عبدت الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتى تركت أشياء: تركت رضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق. وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين. وتركت حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة».

(سير أعلام النبلاء ١١/٣٤).

لطائف الحكم

- من طلب من البخيل حاجة، كمن طلب السمك في المفازة.
- من كان الناس عنده سواء، لم يكن له أصدقاء.
- من صبر على مودة الكاذب؛ فهو مثله.
- أول المـروءة: طلاقة الوجه، والثانية: التودد، والثالثة: الفصاحة.
- لا تحقر الفقير الشريف، ولا ترغب في الغني الدنيء.
- ما أجمل الصبر على ما لابد لك منه.
- خذلان الجار لؤم.
- قرابة بلا منفعة؛ بلية عظيمة.
- ليس مع الحسد سرور، ولا مع الحرص راحة.
- الحاسد يظهر وده في كلامه، وبغضه في أفعاله.

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي، ص ٦٧).

أشرف ما رغب فيه الراغب

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجَدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه الكاسب، لأن شرفه ينم على صاحبه، وفضله ينمي عند طالبه، وقد منع الله المساواة بين العالم والجاهل؛ لما خص به العالم من فضيلة العلم.

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه: يا بني تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة (أي: من عامة الناس) عشتم.

(الكشكول للياسين، ص٦٠).

الرفق نصف العفو

وقف رجل بين يدي المأمون وقد جنى جناية، فقال له: والله لأقتلنك.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، تَأَنَّ علي، فإن الرفق نصف العفو.

قال المأمون: وكيف وقد حلفت لأقتلنك؟

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، لأن تلقى الله حانثا خير لك من أن تلقاه قاتلا... فخلى سبيله.

(رياض الهمم في النصائح والحكم، ص ٩١).

رداء العمل

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو أن عبدا دخل بيتا في جوف بيت فأدمن هناك عملا، أوشك الناس أن يتحدثوا به، وما من عامل يعمل إلا كساه الله رداء عمله؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر».

(الزهد والرقائق لابن المبارك ٢/١٧).

من منثور الحكم

إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء.

وقال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه، وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه، وعلم أنه لم ينله؛ وأما الشبر الثالث فهيهات، لا يناله أحد أبدا.

وقال حكيم: من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم.

(أدب الدنيا والدين، ص ٨٠).

الحزم والعجز

قال حكيم لرجل يجلس إليه: ما حرفتك؟ قال: التوكل على ربي والثقة بما عنده، فقال الحكيم: الثقة بربك تحرم عليك إصلاح معيشتك! أوما علمت أن طلب ما تعف به عن المسألة حزم، والعجز عنه فشل، والفقر مفسدة للتقى، متهم للبريء، ولا يرضى به إلا الدنيء».

(محاضرات الأدباء للأصبهاني ١/١٢٥).

ذهبوا وبقيت أعمالهم

قال مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى: كنت أمشي مع ابن عمر رضي الله عنه، فمر على خربة، فقال: «قل: يا خربة، ما فعل أهلك؟».

فقلت: يا خربة، ما فعل أهلك؟

قال ابن عمر رضي الله عنه: «ذهبوا وبقيت أعمالهم».

(آداب النفوس للمحاسبي، ص ٤٣).

عندما تطيب العزلة

قال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى: «... فيه إباحة لزوم البادية، واكتساب الغنم، وأنه ينبغي للمرء أن يحب الغنم والبادية اقتداء بالسلف، وفرارا من شرور الناس، واعتزالا عنهم، ولكن في البعد عن الجماعة والجمعة ما فيه من البعد عن الفضائل، إلا أن الزمان إذا كثر فيه الشر، وتعذرت فيه السلامة؛ طابت العزلة».

(الاستذكار ٢/٢٨).

دواء خلل السريرة

قال سلمان رضي الله عنه: «إذا أسأت سيئة في سريرة، فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية، فأحسن حسنة في علانية؛ لكي تكون هذه بهذه».

(التوبة لابن أبي الدنيا، ص ١٢١).

موعظة بليغة

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه معزيا رجلا بابنه: «إنك إن صبرت جرى عليك القدر؛ وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر؛ وأنت مأزور».

(التعازي لأبي الحسن المدائني، ص ٨٢).

ذؤابة

نقل أبوحيان التوحيدي أن منصور بن عمار حض الناس على الغزو في فناء دار الرشيد بالرقة، فطرحت امرأة من حاشيته صرة تصحبها رقعة مكتوب عليها: «رأيتك يا ابن عمار تحض الناس على الجهاد، وقد ألقيت إليك بذؤابتي، فلست أملك غيرها، فبالله إلا جعلتها قيد فارس غاز في سبيل الله تعالى، فعسى الله جل جلاله يرحمني بذلك، فارتج المجلس بالبكاء، وضج بالنحيب، وتعجب الناس من ذلك.

(البصائر والذخائر ٨/٢٩).

مذاكرة الرجال تلقيح لعقولها

ذكر الصمت والكلام عند الأحنف بن قيس، فقال قوم: الصمت أفضل؛ فقال الأحنف: الكلام أفضل لأن الصمت لا يعدو صاحبه، والكلام ينتفع به من سمعه، ومذاكرة الرجال تلقيح لعقولها.

(بهجة المجالس لابن عبدالبر القرطبي ١/٥٤).

إعداد : علاء عبدالفتاح

فرحة «الوعي الإسلامي»

وصلت إلى كلية البافقيه للآداب والعلوم الإسلامية في هذا اليوم المضيء مجلة «الوعي الإسلامي»، التي تحمل في طياتها دراسات نافعة ومقالات قيمة تتعلق بالتراث العربي والأدب الإنساني.

ونحن - أساتذة الكلية - اطلعنا على المجلتين («الوعي الإسلامي» و«براعم الإيمان»)، من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، وسعدنا بمحتوياتهما، وجودة معالجتهما للمواضيع الدينية الإسلامية، كما أن أناقتهما في الإخراج ونوعيتهما في المضمون تنبغي الإشادة بهما والثناء عليهما. وقد طلبنا من طلبة الكلية البافقيه الاستفادة منهما؛ لكي يرتقوا إلى أفق اللغة العربية والأخلاق الربانية معا.

ونشكر من سويداء قلوبنا القائمين على هذه المجلة الغراء. وندعو الله الملك المنان أن يبارك في جهودهم وأن يسدد خطاهم، والله الموفق والمرشد إلى سواء السبيل. وإن شاء الله سيتعرف طلبتنا على حبيبهم الجديد، وسيعرفون للمجلة قدرها ومكانتها في أوقات قراءتهم.

ونرجو تعاونكم المستمر بإرسال مجلتنا الغراء كي يستفيد منها أكثر من مئة وخمسين طالبا من طلاب الكلية. تجدر الإشارة هنا إلى أننا نعتبر أطفالا في اللغة العربية، ولذا نرجو منكم استمرار مجيء مجلة «براعم الإيمان»، فهي مجلة تسهل دروبنا إلى قمة اللغة العربية الفصحى.

● محمد خبيب الوافي
عميد كلية البافقيه للآداب
والعلوم الإسلامية بالهند

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

التفكير في خلق الله يثبت العقيدة

ميز الله تعالى الإنسان بالعقل على جميع الحيوانات، وجعله مناط التكليف، وهو مصدر سعادته، ومنشأ شقائه، وكل ذلك رهن بصحة أحكامه أو ضلالها.

زد على ذلك أن العقل إذا نما وسما، كان كفيلا برقي البشر وتمدينهم وتسخيرهم ما في السموات والأرض في سبيل مصالحهم الخاصة والعامة. فالعقل السليم إذن إكسير الحياة ومنبع السعادة، ولولاه لما كانت للإنسان قيمة ما، ولبقي هذا العالم من دون مغزى أو هدف. ولهذه الآثار العظيمة للعقل اهتم المفكرون بتنمية عقول ناشئتهم وأجيالهم؛ ليستطيعوا اقتطاف ثمراته اليانعة في مختلف ميادين الحياة.

واتخذوا التعليم وسيلة لهذه الغاية، فإن كثيرا من الأبحاث إنما وضعت لهدف آخر غير هدف الفائدة المادية المباشرة لها، وهذا الهدف الآخر هو تنمية العقل والسمو بالتفكير وفتح الآفاق أمام الفكر.

ولكن أكثر الناس ظنوا أن دراسة العلوم وقراءة الكتب مما يكفي لنمو العقل وتربية الإنسان، فأكبوا على الكتب يقرأونها ويدرسون ما فيها، ظانين أنها هي وحدها مصدر العلم ومنبع المعرفة.

لقد أهمل هؤلاء النظر في كتاب كبير آخر معروض دائما أمام الذهن البشري ليطالع فيه ويتأمل، وهو يصحبه في كل مكان وفي كل وقت، ذلك الكتاب الذي أهملوا النظر فيه وقراءة سطوره هو الكون نفسه.

● **هناء ثابت**

الجالية المسلمة في الأوروغواي

تقع الأوروغواي شرق أميركا الجنوبية، ولها حدود مشتركة مع دولتي البرازيل والأرجنتين وساحل المحيط الأطلنطي. عدد سكان الدولة ٣,٢٥ ملايين نسمة، وعدد سكان العاصمة مونتيفيديو ١,٤مليون نسمة في مساحة ١٧٦٢١٥ كلم٢.

أما عدد المسلمين في هذه الدولة فقليل جدا، وهو يتراوح ما بين ٥٠ و٨٠ شخصا فقط من المواطنين والمهاجرين، ومعظمهم من أهل البلد نفسه، حيث دخلوا في دين الإسلام منذ فترة قصيرة، وأكثرهم يعيشون في العاصمة، وعدد قليل منهم منتشر حولها في مدن أخرى.

أول ما أسس في هذه الدولة من المساجد أو المراكز الإسلامية، هو المسجد الذي افتتحته السفارة المصرية عام ١٩٨٣م، والذي لايزال موجودا بجوارها. وظلت الدعوة الإسلامية منحصرة فيه فترة من الزمن إلى أن أسست المنظمة الثقافية الإسلامية في الأوروغواي عام ٢٠٠٨م.

وتتمتع المنظمة بالاعتراف من المنظمة الإسلامية لأميركا اللاتينية والكاريبي (OIPALC)، التي مديرها العام هو السيد المهندس محمد هاهر، وكذلك من مركز خادم الحرمين الشريفين الثقافي الإسلامي في الأرجنتين (CCIAR). وقد شارك رئيس المنظمة الإسلامية في الأوروغواي ثامر شاكي، في المؤتمر الذي انعقد هذا العام ١٤٣٣هـ به، وتحت عنوان «سبل النهوض بالجاليات الإسلامية في أميركا اللاتينية والبحر الكاريبي». وقد زار مديرا المؤسستين المذكورتين آنفا المسجد التابع للمنظمة الإسلامية بالأوروغواي مرات عديدة.

● **سليم أنطونيو**

منبر الفكر السليم

أخي رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

وصلني العدد ٦٠٠ من المجلة لشهر شعبان من عام ١٤٣٦هـ، وإنني أشكر الرجال الكرام الذين يديرون المجلة ويهتمون بها لأمور كثيرة من أهمها:

١- المحافظة على الصدور في بداية الشهر العربي وليس الإفرنجي كما تسلك مطبوعات كثيرة.

٢- التعامل بالتاريخ الهجري، تاريخ الإسلام، وليس كمن استبدل به ما هو أدنى منه، وهو الميلادي تاريخ غير المسلمين.

٣- حافظت المجلة على تنوعها وشمولها ورصانة موضوعاتها وأصالتها.

٤- إخراج ممتاز للمجلة يندر أن نجد مثيلا له في المطبوعات الشهرية والأسبوعية.

٥- عدد شهر شعبان يصل إلي في دولة أخرى غير بلد الصدور في ٢٣ من شهر رجب وهذا سبق وتألق يذكر فيشكر، سلمت أيد كتبت وطبعت ونقلت وأشرفت.

حفظ الله الكويت وأهلها، وأبقاكم منبرا للفكر السليم والأدب الأصيل وإعلام البناء والنور والأمل المشرق، ووفقنا وإياكم لما يرضيه إنه جواد كريم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

● عبدالعزيز بن صالح العسكر
عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.

أهمية تحقيق التراث

الأمة الإسلامية اليوم أشد احتياجا إلى مقام تحقيق التراث العلمي والفكري والثقافي والحضاري الإسلامي، الذي خلفه السلف على مر الأزمان والعصور الماضية في مختلف مشارب العلوم والمعارف والفنون. هذا التحقيق يستدعي تعميق النظر فيه، من حيث البيان والإيضاح لعدد من القضايا والمباحث، لما تختزنه من رؤى وأفكار أنارت سبيل بحثهم، وطريق دربهم، ومعالم سيرهم في تأليف العلوم وتصنيفها، وتنزيل وجوه التدليل والتوجيه لمسالك إعمالها في واقع معاشهم، ورسم خطى تنظيرهم وتقعيدهم لمسار اجتهادهم، وإبراز تألقهم وإبداعهم.

● د. منعم السنون

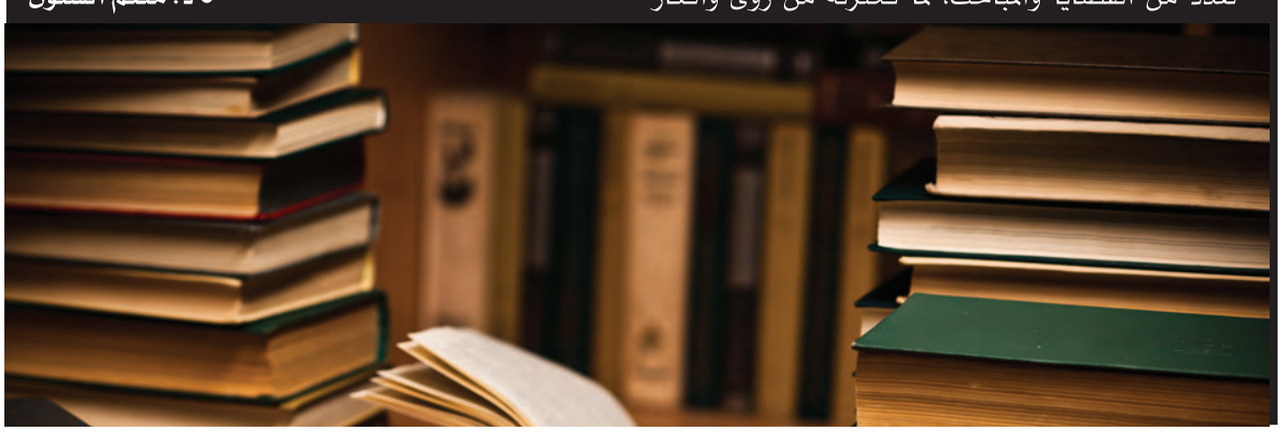

العز بن عبدالسلام... سلطان العلماء

الاقتصاد الإسلامي – كما نعرف – علم يعنى ببحث الظواهر الاقتصادية للإنسان من منطلقات منهجية وفكرية، فمصادر العلم في الإسلام – بوجه عام – لا تقتصر على الحس والعقل، وإنما تتعدى ذلك إلى مصدر ثالث له أهميته الكبرى، وهو الوحي. وبهذا تتوافر للاقتصاد وغيره من علوم أخرى المصادر المتكاملة للمعرفة من جهة، والمنهج الفكري السليم من جهة ثانية.

والعز بن عبدالسلام في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» يجسد مدى اهتمام الشريعة والفقه الإسلامي باستقرار وازدهار الحياة الاقتصادية للأفراد والمجتمعات، وذلك طبقا للرؤية السابقة أن للنشاط الاقتصادي وضوابطه مساحة في فكر الإمام العز بن عبدالسلام. وتتبنى هذه الدراسة إظهار جانب من عبقرية هذا العالم الإسلامي الشهير، في مادة قلما تؤطر في كتب التراث الإسلامي، وهي مادة ضوابط النشاط الاقتصادي واصطلاحات العلاقات الناشئة عن تصرفاته.

العز بن عبدالسلام هو عالم دين مسلم سني على مذهب الأشاعرة، وفقيه شافعي، لقب بـ «عز الدين» و«سلطان العلماء» و«بائع الملوك»، اسمه بالكامل: أبومحمد عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذب السلمي، مغربي الأصل، ولد في دمشق في سوريا عام ٥٧٧هـ، وعاش فيها، وبرز في الدعوة والفقه. وقد نشأ في دمشق في كنف أسرة متدينة فقيرة مغمورة، وابتدأ العلم في سن متأخرة نسبيا، تزود بالعلم حتى صار أحد أعلم زمانه، فقد قصد العز فطاحل العلماء في عصره، وجلس في حلقاتهم، ونهل من علومهم، وتأثر بأخلاقهم، واستوعب العلوم في مدة تعتبر وجيزة، فقد قال عن نفسه: «ما احتجت في علم من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذي أقرأ عليه إلا وقال لي الشيخ: قد استغنيت عني، فاشتغل مع نفسك. ولم أقنع بذلك، بل لا أبرح حتى أكمل الكتاب الذي أقرأه عليه في ذلك العلم».

● د. رضا عبدالحكيم

دور اللغة السواحيلية... في نشر الإسلام

تعتبر اللغة السواحيلية من أعرق اللغات في إفريقيا، وهي اليوم من أهم لغات شرق إفريقيا، وهي اللغة الرسمية لكل من دولتي تنزانيا وكينيا. ولقد ظهرت هذه اللغة في الساحل الشرقي لإفريقيا في القرن الثامن الميلادي، وذلك بفضل جهود التجار العرب، خصوصا العمانيين، الذين ابتدعوها للتواصل مع السكان المحليين؛ ولذلك نجد اليوم أن حوالي ٢٥ في المئة من مفرداتها عربية، وما تبقى فهو من أصول لغة «البانتو» الإفريقية. ولقد ظلت اللغة السواحيلية، وإلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، تقرأ وتكتب بحروف عربية، ولكن مع دخول الاستعمار الإنجليزي المنطقة، أصبحت تكتب بحروف لاتينية.

ولقد كان لانتشار اللغة السواحيلية بين السكان الأصليين الأثر الكبير في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين القبائل التي تقيم على الساحل الإفريقي وتلك التي تقيم حول الطرق الرئيسية للقوافل والممتدة من الساحل إلى بحيرة «نياسا» وإلى المدن والقرى الداخلية الواقعة على بحيرة «تنجانيقا».

ولقد كان للغة السواحيلية دور كبير في اختلاط العديد من القبائل الإفريقية بعد أن أسلمت، كما وحدت هذه اللغة بين السكان في هذه المنطقة، حيث كانت الثقافة السواحيلية عاملا للوحدة بين سكان الساحل الإفريقي، حيث التمازج والتزاوج فيما بينهم، وأصبحت عامل ربط بين الساحل والداخل، وانتشرت انتشارا واسعا بعد أن حمل العرب العمانيون هذه اللغة الوليدة إلى القبائل كثيرة.

● حسن بن محمد

الوحدة المنشودة

يمكن القول بأننا وقعنا في خطأ حضاري واستراتيجي قاتل، أو أننا أجبرنا على الوقوع فيه بطريقة أو بأخرى؛ وفق سياق نظرية المؤامرة، فقد انسلخنا كعرب عن النسيج الإسلامي بمفهومه الواسع، مما أفقدنا مناعة ضد الحملات الفكرية والعسكرية والاقتصادية التي لا تفتر من طرف القوى الغربية والإقليمية المتربصة، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال نكرانها أو نفيها، فصراع الهيمنة قائم وأزلي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، رغم أن هناك من يحاول نفي نظرية المؤامرة والصراع ويعتبرها شماعة نعلق عليها فشلنا وتخلفنا.

الأمم المتآمرة تحشد صفوفها من أجل بسط نفوذها على العرب والمسلمين إجمالا، فتراها تتوحد وتتصهر في بوتقة واحدة من أجل تكريس قوتها وسيطرتها في مختلف الميادين، في حين لم نستطع نحن أن ننشئ تحالفا إسلاميا يمتد من جاكرتا إلى المغرب، رغم ما يفرزه ذلك من قوة هائلة لا تصمد أمامها لا أميركا ولا أوروبا ولا حتى إسرائيل، نظرا للإمكانات التي ستتوافر إذا تحقق هذا الاتحاد، والذي سيكون بدون شك «لحمة متماسكة» يجمعها دين واحد ومصير مشترك، وموارد اقتصادية وبشرية كبيرة جدا، بخلاف بقية الأمم التي تمكنت من تحقيق الوحدة رغم تعدد الأديان والاثنيات والأهداف.

كان الأجدر بنا أن نتجه شرقا، خصوصا نحو بلدان شرق آسيا المسلمة التي يتصاعد نجمها يوما بعد يوم، لأنها تمكنت من جعل الإسلام منهاج حياة لا يتعارض مع مستجدات العصر، وبنت من خلاله إنسانا صالحا تسيره المبادئ السمحة في مختلف مناحي الحياة، إنسانا مسلحا بالعلم والفضيلة والغايات النبيلة، فأقامت بذلك دولا ناجحة ومتطورة، لذلك فقد أخطأنا فعلا عندما أهملنا هذا الجزء من الجسد الإسلامي ولم نتعلم منه ولم نتحد معه.

التحدي الحضاري الذي نواجهه، وينبغي أن نكون على درجة كبيرة من الوعي لاستيعاب أبعاده وضروراته، هو واجب تغيير تفكيرنا بالكامل تجاه حصر الوحدة في الوطن العربي فقط، وتوسيع إدراكنا لهذه القضية، بل وإلغاء كلي لفكرة أن العرب وحدهم معنيون بصناعة نموذج إسلامي ناجح، لأن هذا لن يتحقق أبدا بدون ضم مختلف البلدان الإسلامية وانصهارها في بوتقة واحدة، لأن الأمة الإسلامية كل متكامل لا يتجزأ، وهي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وإن حدث خلاف ذلك فمعناه الضعف والتشتت وسهولة الخضوع.

لقد حفل التاريخ الإسلامي بشخصيات مرموقة تركت بصمتها، فكان الكثير من العلماء وقادة الجيوش وحتى الملوك من غير العرب ومن اثنيات مختلفة، إلا إنهم برزوا وعملوا من أجل مصلحة المسلمين عموما، ومن أجل دولة الإسلام بالمفهوم الواسع للكلمة، الدولة التي بلغت حدود أوروبا وأقاصي الهند والسند، وبنت مجدا ساهم فيه كل المسلمين، واستفادت منه حتى بقية الأمم التي نتقاسم معها هذا الوجود وهذا الكوكب.

إننا بالفعل إذا سعينا لِلَمِّ شمل الدول الإسلامية، وأعني تلك التي لا يسكنها وهم التسلط والسيطرة بدافع اثني أو طائفي، وسعينا بعزيمة وإخلاص من أجل تحقيق الوحدة معها، عندها فقط يمكن أن تكون للعرب قوة يُعتد بها، وتحسب لهم الأمم الأخرى ألف حساب قبل أن تتجرأ على مجرد التفكير في إلحاق الأذى بها أو استهدافها.

عبدالعالي زواغي- الجزائر